قصص وحكايات الفوارس

الملك زرارة و الملكة سفانة

جمال شاهين

جمال شاهين

المكتبة الخاصة ٢٠٢١



بسم الله الرحمن الرحيم



المكتبة الخاصة

الملك زرارة والملكة سفانة

جمال شاهين

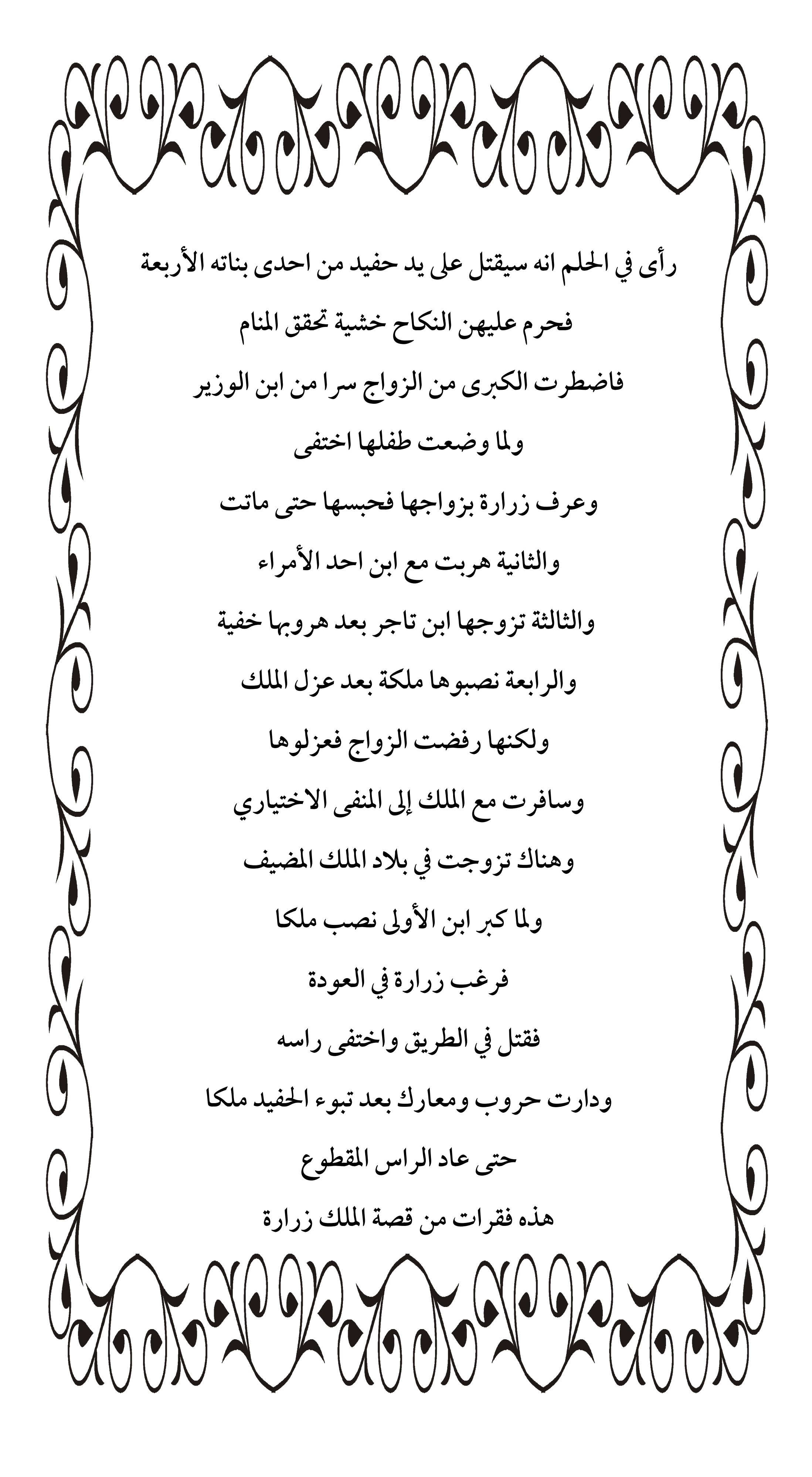
النشر الأول ٢٠١٤

النشر الثاني ٢٠١٨

الاخير الثالث ٢٠٢١

جمال شاهين





رأى في الحلم انه سيقتل على يد حفيد من احدى بناته الأربعة

فحرم عليهن النكاح خشية تحقق المنام

فاضطرت الكبرى من الزواج سرا من ابن الوزير

ولما وضعت طفلها اختفى

وعرف زرارة بزواجها فحبسها حتى ماتت

والثانية هربت مع ابن احد الأمراء

والثالثة تزوجها ابن تاجر بعد هروبها خفية

والرابعة نصبوها ملكة بعد عزل الملك

ولكنها رفضت الزواج فعزلوها

وسافرت مع الملك إلى المنفى الاختياري

وهناك تزوجت في بلاد الملك المضيف

ولما كبر ابن الأولى نصب ملكا

فرغب زرارة في العودة

فقتل في الطريق واختفى راسه

ودارت حروب ومعارك بعد تبوء الحفيد ملكا

حتى عاد الراس المقطوع

هذه فقرات من قصة الملك زرارة


الملك زرارة
والملكة سفانة

الحلم والكاهن

اللؤلؤ مدينة الملك زُرارة بن نُعيم ، كانت إحدى مدن ذلك الزمان ، مدينة جميلة واسعة ، تشقها عدة أنهار صغيرة ؛ ولكنها دائمة المياه ، تحيط بها غابات عميقة وكبيرة ، تجد فيها السهل والجبل ، قصورها عامرة ، وأسواقها تستقبل القوافل من شتى المدن القريبة والبعيدة ، كان أهلها ينعمون بالسعادة والخير والحياة الناعمة ، وغاباتها مرتع للصيد والقنص ، فكانت الفرسان تسير إليها برفقة السادة والأعيان في رحلات الصيد الممتعة .

رغم هذا الهدوء والسعد كان سيد البلاد الملك زرارة في قلق وكرب وحالة انزعاج ، فقد كانت رؤية تنتاباه من حين لآخر ، رؤية سيطرت على دماغه وأفكاره مع قدمها ما زالت تزعجه وتؤرقه .. رؤيا بدأت عندما نكح السيدة عزوف بنت داود أحد سادة البلاد ، كانت تظهر له هذه الرؤية وتغيب حتى أصبحت حقيقة في كيانه وحياته ، وكلما يجري حديث عن زواج الأميرات بناته تسيطر على نفسه تلك الرؤية أو الحلم ؛ وبسبب هذه الرؤية يرفض زواج الأميرات حتى أن البنت الكبيرة وصل بها العمر الثالثة والعشرين والصغرى منهم ابنة خمسة عشر ربيعا .

كان يرى دابة غريبة لم يعرف لها اسما أو شبيها في دنياه ، كانت تكلمه هذه الدابة بقوة وغضب فتقول:" زرارة بن نعيم .. موتك على يد حفيدك" وتضغط الدابة بإحدى قوائمها على صدره بشدة يسمع لها طقطقة عظام صدره ، فيفيق صائحا ألما ورعبا .

لذلك كان الملك زرارة بسبب هذا المنام يرفض زواج بناته الأربعة ، وكان هذا يزعج ويؤلم الملكة عزوف أم البنات الأربع ، ويزعج الوزير الأكبر أوس ، وأعيان المدينة ؛ لأنه لم يحدث أن تأخر زواج فتاة في المدينة عن سن العشرين ، فما تكاد الصبية من بنات الأمراء والمدينة تبلغ السابعة عشرة حتى تجد لها زوجا من طبقتها الاجتماعية .. والكثير يتزوجن دون الخامسة عشرة ؛ فكيف ببنات سيد البلاد بنات الملك ؟!

للملك أربع بنات أمامة ابنة الثالثة والعشرين سنة ، وكل هذا السنين التي مضت عليها مذ

بلغت الحيض ووالدها يرفض زواجها خشية أن تلد الحفيد الذي يكون موته على يده ،ويحدث الشجار بينه وبين الملكة على ذلك ، فيرفع أصبعه في وجهها مهددا ويصرخ" الحلم يا عزوف" .

فترد بسخط ونكد : إن هذا وسواس شيطان .. ومن يعلم الغيب ؟وما ذنب البنات ؟ ومن منا يضمن حياته ؟!

والملك يصر على الرفض حتى أن الوزير الكبير أوس بين له شناعة هذا الحلم وقبحه ، وأنه أضغاث أحلام ؛ ولكن الكاهن الأكبر للمدينة يؤكد له أن هذه الرؤية حق ، وأنه معرض للخطر على يد حفيد من بناته ؛ بما أنه لم يوهب ذكرا واحدا يرثه ، ويرث الملك بعده .

وكلما يتجدد الحديث عن زواج الأميرات يتوهم الملك رؤيته للحلم ، فيذهب الملك مرعوبا قلقا إلى كاهنه غياث من جديد ويقول : يا غياث الملكة متنمرة تريد تزويج بناتها ، وغضبها شديد حتى بت أخشى على نفسي من غضبها وهجرها فراشي .. إنها على وشك التمرد على سلطتي ، تصيح : لقد تجاوزت البنات سن النكاح .. الحلم الحلم الحلم

قال الكاهن الأكبر بخبث : الملكة عدوة لك أيها الملك.. إنها تحب بناتها أكثر من حبها لك .. هكذا النساء يحببن فلذات الأكباد أكثر من الأزواج .. احذر مكر النساء وغدرهن .

ـ لقد مللت منها ، وصرت أخشاها على حياتي .. هل اطلقها ؟!

قال : لا داعي لذلك أيها الملك .. فأهلها سيغضبون ، وأخشى على حياتك منهم .. فالناس متعاطفون معها في قضية زواج البنات .. شقيقاتك معها غاضبات .. وأخوتك ناقمون .. وعلى رأس الناقمين الوزير .. وما أدراك ما الوزير ؟! فالأمير الشقيق غاضب مني ، وطلب مني أن أشجعك على تزويج بناتك .. وأفسر المنام بطريقة أخرى .. يريدون مني أيها الملك أن أساعد في قتلك يا مولاي

ـ أخي مرارة فعل ذلك !

قال ببغض بين : نعم ، يقول البنات كبرن.. وبنات الملك دون زواج إن هذا لعار وشنار ..

وحياة الملك لا خوف عليها .. على الأميرات أن تتزوج .. ولا يتركن لوسوسة شيطان ، وحكاية شيطان .. يقول: بأني شيطان . وأخذه البكاء ، وأخذ الملك بتهدئته وتهدئة روعه وتطييب خاطره ، ويقول : اهدأ أيها الصديق المخلص سأتكلم مع مرارة بن نعيم .. وسيأتيك معتذرا نادما على تهديدك ووصفك بشيطان .. أما من حل لزواج البنات ؟

ـ لم أفهم يا مولاي الملك !

ـ أقصد هل ممنوع تزويجهن جميعهن ؟

قال : الحلم لم يحدد واحدة منهن "موتك على يد حفيدك" أي حفيد أنت في خطر منه

قال : الوزير عنده حل يا غياث .

قال بسخط : الوزير لعين .. ما هو الحل الذي عنده؟

قال : أنا اخشى على حياتي منهم .. الوزير يقول : عندما تزوج البنات يحبس الأحفاد الذكور عن الأمهات .. هذا إذا لم يكنّ عقيمات .. هناك عشرات السنين حتى يكبر الأحفاد .

ـ في ذلك مخاطرة أيها الملك .. أنت أصررت على تفسير الرؤيا ، وقلت لك الأمر واضح ...إذا كبر حفيدك سيقتلك.

قال الملك بضيق وخوف : إنه حلم مزعج منذ تزوجت عزوفا ، وهو يطاردني هذا المنام يا غياث !

ـ الأمر جد خطير يا مولاي! لن تموت إلا على يد حفيدك .. لا تخشى من أحد .. موتك على يد حفيدك .. ما دمت بلا حفيد فأنت في أمان وسلام .. وستموت بأجلك بسلام .

قال : ما رأيك باقتراح أوس ؟

رد بامتعاض : هذا الوزير لا يريد لك الخير والسلام .. إنه يريد زواج ابنه من ابنتك تحدث معي في ذلك .

ـ متى أتاك ؟

ضحك سخرية وقال :كأنني أنا الذي أمنعك من تزويجهن .. المنام الذي يحول ويمنع

نكاحهن .. أنت الذي رأى الحلم .. قليل من الصبر والحيلة ينصرفون عن بناتك .. فبنات الأمراء كثيرات .

تنهد زرارة حزينا : كبرت سني يا غياث ! لا أولاد ذكور يرثونني .. ورجال البلاط يسخرون من حلمي ومنامي .. والبنات تكبر الأميرة أمامة أمست ابنة ثلاث وعشرين سنة ، وبانة عشرين .

ـ ولكن حياتك أهم من نكاحهن .

قال : قائد الحماية يخشى على حياتي بسبب ذلك .. يخشى من المؤامرات فللملكة غاضبة عليّ والوزير .. وتريد أن تتزوج ابنتها من ابن الوزير لؤي .

ـ أنا أيها الملك العظيم فعلت ما بوسعي ، وفسرت المنام .. وأدرك هذه الهمسات من ترددهم عليّ وإغرائي بالمال والجواري لأغير تفسيري ؛ لكنك صديقي منذ عهد والدك الملك نعيم ؛ فلا يمكن خيانتك والتواطؤ معهم.

ـ أنت موضع ثقة عندي ، وخصمك خصمي .. هل يقتلوني غدرا ؟!

قال : دع الخدم يأكلون من الطعام والشراب الذي يقدم لكم .. وانتظر بعض الوقت .. الشيطان عدو الإنسان .. وقابيل قتل هابيل .. وبغدرهم يغدرون بأنفسهم .

قال : ما الفائدة بعد الموت غدرا أيها الكاهن الكبير ؟!

ـ الله يحميك من الخونة .. وسأحرص على حياتك حرصي على حياتي فلديّ من السموم ما يقصف الأعمار .

الوزير أوس

لما جلس الملك على كرسي العرش في ديوان الحكم التفت للوزير أوس وحياه وقال : ماذا حدث لبني حنين ؟!

قال : يا مولاي ! لقد ذهبت بنفسي ، وقابلت سيد القوم ، وسيسلمون ابنهم للقاضي ، وبعد تحقيق العدالة سيدفعون الدية لأسرة الضحية .

قال الملك مبديا اهتمامه بأحوال الرعية ومعرفة مشاكل المدينة التي يحكمها : المهم أن المشاجرات والمعارك قد انتهت وتوقفت .

ـ على وشك الانتهاء أيها الملك .

قال : لم تنته بعد !

ـ على وشك ؛ لأنني هددت بتدخل الجيش الملكي إذا لم يلتزموا بالهدوء والسلام والبعد عن العنف .

ـ جيد أيها الوزير !

وبعد سكوت يسير قال الوزير : وماذا ستفعل بزواج ابنتكم يا مولاي الملك ؟ لقد علمنا أنك التقيت بغياث الكاهن خلوة .

قال بنبرة حادة بعض الشيء : تتجسسون عليّ !

ـ لا أحد يتجسس عليكم .. غياث هو أخبر أعوانه بزيارتكم الملكية لمعبده .. وأخبر أن المملكة في خطر من الوزير والملكة عزوف .

ـ هو أخبر بذلك!

قال الوزير بسخط : هذا كاهن ضال فاجر ! ويشكل خطرا على الملك والبلاد .

رد الملك معترضا : إنه كاهن البلاد والملك .. ولا يشكل خطرا على البلاد ولا العباد .

قال الوزير بحدة : منع تزويج الملك لبناته بذلك الزعم .. أليس في هذا خطر على الأمة ؟ فهو نذير حرب وشؤم .. فأنت تعلم من شأنه أكثر منا .. وهذا خطر حقيقي على سلطة الملك!

ـ هون عليك أيها الوزير ! إنك تكرهه أكثر من اللازم أكثر مما ينبغي أيها الوزير!

قال : لقد نصحت مولاي أمس وقبل أمس .. نحن نكبر في السن فلا تدع هذا الخوف يحرمهن من الزواج .

ـ إنه الكاهن أيها الوزير !

صاح الوزير :إنه حقير ! ولا يهمني غضبه وشخصه .. شخص يمنع سعادة بناتك فهو خبيث ولئيم !

ـ الزوجة فقط غير سعيدة أيها الوزير !

قال : موقفها منه إنه شيطان رجيم .. ولولا حمايتك له لنال عقابا صارما .. نحن نبغضه .. يحرم أم من الفرح ببناتها .. فهو سبب المشاجرات بينك وبين الملكة عزوف أم البنات .

ـ هن بناتي يا أوس!

ـ أعلم مولاي الملك! ولكنك ترفض زواجهنّ ، وتمنعهن من أهم وظيفة خلقن لها .. ومن أجلها وجدن .. الزواج والذرية .

قال : لكن حياتي في خطر من أرحامهن !

ـ هذا غيب .. والمنام أضغاث أحلام أيها الملك ! كلنا نحلم .. وهذا تأويل الكاهن اللعين وحده .. الفتاة أهم فرح لها الزواج والولادة .. فابنتك الكبرى كان أن تتزوج من سبع سنوات .. وكذلك أختها .. من سيرث العرش بعدكم ؟

قال متهكما : ابنك !

قال : ابني قد يتزوج إحداهن.. وابني لن يرث العرش .. نحن فينا الوزارة أب عن جد أيها الملك! ومنذ نشأت هذه المدينة والملك في أسرتك .. ولولا العهد القديم بيننا لنزعت الكرسي عنا .. ونحن سنحافظ على العهد .. ولن نكون ملوكا وإذا تزوج ابني أمامة فلا يخوله ذلك أن يجلس على العرش، ولا حتى الوزارة فهو من أوسط الأبناء .

قال الملك مظهرا كرهه للوزير : فعلا لولا العهد الدارج بين أسرتينا لخلعتك عن هذا الكرسي

ولا أريد أن يكون الخلع والشر على يديّ وعهدي .. أيها الوزير لقد عاشرت عشرات الجواري والإماء ولم تلد أي واحدة منهن .. ولو أنجبت واحدة منهن لطلقت قريبتك عزوف ولكن العلة مني كما يقول الحكيم بوسام .

ـ يا مولاي ! ليس وحده من قال ذلك ..كلهم أكد هذه الحقيقة .. وهذا قدر الله .

قال بضيق بين : وهل قدر الله أن أزوج بناتي ليلدن من يقتلني ؟!

ـ هذا غيب أيها الملك! وأنا اقترحت عليك أنّ من تلد ذكرا يحبس ، ويعيش حياة خاصة بعيدة عن الحكم والسلطان .. وفرعون مصر الذي نقرأ قصته سعى للنجاة من الغيب ففشل .. وعاش موسى النبي في قصره .. وعندما يشب حفيدك قد نكون من الأموات .

قال ساخرا : قد أعيش مائة سنة إذا لم يظهر هذا اللعين .

ـ زوجهنّ وانفيهن من البلاد .. الملوك والشعراء يسخرون منا ومنك يا مولاي! ومن هذه الأفكار .. الملك زرارة يحرم بناته من الزواج لمنام سخيف .. ويقولون ولماذا يقتل الحفيد جده الملك ؟! وجعل من نفسه أضحوكة لكاهن دجال مريض لولا حرمة الدم لأمرت بسفك دمه

هتف : أنا قلت لك إذا أوذي الرجل فأنت المسؤول عن موته ودمه عندك .

تبسم الوزير : وهل اقتله بعد كل هذه السنين أيها الملك! لو أردت قتله لفعلت ذلك قديما .

ـ كانت الفتيات صغيرات ، وكنت تأمل موته قبل بلوغهن هذه السن .

قال متحديا : الأميرة أمامة كبيرة .. ولها أكثر من سبع سنوات وهي أهل للزواج .. والخطاب يتقدمون إليها فيصدمون بمنامك الكريه ... إنك تظلمها وتحرمها من الأمومة والذرية بحكم منام .. وبحكم تفسير كاهن حاقد على الملكة وبناتها .. حب النفس جبلة في الناس .. وكاهن الملك يحتمي بك .. فاليوم بناتك الأربع في سن الزواج .. لا تخش على كاهنك اللعين مني وأنت حي .. والأمر يعظم عند إخوتك وأقاربك .. من من بناتنا بلغت العشرين ولم تتزوج لتكون أما ؟!

قال مغلولا : ألا تستطيع أيها الوزير الاختفاء من حياتي ؟!

ـ ليتني أستطيع ذلك ..فالوزارة لنا دونكم .

ـ لو خلعتك ماذا ستفعل ؟

قال : ستخلع نفسك .. ولن يقبل الناس غيرنا في الوزارة .

ـ كم أبغضك!!

تبسم الوزير فهذا معلوم لدى الجميع : هذا لا يهم .

ـ إذن لا تتدخل بيني وبين بناتي المظلومات .. فأنا ظالم في رأيك!

صرح الوزير بجرأة معهودة فيه : أيها الملك ! هناك همس .. وقد يتم عزلك عن الحكم إذا أصررت على رفض زواجهن .

قهقهة وقال بغيظ : من يهمس بذلك ؟ أنت وقومك

ـ لا ، أنا ارفض هذا المنطق لليوم .. أهلك يهمسون ذلك

ـ عمي الشيخ العفن لا يستطيع .. أنا إخوتي حذرتهم من التدخل بيني وبين بناتي

ـ أرجو أن يكون الجميع قد استوعبوا التحذير ، لأني أخشى الفساد في البلاد .

قال : المهم أن يبتعد ابنك عن ابنتي .

ـ فات الأوان أيها الملك !

ـ لم أفهم

ـ ستفهم قريبا

ـ ويحك إنك تدفعني للفتك بك .

قال : أعرف حقدك عليّ .. وأنت تعلم أن الغدر بي يعني نهاية حكمك .. فهذه قسمة قديمة بيننا .. وقد حاول أحد آبائك الخلاص من وزيره ـ أحد أجدادي ـ فخلع عن الملك .. وكاد الملك أن يحبس لولا تدخل العقلاء من قومنا ، ورمموا الأمر والجروح والكسور.

تنهد الملك حزنا وقال: نعم ، ما زلت أسمع بهذه القصة القديمة ، وأشك بصحتها .. أفكر بأن اجرب بك أيها الوزير .. وأنظر ماذا ستفعل بي ؟

ـ ما حل بجدك .. وستحبس في سجن أو قصر مغلق .

قال : إنك لا تحسب لي حسابا ..آه أنت عدو !

ـ أنا الوزير .. ونحن ندير البلاد والعباد ، ونحكم بالحب والعدالة والعمل الصالح والنظام .. والفارس حجر قائد حرسك لا تسمع لوساويسه ، ولن يؤازره أحد من عشيرتنا .. وإذا كرر أقواله بالتمرد سأضع حدا له.. وأعزله ..لا تظن أن عيون الوزير غافلة .

ـ لا أدري هل أنا الملك أم أنت؟!

تبسم الوزير العجوز : أنت الملك أيها الملك ! وأنا الوزير أوس بن عثمان سليل الأسياد من آل سلمان

قال ضجرا : ليتك تغرب من مجلسي .

ـ لست مشتاقا له .. ونحن ندير البلاد من الديوان الخاص بنا .



الملكة

دخل الملك جناح الملكة عزوف ، وحضرت الملكة لمجلسه وبين يديه ـ وكان غاضبا حانقا كما بدا لها ـ فقال : ألا تكفين ابن عمك وتحريضه عليّ ؟!

فقالت بتجاهل وعدم مبالاة مع غضب مكبوت : من ابن عمي ؟ فهم كثر .

صاح : ابن عمك الوزير اللعين!

ـ الوزير أوس ما الخطب ؟

ـ الخطب أنه ما زال طامعا في تزويج ابنه من ابنتي التي سيكون موتي على يد ابنها حفيدي .

صاحت وزعقت : هذا كلام فارغ أيها الملك ! فإنهنّ كلهنّ في سن الزواج .. وأنت تحرمهن من حقهن الطبيعي الذي خلقن له من أجل رؤية شيطانية فسرها شيطانك غياث .

ـ قلت لن تتزوج بناتي .

وقالت : ولماذا تزوجت أنت؟! وقد سمعتك تقول إن المنام جاءك قبل زواجنا .. فكان الأولى ألا تتزوج !

فقال بسخط : وهل يعيش الملك بدون امرأة ؟!

فقالت بتحد : يعيش .. الجواري يملئن القصر .

ـ تسعين للطلاق .

قالت باستهتار : ما أكثر ما تردد هذه الكلمة ! أنا لا أخشى الطلاق .. أنا لا أرضى أن تبقى بناتي بدون أزواج ، وبدون أبناء .

قال : أنت حمقاء مثل ابن عمك ! .. أفكر بخلعه عن الوزارة ، ونفيه إلى مدينة أخرى .

ضحكت للحظة وقالت : لو أنك تستطيع ذلك لفعلته دون إخباري.. ولفعلت ذلك من سنوات .. وأنت متأكد أن خلعه خلع لنفسك .

صرخ بجنون : لن يوجد حفيدي يا عزوف!

ـ والعرش.

قال : عندما أموت بهدوء وسلام يرثه من يشاء .

صاحت : يا رجل البلاد ! حفيدك غيب في علم الغيب ، قد لا يولد، قد لا يعيش .. وهل نعيش حتى يشتد عوده ؟ .. ولماذا يقتلك ؟! أنس هذا الحلم الشيطاني .. الكل من الأمراء والسادة منزعجون من ترك البنات بدون زواج .

ـ هن بناتي يا عزوف

ـ وبناتي كذلك .

قال بعد سكوت : أنا أفكر حقا بالقران .. وسأتزوج الأميرة غزنة

ـ علمت أن والدها اعتذر عن زواجها .

ـ اعتذر خشية إخوتك ، وابن عمك الوزير وطلاقك .

قالت : طلاقي لا يهمني.. الذي يهمني نكاح البنات .. من هذه الجلسة طلقني

ـ وأهلك !

ـ هذا شأن خاص بنا .. ألست الملك والسيد المطاع أيها الملك ؟!

قال : لست مطاعا .. الملك الحق اللعين أوس بن عثمان .. حتى الحرس يخشونه أكثر مني .

ـ أنت إذن لست ملكا !

قال متحسرا : نعم ، منذ مقتل القائد ضرار ذهب ملكي .

قالت : على ذكره هل علمتم قاتله ؟

ـ الوزير اللعين أخبر أن الرجل قتل غيلة وغدرا عند الغدير ، لقد نصحت له أن لا يذهب إلى ذاك المكان .. ولم يسمع لي .. لقد هاجمهم الفرسان ليلا ، وقتل مع رجاله وحرسه وخدمه إلا ذلك الغلام الذي تسلق شجرة عالية وغفلوا عنه .

ـ ماذا كان يعمل تلك الساعة من الليل ؟

قال : كان يقضي حاجته عند الجبل ، ولما رجع للمعسكر سمع الصراخ فصعد أعالي الشجرة ونجا .

ـ كتبت له الحياة ..والقائد الجديد!

ـ ولاؤه للوزير أكثر من ولائه للملك .

قالت : كلهم ولاؤهم لك حتى الوزير .. وأنت تعلم أنه حسن الخلق على سوء خلقك معه .

ـ أنا لا أطيقه .. متعجرف .. حذرته اليوم من الغدر بالكاهن غياث .. وإذا أصابه مكروه فهو المسؤول عن ذلك .

قالت : لو أراد الوزير الفتك بغياث اللعين لفعل ذلك من قبل أيها الملك!

تنهد ضيقا وقال : وأنا هذا الذي يحيرني ..فهو يحقد عليه بقوة ! وحقده واضح .. وما زال مبقيا على حياته ؛ ولكن غياثا يحس بالخطر المحدق به كما يقول لي أيها الملكة .

ثم سأل :كيف تعلق ابن الوزير بابنتنا أمامة ؟ ولو قبلت بزواجها فلن يكون ابن الوزير أحدهم .

همست : هو فارس شجاع ..والبنت تهواه وتعشقه .

صاح : إنه شاب سيّء وقح !

ـ رآها صدفة من سنوات ، ووقعت من نفسه ، وهي قبلت به .

ـ قلت لن يتزوجها وأنا حي .

صرخت محتدة : هذا ظلم .. ظلم أيها الملك! ومنامك فاسد.. أهذا حلم أيها الملك ؟ من أجل حلم تظلم بناتك ، وتحرمهن من الأمومة .. فالأمراء يرغبون بهن زوجات .. زوجهن واحبس ذريتهنّ حتى يدركك الموت فيخرجون للدنيا

ـ لا يقبل الآباء والأجداد ذلك الشرط .

ـ شرط عليهم .. كل بنات المدينة تتزوج إلا هن محرومات مما فطرن عليه .

قال : إذا تزوجت إحداهن سأضطر لطلاقك .

ـ قلت لك ألف مرة طلقني قبل زواجهن .. المهم أن تزوجهن الأكفاء ، ويصبحن زوجات وأمهات مثل بنات المدينة .

ـ لن أقبل أي شفاعة لتعودي ملكة وزوجة .

قالت : سأعتكف في قصر والدي .

قال : لم أعد أراه في الديوان .

ـ مريض جدا .

ـ لم أخبر بذلك .

ـ بل أخبرت ؛ ولكنك تجاهلت الحديث عنه ..وقد بلغ من الكبر عتيا

غير الاستفهام وقال : شقيقك عادل هل من أخبار عنه ؟

ـ منذ اختفى لم نسمع عنه شيئا ؛ ربما غرق في البحر

قال : أين جثته ؟

ـ وهل كل من يغرق تظهر جثته ؟ وجدوا سفينته على الشاطئ محطمة

ـ والبحارة .

ـ اختفوا معه .. فالراجح أنه ميت .

ـ ولكنكم لم تعلنوا موته ، وتقسموا ميراثه .

ـ لم نتحقق من موته ..يخشى أبي فعل ذلك قبل التحقق من هلاكه .



لؤي ابن ا لوزير

دخل الأمير لؤي على مجلس والده الوزير ، وأعلن عن طلب خلوة ، فأخلى الجالسون الحجرة

وقال الوزير منزعجا : ويحك ما الأمر لتطلب إخلاء الحجرة ؟!

قال الشاب : هنا خطب خطير يا مولاي !

كان الوزير يحدق فيه : خطب ! تكلم إنني مصغ إليك .

قال : الملك يرفض زواجي كما تعلم من ابنته أمامة .. وقالت لي الأميرة قبل مجيء إلى هنا أن الملك يسعى لتزويجها من أمير غريب أمير من غير مدينتنا نكاية بنا .. وأقسم ألا يزوجها لي أو لأحد من بلادنا .

سكت الأمير ، ولزم الوزير الصمت لدقائق، ثم قال بهمس: الأميرة قالت ذلك .. إنه مصر على رفض الزواج .. فلن يأتي الأمير من مدينة أخرى .. كيف لو يعلم بزواجها خفية ؟ وإنكما زوجان .

تنهد بعمق وحزن : هذه الداهية ..والأميرة حامل يا مولاي!

دهش الوزير وقال : أوه حامل !!

ـ أليست أنثى كسائر النساء ؟

قال مؤنبا : تعجلتم بالحمل !

ـ قدر الله ذلك يا مولاي ! رغم استخدامها تلك العشبة التي أوصيت بها فالأمر خطير ومزعج .

ـ نعم ، نعم ؛ ولكن لا تيأس ..كل قضية ولها ألف حل .. الملكة تعرف بهذه الأخبار الطيبة .

قال : نعم ، تقول الأميرة إنها على علم بحملها ، وبسعي الملك لجلب زوج لها من غير بلادنا ، وهي تراعي الأميرة وإبعادها عن لقاء الملك ومجلسه خشية فضح أمرها وسر زواجنا الخفي .

صمت الوزير لدقائق ثم قال : سنعيق هذا الزواج إذا جد ذلك ، ولن يحصل بالتأكيد .. فهي زوجك.. وسنترك الملك يدبر هذا الزواج الغريب، وينشغل بهذه القضية ..وقد تأخذ وقتا

طويلا حتى تتم إن صدق .. ثم نعيق الأمر حتى تلد الأميرة خفية عنه وعن عيونه .. فعلينا بالهدوء ولزوم الصمت والسكون حتى تضع حملها .. وسنبدأ حيلة ومخرجا .. وقد يكون هذا منه خدعة ؛ لنكف عن اللح عليه بتزويج البنات البائسات من حلمه .

قال : هذا هو الحل يا مولاي الوزير!

تريث الوزير قبل الرد ثم قال : نعم ، فليبحث عن الزوج الغريب .. وبعد الولادة يخلق الله ما يشاء أيها الأمير .. نحن أخوال الأميرات ، وعدم زواجهن عار علينا كالملك تماما.. فعلينا أن نكون معهن ، وندبر زواجهن رغم أنف الملك .. هذا أول ملك يحرم بناته من الزواج بحلم ومنام شيطان.. شجع الأميرة على الصمت ، وإخفاء الأمر وعند اقتراب الوضع فسأقوم بأبعادها إلى قصر صحراوي .. وستكون أمك والداية هناك .. سهل الله أمرنا .. وسيأتي يوم ويشهر هذا النكاح على العامة والأمة .. تعلم أن الملكة استغاثت بي بعد يأسها من زوجها بتزويج بناتها الكبريات .. وما كان إلا أن ألبي الاستغاثة يا لؤي .. وأنا أعلم هواك للأميرة ، وهواها بك.. واعلم عناد الملك وصعوبة تغيير رأيه ، وقد عشعش في رأسه موته على يد حفيده " موتك حفيدك " والكاهن اللعين سيطر على عقله وقلبه .. وقد حذرني من إيذاء غياث أو قتله .

قال : لقد راودتني نفسي مرات بسفك دمه والقضاء عليه .. وأن أغمد خنجرا في صدره .. لقد استغل الحلم أسوأ استغلال للسيطرة على الملك ، وملأ قلبه رعبا كما تقول أمامة من زواجهن ..إنه يتكلم عنه بخوف ورعب .

قال الوزير ببغض للكهنة : هؤلاء الكهنة والمنجمون يستغلون العقول والقلوب الضعيفة ، وقلوب الأسياد للسيطرة عليهم .. كان والده مثله يرتعب منهم ، ومن تكهناتهم ، لا يعمل عملا إلا بموافقتهم .. وقد حاولت ثنيه عن التعلق بهؤلاء الكهنة ولم أفلح .. فقد ترسخ في عقولهم صدق تكهنهن وخاصة هذا المنام الشيطاني.. لم يهتم برأيي ؛ بل سفهه ..وقلت تظل

بناتك عوانس ومحرومات من الذرية من أجل هكذا حلم حلم تافه .. فيقول ألم ير ملك مصر البقرات السمان والعجاف ، فكان القحط ؟.. هكذا يقول له غياث اللعين إنه خبيث ماكر !

ـ إذن علينا لزوم الصمت يا مولاي ! إزاء ما يحدث في ديوان مولانا الملك .

ـ من يقوم بالمراسلة بين الملك والأمير الغريب ؟

قال :لا ندري الملك صرح للملكة ، ونقلته لإمامة ومن أمامة لي .

ـ تغريب النكاح ..إذا كان جادا سيجد ، ولن يكون الأمر سهلا .. فهم يعرفون قلة تزويج بناتنا الأميرات من أمراء خارج بلادنا .. نادر أن يحصل ذلك.. ويحصل لأسباب حربية ؛ ولكنه يحصل أحيانا كتبادل بيننا لتقوية أواصر علاقتنا مع الملوك الآخرين .. وهذا لا يتم إلا بإعلامي وإعلام القاضي الكبير والسادة الأقارب من الدرجة الأولى .. علينا بالصبر لنرى تحقق ذلك .. وحين تلد الأميرة سنجد حلا لزواجكم الخفي .

ـ عليّ نقل ذلك للأميرة ؛ لتطمئن الملكة الأم .. سأبعث إليها الجارية محظية برسالة شفوية

ـ أما زالت البريد بينكم ؟

قال لؤي : إنها ذكية !

ـ ولكنها جارية

قال : ربنا الستير يا مولاي الوزير !



الحمل الخفي

قبل الفجر بوقت يسير انطلق الأمير لؤي إلى قصر الأميرات ، ومن مدخل خفي مشى نحو إسطبل الخيل ، والتقى بالأميرة أمامة زوجته ، وبعد عناق وإظهار مشاعر الحب والغرام ، قال لها بعد ذلك رأي الوزير بقضية الخطيب الغريب ، وإن عليها عدم الجزع والخوف ، والاستمرار في إخفاء الحمل والزواج ، وقال لها لن تكون هناك فضيحة ، ونحن تزوجنا سرا عن الناس والملك ؛ لأن والدك يمنعكن من النكاح بذلك المنام الشيطاني ، واستطاع تهدئة قلقها وخوفها وأن والده سيتحين الفرصة المناسبة لإشهار نكاحهما .

فلما اطمأنت روحها قالت : أمي تتحدث عن طلاقها .

قال مشجعا : هو يتحدث عن ذلك من عهد بعيد .. وأمك حسب علمي غير مبالية ، ولا يهمها طلاقها ، المهم سعادتكن.. ولم تعد تخشى مولانا الملك!

قالت بحب : كم أحس بالأمان وأنا بين يديك !

ـ سنحميك يا أمامة فأنت قرة العين .. ولن أتخلى عنك أبدا ـ إن شاء الله ـ وسيظهر زواجنا للعلن .. ونعيش كباقي الخلق .. ويبارك لنا الجميع بهذا الزواج .. ويقبل الوالد بهذا الزواج ، ويتخلى عن ذلك الحلم .

قالت وهي ترتعش : أيقبل أبي بعد كل هذه السنين التخلي عن حلمه ؟!

- أليس هو الذي بدأ يتحدث عن زواجك من أمير غريب ؟

ـ أنا عجبت من ذلك الكلام !.. ولزمت الصمت .. لا يمكن أن تتزوجي من ابن ذلك الرجل .. فكم يتحدث عن كرهه لكم ! وتمنيه اختفاء الوزير من الدنيا .

تبسم لها : سنختفي كلنا يا أمامة من فوق الأرض .. وما دام الكره والبغض في القلب فلا خوف منه .. أما إذا خرج لليد والجوارح فهنا مكمن الخطر والضياع .. وعسى أن يفيق الوالد من منام الشيطان ، وتتزوج باقي البنات في أمان وسلام .

ـ ليتني أعيش بسكون وهدوء كسائر الخلق وبنات المدينة !

عاد لزرع الأمل : سيتحقق ذلك قريبا .. ثقي بي .. سنعيش هذه الحياة الهادئة والطيبة .. قد نعيش هذه الحياة عند ولادة ابننا أو ابنتنا يا أمامة .

ـ إني مرعوبة يا سيدي من افتضاح أمر الحبل .. وهل سيخفى على عيون أبي ؟

ـ حتى ولو علموا يا أميرتي لا يجرؤون على نقل ذلك .. فسيغضب الملك ، ويغضب الوزير .

ـ كم أنت رائع وأنت تبث الطمأنينة في نفسي ! رائع بهذا التشجيع ! أنا بحاجة أن أسمعك كل ليلة .

قال بثقة : سيحدث هذا أيتها الأميرة الغالية ! هي أحوال صعبة ..سنعيش تحت سقف واحد وستلدين غيره .. لولا حبي الصادق لما غامرت هذه المغامرة .. الحب الطاهر جمع بيننا .

قالت :أتمنى أن لا تكون غلطة الدهر .

ـ أنت مرعوبة جدا يا أمامة حسبتك شجاعة قبل هذا اللقاء!

قالت : الحمل مخيف أيها الشجاع ! حتى أمي بدأت أمس ؛كأنها نادمة على زواجنا

ـ نادمة ! أعتقد أنها قلقة فحسب .. أليست هي التي شجعتنا على الزواج ؟ واستغاثت بأبي وتزوجنا دون علم الملك .. لا تقلقي يا حبيبتي .. واعلمي أن

السيد الوالد لن يتخلى عنا ..وقد شجعنا على الزواج لما رأى أن الكلام مع الملك بغير فائدة .. وكلام الملك عن زواجكم سيغير من عقدة الملك إذا سعى للبحث عن أمراء من خارج المدينة ويقرب فكرة زواج الأميرات .

ـ أخشى أن يكون ذلك حيلة حتى تسكت أمي عن اللح عليه بزواجنا ..وأن يصر على عناده وخوفه من الغيب .

قال : يا حبيبتي توكلي على رب البرية سيغضب سيغضب ، ثم يضعف ويرضى بزواجنا ، ويبارك لنا .. المهم أن لا يعلم بوجود الحفيد رغم أنفه كما يقال .. هذا غياث شيطان مريد كان يستطيع أن يغير فهم الملك في تفسير المنام ؛ ولكنه وجدها فرصة لتعزيز موقعه عند الملك لغاية في نفسه ، وجعل الملك ألعوبة بين يديه .. إنما هؤلاء الكهنة كان يستفيد منهم أجدادك

عند الحروب عند زواجهم زواج بناتهم .. هل يخوضون الحرب أم يؤخرون المعركة لوقت وزمن آخر ؟ حسب شعوذة الكهنة .. تقديم الزواج لفصل كذا .. شهر كذا .. هذا الزوج مناسب غير مناسب .. وكثير من الأمور كما يحدث أبي دخلوا فيها ، وخاب رملهم وخطهم أميرات تزوجن بمشورتهم ، ثم طلقن ، لم يلدن ..وأصبح هذا تقليدا متبعا في أسرة الملك والدك وأجداده .

ـ إنكم لا ترهبون هؤلاء الكهنة .

ـ نحن لا نهتم بهم ، ولا نعتمد عليهم في حياتنا ومغامراتنا .. فهم عدو لنا أيتها الحبيبة ! ولولا تعلق أسرتك بهم لطردهم أبي من البلاد .. إنهم دجاجلة يعتمدون
على التخريف والحدس .. وكثيرا ما يخيب حدسهم .

الحبس

استطاعت الملكة عزوف وابنتها إخفاء الحمل حتى ولدت الأميرة مولودها في مكان سري بمساعدة الأمير ، لؤي الذي لما تسلم المولود دفعه لخادم أمين معد لهذا اليوم ، وغادر المدينة قبل انبلاج الفجر بحماية الأمير ، وخرج به من مخرج غير مطروق ، ولما عاد الأمير طمأن الملكة والأميرة على إخفاء الطفل .

وكان الملك خلال هذه الفترة يزعم أنه يراسل الأمراء والملوك لتزويج بناته ، وأنه أرسل بعض خدمه واتباعه لهذه المهمة الحساسة ؛ ولكن لم يصدقه أحد من الأمراء ، ولم يأخذوا كلامه على محمل الجد .

وذات ليلة بعد أقل من شهر على الولادة الخفية دخل الملك جناح النساء غاضبا ساخطا هائجا ولما مثلت الملكة بين يديه صاح فيها : لم أكن أعلم أنك خائنة وحقيرة لهذه الدرجة !

فصاحت دون تردد : احترم نفسك أيها الملك ! أأنا خائنة ؟! ما هي الخيانة التي تتحدث عنها ؟!

لطمها غضبا وسخطا وصاح : أتلد ابنتك الفاجرة من ابن الوزير اللعين دون علمي ؟!

ـ ومن أخبرك بهذا ؟!

صرخ غضبا : ليس المهم من أخبرني ؟ المهم أنك خائنة مجرمة متآمرة .

قالت بهدوء : لست خائنة ، ولا مجرمة ، أنا تهمني مصلحة ابنتي .. لقد هرمت ، ولم تتزوج .. هي تزوجت ؛ لأنها كبرت وشاخت من وراء حلمك ومشعوذك غياث ؛ ولأنك كنت مصر على الظلم والعدوان .

ـ يا لك من حقيرة ! تزوجينها دون علمي أنا.. سأقتل هذا اللؤي اللعين .. يخون مولاه الملك

ـ أنت تسعى للفتنة .

قال : أنتم الفتنة ! سأقتله .. اعلمي أن ابنتك في الحبس حتى تموت ، لن تخرج إلا للقبر ، ولسوف أعرف مكانه .. أين أخفيتم الوليد ؟

ـ تحدث مع أوس .

ـ سآمر بحبسه ، وإذا لم يخبر بمكانه سآمر بقتله .

قالت : تسعى إلى حتفك ؛ كأنك نسيت حجمك ، ونسيت من هم قومه ! وإذا قتلت الوزير فسيقتلك حفيدك ،وتتحقق نبوءتك إذا لم يثأر قومه منك .

فكر الملك وقال : ويلك ! من يجرؤ على قتل الملك ؟!

ـ ومن يجرؤ على قتل الوزير ؟!

قال : عليّ بتطليقك الآن .

ـ الصفعة لن أنساها لك .

فلطمها ثانية وصاح : ولا تنسي هذه أيضا .

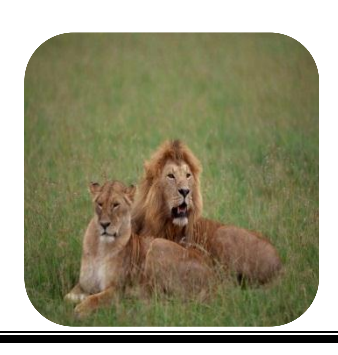
فصرخت وقالت : سوف ترى ماذا تفعل عزوف ؟ سيكون موتك على يدي

ـ ويلك يا امرأة ! ويا لك من وقحة ! تخون زوجها ، وتزوج ابنته بدون موافقته من ذاك الجبان غادر الأمير المدينة سيعود ويا ويله !.. واحذروا غضبي ونقمتي .. سوف ترون عقابي أيها الجبناء الخونة .. وابنتك لن تخرج من الحبس حتى تموت

تركته ولبست ثيابها وفارقت القصر حيث والديها ، وانتشر خبر طلاقها في المدينة ، وخبر زواج ابنة الملك خفية من ابن الوزير لؤي .. وشاع الخوف والترقب بين أهل المدينة لهذه الأخبار ، وانتشرت الإشاعات والأقاويل والعواقب المرتقبة ، وشاع أن الملك يخطط لاغتيال الوزير أوس والانتقام منه ، وأن قبيلة الملك غاضبة على الوزير وقبيلته ، وأن البلاد على وشك الصراع والقتال ، وأنصار كل طرف يهددون ويتوعدون .. وهناك خشية من نقض العهد بين العشريتين الكبيرتين بسبب هذه القصة .. الكل يعلم أن القوة الحقيقية في المدينة بيد الوزير أوس وقبيلته ، ولولا العهد بينهم وبين سائر قبائل البلاد لاعتلت قبيلة الوزير الملك منذ عهد بعيد .. وبعد حين يسير عادت الأمور للهدوء ، ولم تمس من الوزير شعرة ولا من ابنه لؤي ، وعلم أن أخوة الملك وأقرباءه حذروه من التمادي في عداوته للوزير وغضبه ، وأنه هو سبب

هذه المشاكل بعدم تزويجه البنات المستحقات للزواج من الأمراء والسادة ؛ بل تعرض الكاهن للضرب من مجموعة من رجال قبيلة الملك ، وطلبوا من الملك نفيه من البلد ، وتعيين كاهن جديد للمدينة قبل أن يقضوا عليه .

وعاد الملك للسكون والصمت والاعتذار لسادة قبيلته ، وأدرك الملك من جديد ضعفه ، وأن الملك الحقيق للبلاد الوزير أوس ، ولم يعد الوزير يجلس في ديوان الحكم الخاص بالملك ولو ساعة من نهار ، رغم الشفاعات أصر الوزير على رفضه والعناد .. وخشي العقلاء من السادة من الحرب الداخلية .. وأمام إصرارهم وافق الوزير على الصلح التام بإخراج أمامة من الحبس وإعلان الزواج في البلاد ؛ ولكن الملك رفض بقوة العفو عن ابنته الخائنة ، وستبقى في الحبس حتى تهلك وتموت .. وكل ظل على موقفه المتشدد .. وانتقل الكاهن بعد البهدلة التي تعرض لها من أقارب الملك للحياة في جناح خاص في نفس قصر الملك .. وهو حانق على ضعف الملك، وعدم قدرته على عقاب أقاربه الذين آذوه .



بانة

لم يستطع عقلاء المدينة إصلاح ذات البين بين الملك ووزيره ، وكل واحد منهما متمسك بمطالبه وشروطه .. الوزير يصر على إخراج أمامة من السجن ، وإعلان زواجها من ابنه لؤي والملك مصر على حبسها ،وعودة حفيده من مخبئه.

وبينما الناس والسادة مشغولون بعداوة الملك ووزيره أخبر الملك بهرب ابنته بانة مع الأمير كساب ؛ وكاد يسقط عن كرسي العرش عند سماعه الخبر ، وكان أحد القادة قد وضع هذا الخبر في قلبه .. فأمر الملك بمحاصرة قصر والد الملكة عزوف لتفتيش القصر ، ولكن القائد الناقل للخبر أخبره أنهما خرجا من المدينة ليلا ، وعلموا بذلك صباحا عندما لم تحضر الأميرة لطعام الإفطار .

فصاح وهو يحاول الاتزان : هذا مكر من أمها مع الوزير ! حاصروا القصر سأذهب للقاء بها الأمير كساب بن صلاح هو أحد أبناء الفرسان الكبار في المدينة ، ووالده خطب ابنة الملك لابنه كساب ، فرفض الملك متحججا بالحلم والمنام ، فعاد الرجل لقصره ، وطلب من ابنه صرف النظر عن ابنة الملك ، وتظاهر الشاب بقبول ذلك ، وظل على علاقة خفية مع الأميرة ذات العشرين سنة ، ولما رأى ما يجري في البلاد رتب مع الأميرة حيلة للهرب من المدينة والحياة كسائر الناس ، فوافقت الأميرة على الهرب معه وعلى ترتيبه ، ولما سنحت الفرصة وانشغال المدينة بالصراع بين الملك ووزيره غادرت القصر بعد نصف الليل زاعمة للحرس أنها ستزور قصر أمها فرافقها الحارس حتى بوابة القصر ورجع ؛ ولكنها لم تدخل القصر ، ولم تقرع قصر الأم والجد ، فبعد قفول الحارس اتجهت إلى أحد أطراف المدينة ، والتقت بالأمير كساب وتابعا سيرهما على جوادين ـ كان قد جهازهما لهذه المغامرة ـ وكانا يسابقان الريح للابتعاد عن المدينة .. ولما بزغت الشمس تخليا عن الجوادين ، وخلعت ملابس الأمراء ، وتابعا المسير سيرًا على الأقدام إلى إحدى المدن الكبيرة .

واجه الملك مطلقته واتهمها بالتآمر عليه ، وأقسمت له بعدم علمها بغاية ابنتها وبهذه المصيبة

الكبرى ، واتهمته بأنه السبب لفعلها ذلك لمنعهن من النكاح .. وكذلك أقسم والدها داود بأن ابنته لم تدخل القصر الليلة الماضية .. وأنها خدعت الحارس .. وأن ابنته لا دخل لها في اختفاء الأميرة .. غادر القصر حانقا ناقما حائرا .. وأمر بتشديد الحراسة على ابنتيه الباقيتين .. واجتمع بالكاهن غياث ، وأطلعه على هرب ابنته .. فاغتم غياث أو تظاهر بذلك .. واتهم الوزير بتدبير الأمر ومكيدة الهرب .. فأكد له الملك جهل الملكة باختفاء الأميرة وأن الهرب يسيء لها قبل أن يسيء له .. فطلب الكاهن المهلة للتفكير في الأمر والخطب .

أصابت الملك الحيرة بتطاول أعيان البلدة عليه ، وقال لغياث : ألهذه الدرجة يا غياث ضعفت ؟! وإن القوة بيد الوزير اللعين .. ابنتي الكبرى تتزوج دون علمي .. ولولا ذلك الخادم الناقم من صاحبته ما علمت بولادتها .. واليوم ابنتي الأخرى تهرب مع صعلوك .. تهرب لتتزوج دون رضاي .. إنني أكاد أجن أين فرساني ؟ أين أهلي ؟

قال غياث متملقا : أنت طيب أيها الملك ! لا تستخدم القوة مع الخصوم .. ركنت للسلام والهدوء .. لو أنت أدبت الوزير قديما لما تجرأ عليك اليوم .. الكل

يهابونه ويخشون غضبه .. أنت لا تحكم بقوة حتى امرأتك لا تكترث لك .. معذرة أيها الملك أنا أقول الحقيقة .. الملكة جعلتك أضحوكة عندما زوجت ابنتك دون علمك ، وولدت ابنتك دون علمك ، وأخشى الحفيد الذي سيكون موتك علي يديه .

ـ هلاكي !

ـ نعم ، وإلا لماذا أخفوه ؟!

تفكر قليلا وسأل : وهل سأعيش حتى يكبر حفيدي ؟ أتراه كيف سينال مني ؟! ألست أنا سبب إخفائها الزواج ؟ وهرب الأخرى يا غياث ؟

قال الكاهن محذرا ومخوفا : هذه هي الرؤية .. حفيدك حفيدك .. رغم حرصنا أيها الملك ولد لحفيد واختفى ! عليك أيها الملك أن تبحث عن الحاقدين والناقمين عن الوزير وقبيلته ، وتحرضهم ، وتزيد النار في قلوبهم على الوزير وحاشيته .. ذاك الرجل المسمى شهابا ألم يحقد

على الوزير عندما عاقبه وجلده في الساحة ؟ .. اتصل به بوسيلة ما وأثره على الوزير .. وتلك المرأة التي شكت قبل سنوات من الوزير ، وأنه استولى على بيتها بعد وفاة زوجها .. وأنا سأبحث عن كل من ظلمهم الوزير وأعوانه واحرضهم على الانتقام منه ومن أعوانه .. والمال أشتر به ذمم الفرسان .

ـ وإذا علم الوزير بذلك !

ـ ماذا سيفعل هذا الوزير سوى التهديد والتحذير ؟

قال متمنيا : متى سيهلك هذا العجوز يا غياث ؟

ـ سيهلك .

تلاقت العيون :أتستطيع تدبير مكر فيه ؟

ـ أنا !

قال : أنت ..ألست تصنع الأدوية السحرية ؟

ـ أنت تحكم عليّ بالموت .. أعوان الوزير يرقبون أمري .

قال : أحد أعوانك.. أريد أن يموت هذا الوزير .

ـ سوف أفكر بالأمر مليا .



هدر الدم

ظهر ضعف الملك على مدينة اللؤلؤ عيانا ، فطفق يفكر بقتل الوزير الشيخ زاعما أنه وراء زواج ابنته الكبرى خفية ، وهرب بانة مع الأمير كساب ابن أحد كبار القادة .. واتفق على ذلك مع كبير الكهنة غياث ، وسيكون القتل بالسم .

وأصدر الملك إعلانا يهدر فيه دم الأمير كساب ، ودم ابنته الهاربة ، وأعلن عن جائزة لمن يحقق ذلك المطلب .

وعجب الناس من هذا الإعلان ، وكانوا يتوقعون أن يصدر الملك عفوا عنهم ؛ ليعودوا للبلاد ، وتهدأ النفوس ، وتصفو القلوب .. لكن الملك أخذ الخطوة الخطرة وهي الدم والانتقام .

وربما لو عرف الناس أن سبب رفض الملك زواج بناته منام رآه الملك ، وهو سبب هذه الأمور الخطرة .. فسيسخرون من الملك وحلمه ؛ و ينسبونه للحمق والجهل

وكان الوزير أوس منذ اكتشاف أمر زواج ابنه مقاطعا لمجلس الملك ، ولا يزور الديوان مقر حكم الملك.. وهو مصر على العفو عن الأميرة وإطلاق سراحها ، وإعلان الزواج من ولده .

وكلما مضى يوم دون خبر عن حفيده ، وعن ابن الوزير يزداد حنقا وغيظا وغضبا ، وأخذ يبحث عن أعداء الوزير والأشخاص الناقمين عليه ليقربهم ويستفيد من حقدهم وعدوانهم له .

كان قائد الجيش من أقارب الوزير وقبيلته القوية ، كان قد تعامل مع قائد الحرس الملكي بقسوة الذي حاول السعي والشفاعة بين الملك والوزير ، فأسقطه من ديوان الجند والجيش .. وحاول الملك بواسطة اتباعه استمالته لصفه بالوعود البراقة والأحلام الوردية ؛ لكن القائد اعتذر بقوة الوزير وسطوة قائد الجيش .. وكذلك رفض القائد الجديد للحرس الملكي التمرد على قائد الجيش والوزير .. فأدرك الملك مرة أخرى ضعفه أمام قوة الوزير ، وضعف آبائه وأجداده .. وأنهم مجرد ملوك لا حول لهم ولا قوة .

وخلال هذه الفترة من التوتر وجُد من الناس والأفراد من يتعاطفون معه ، ويريدون التعاون معه على أمل التغيير في نظام الحكم في البلاد ، وإضعاف سيطرة الوزير على مقدرات البلاد والعباد .

اتخذ الملك قرارا خطيرا آخر ، وهو الأمر بنفي زوجته المطلقة ووالدها من المدينة .. وحصلت ضجة في البلد لهذا القرار .. وأمام إصرار الملك غادرت الأميرة وحدها البلاد إلى مدينة مجاورة ورافقها أحد إخوتها ، وبعض جواريها وخدمها ، ولم يحاول الوزير التدخل في هذه القضية ذلك الوقت ومنع النفي .

جاءت رسالة سرية من أحد الملوك للملك يُبدي استعداده لغزو بلاده ، وقتل الوزير أوس ، وكان غياث أرسل له أحد أعوانه خفية ويطلب منه هذا الأمر .

استحسن الملك زرارة الفكرة ؛ ولكنه خشي من استيلاء الملك الغازي على البلاد ، وأن يخسر هو الآخر ملكه ؛ لأنه لا يقاتل أحد بدون ثمن وجائزة ، وأنه بغير وريث ذكر ..وتشاور مع الكاهن بأمر هذه الرسالة الذي تظاهر بأنه يجهلها وتخابث الكاهن وشجعه على التحالف مع الملك نواس ، والانتقام من الوزير وحاشيته واتباعه لرد الكرامة والهيبة لعرش الملك .

فقال الملك : أخشى زوال ملكنا يا غياث إذا انتصر نواس ..فهو سيطمع بحكمنا ، ثم يرثني حيث لا ذكور لي .. وإذا انتصر الوزير سأوصم بالخيانة وأعزل إن لم اقتل .. هذه مغامرة خطرة !

ـ سيعيد لك الكرامة المهدورة أيها الملك .. وتعود لك القوة والمجد .. إنه ببعض المال يغزو البلاد ، ويقتل الوزير ، وتصبح أنت السيد المطاع .

قال مشككا : ومن يضمن نجاحه وانتصاره؟! أنا أسمع أنه مغامر .. ليست جيوشه بالقوية .. وسمعت أن ابنه غزا بلدة وعاد خائبا .

ـ تلك مدينة قوية ، وغير منقسمة بين ملك ووزير كحالنا .. واعلم أن جيشها أقوى من جيشنا .. ولن تكون حربا طويلة إنها بعض المعارك ولسوف يستسلم جيش الوزير .. فلنا

أكثر من عشرين لم نخضع حربا .

ـ أحتاج لمزيد من الوقت لارتكاب هذه المغامرة .. أنا يهمني الآن جلب كساب والأميرة الهاربة ، وجعلهما عبرة لمن اعتبر من أهل المدينة.. لقد أهدرت دمهما .



البحث

لم يتشجع الملك لتدخل الملك الغازي نواس لغزو مدينته لإذلال الوزير واتباعه ، وخشي من فوزه ، وخشي من خسارته ، فهو الخاسر من كل الجهات ، فسيضعف الملك الغازي من سلطته الضعيفة أصلا ؛ وربما يرثه بحجة الدفاع عنه ، وإذا انتصر الوزير وجيشه قد يتعرض للقتل باسم الخيانة أو الخلع .. وكان يمني النفس بقتل الوزير بأقل الخسائر ، ودون أن يتهم بقتله غيلة وخفية ، ووكل الكاهن غياث بتدبير ذلك بصنع ترياق سام .. وذاك الكاهن يخشى على نفسه من الفشل ، ومرعوبا من افتضاح أمره قبل القتل وبعده .. ولن يرحمه أبناء وأعوان الوزير ، ولن يحميه أعوان الملك ، وهو خير من يعرف ضعفهم وخوفهم من سطوة أوس .. فأخذ يفكر بحيلة يقتل فيها الوزير يصعب معرفة فاعلها .. فغادر البلاد بحثا عن سم لا يعرف ، ولا يعرفه أطباء وحكماء المدينة .

واجتمع الملك بعدد من الفرسان خرجوا يبحثون عن كساب وابنته ، وكلهم رجع خائبا سواء بمعرفة مكان اختفائهم أو قتلهم .. وكان يفعلون ذلك خفية عن أعوان الوزير وعيونه .. وسيادة الوزير لم يكن مهتما بهذه القضية كان همه أن يفرج الملك عن ابنته أمامة وإشهار زواجها من ابنه لؤي ، وعودة الطفل إلى المدينة ؛ ليعيش كسائر الأمراء والسادة .

كلّف الملك ثلاثة فرسان من مواليه وأتباعه بالذهاب لمدينة "ديك الصباح" حيث نفيت مطلقته للعيش والحياة فيها .. وكان قد وافق ملك تلك المدينة على حياتها في بلده ، وتحت رعايته كأحد الرعية دون حراسة وحماية خاصة .. وكلفهم زرارة بمراقبة بيتها طمعا بمجيء بنتها وكساب إليها عندما يعلمان بنفيها .

وبعد مضي أكثر من أسبوع من المراقبة رأوا ابن الوزير لؤيا يزورها ، ويقضي ليلة في بيتها ، فعاد أحدهم للمدينة مخبرا الملك بهذه الزبارة ، وأنهم لم يرصدوا الأمير كسابا ، ولا ابنته بانة .. فحثهم على الصبر والحذر ، وأنهم لابد لهم من زيارتها في يوم ما.. وفكر بدّس جارية عليها أو خادم ليعمل في قصرها ؛ ولكنه عجز عن وجود حيلة للوصول لبيتها دون أن تدرك أنه

دسيسة منه .. فعزوف ذكية وشجاعة .. فلو أرسلها كهدية ستعرف .. فلابد من إرسالها عن طريق شخص تثق به .. وهو لا يهمه شخصها وحياتها الذي يهمه القبض على ابنته وزوجها كساب .. ففكر أن يرسلها كهدية من الوزير ، وفكر بتزوير رسالة على لسانه ويبعث معه الجارية وبعض المال .. ولما ارتاح لهذه الفكرة أخذ يفكر بالجارية القادرة على تنفيذ مخططه .. وأجل التنفيذ لحين عودة الكاهن غياث الذي ذهب يبحث في المدن والأمصار عن سم مجهول ليقضي به على ذات الوزير دون أن يعرف هذا النوع من السم في بلادهم ، وربما استعان بجاريته سمات ، فهي مثل سيدها قوية وذكية ، وسيعدها بالهبات والعطايا الملكية إذا نجحت بمهمتها .

ومضت شهور ثلاثة على غياب غياث عن المدينة ، وقد خشي الملك عليه الموت ، وما زال الفشل أيضا يلاحق فرسانه الثلاثة في اصطياد الأميرة بانة وزوجها كساب ، وحتى جواسيسه في قصر والد كساب الأمير صلاح لم ينقلوا له شيئا عن ذاك الاختفاء ، فهو منذ غادر المدينة لم يتصل بهم .

وكان غياب غياث قد أقلق الوزير وأعوانه ، فهو تحت عيونهم ، ولم يعرفوا سبب هذا الاختفاء ، وهو شخص لا يستغني عنه الملك منذ تصاحبا ، ومتعلق به تعلق العروة بالزر ، فأثار هذا الاختفاء الريبة في نفس الوزير وأتباعه ، ولم يستطع عيونه معرفة سر هذا الغياب حتى من بعض الكهنة الذين زعم لهم أنه راغب فيها بالحج لمكة المكرمة بمفرده ، وموسم الحج ما زال بعيدا ، لقد خرج وحده دون خادم يخدمه ، ولا يعلم أعوانه سبب هذا السفر المفاجئ .

وقبل الحج عاد الكاهن للبلاد ، ودخل المدينة ليلا ، وذهب إلى قصر الملك ، وفرح الملك بعودته سالما ، وقضى ليله في قصر الملك ، ولما وصل الخبر للوزير أدرك أنه ذهب في مهمة سرية للغاية لسيده الملك .

طمأن الكاهن الملك على نجاح مهمته ، وأنه أحضر الأعشاب الضرورية لتوليد السم ، وأن

أيام الوزير باتت معدودة في نظرهم ، وأطلعه الملك على خطته في البحث عن بانة ، وأن رجاله فشلوا في ذلك .

ووافق الكاهن على إرسال جاريته الخاصة جدا سمات لبيت عزوف ، وسيعدها بالزواج منه شخصيا إذا نجحت في مهمتها .

فقال الملك دهشة: أنت تتزوجها ؟!

ـ أنا أتزوجها ؛ لتقوم بالمهمة دون خوف وقلق ، ولن تضعف إذا شكت عزوف بها .. وهذا حلم كل امرأة أن تكون زوجة للكاهن الأكبر .

ـ ولكنك رجل عجوز !

ـ المهم أن تكون زوجة لي .. وهي ستجتهد لتكون زوجة للكاهن .

ـ رتب الأمر .. وستكون الأموال بين يديك .

ـ نحتاج لمبلغ يثير اللعاب أيها لملك كم هدايا الوزير يا ترى ؟

قال : حسب الأهمية .

قال غياث : ألف قطعة ذهبية .



موت أمامة

كان الملك وغياث وأعوانهم يخططون للتخلص من الوزير الشيخ ، وصيد بانة الأميرة الهاربة من خلال زيارة لوالدتها المنفية .

وافقت جارية غياث على القيام بمهمة التجسس على الملكة عزوف ، وكانوا يفكرون بوسيلة للوصول لقصر الوزير ، وكان من الأفكار المطروحة تصالح الملك مع وزيره ؛ ولكنهم وجدوا أن هذه المصالحة قد تثير الشبهات حولهم ، وأن التصالح كان لتحقيق هذه الغاية الرهيبة ، وفكر الملك بإطلاق أمامة من السجن من أجل ذلك الصلح ، وأنه رضخ لشرط الوزير .

وبينما الملك في هذه الهم أخبره أحدهم بمرض أمامة الشديد ، فهرع الملك لسجن القصر ، ولما رأى ابنته دمعت عيناه .

وقال للطبيب : ما الذي حدث ؟!

قال : ترفض الأكل .. وتعيش على الماء .

ـ لماذا لم تخبروني ؟

أجاب : أخبرناك يا مولاي ! فقلت دعها تموت .

قال : لابد أني كنت غاضبا ناقما .

أمر الملك بنقل ابنته إلى غرفة صالحة للحياة ، ولكن كان قد فات الأوان ، فقد ماتت بعد أيام مما أبكى الملك بحرقة .. فهي قد حبست، وهي في فترة النفاس ، فمرضت منه ، ولم تعالج بشكل جيد ، ولم تلقَ الرعاية الصحية كوالدة حديثا .

وعلى أثر موتها ظهر غضب في المدينة ، ونقمة على الملك ، وقام أعوان الوزير بنقل الجثمان إلى مقبرة آل الوزير ؛ لأنها زوجة ابن الوزير ، وتعرضت بعض قصور الملك للحرق من المتعصبين للوزير .. وكادت تحدث في المدينة ثورة عارمة لولا تدخل الوزير بنقل الجثة لمقابرهم باعتبار أنها زوجة لابنه .

وعقد الوزير اجتماعا مع القاضي وبعض الأعيان لخلع الملك وتنصيب ملكا آخر وبعد اجتماع امتد لأيام لم يروا فيه ضرورة لخلع الملك .. فالأميرة ابنته ، وهو وليها ، وأن زواجها كان خفية ولم يكن معلنا ، وأن خلع الملك قد يصيب المدينة بفتنة أكبر من التي يعانون منها ، وفيه ترك المجال للعامة بالتدخل والتطاول على الحاكم والسادة .

أصبح الانقسام بينا في البلاد على أثر موت أمامة.. الملك في جانب ،والوزير في جانب آخر ، وزادت الخصومة بينهما ، وارتفعت حدتها حتى أن بعض الملوك والأمراء في المدن المجاورة يسعون للتوسط بينهما ؛ لتخفيف حدة التوتر .

والوزير رفض أي شفاعة وتعاون مع الملك .. وكذلك الملك رفض بدوره أي شفاعة أو أي صلح مع الوزير ، وكان يلح على غياث بالعجلة في الفتك في الوزير حتى ولو افتضح الأمر .. وغياث يدرك أن الخطر الأكبر سيكون عليه ، وينصب على رأسه ، وأن الملك سيحبس حتى يموت .

فقال : ليس أمامنا إلا أن نبني صداقة جديدة مع الوزير.. الصلح ، ثم الفتك به .

فقال مشككا بجدوى الصلح : وإذا تصالحنا فهل يثق بنا !

قال : عندما نتصالح أيها الملك سنرسل له عربون الصلح .. عددا من الخدم كتعبير عن حسن النوايا ، ومن ضمنهم خادمنا الشجاع ،وبعد حين يدس له السم في شراب أو طعام .

ـ هذا سيأخذ وقتا .

قال : صبرنا سنينا أيها الملك ! ولتكن سنة أخرى في عمر هذا الوزير الظالم الباغي

ـ نحن رفضنا كل الشفاعات .

قال غياث : عن طريق كبير القضاة .. تظاهر بالندم والحزن على موت أمامة ، وعدم تمتعها بالزواج ..وكذلك هرب بانة .. والكلام لسان الشيطان .. وخاصة أن الوزير سوف يقدم على تزويج ابنه الأرمل ..فهي فرصة لإظهار الندم والأسف والصلح مع الوزير .

وقضيا أياما يتجادلان حول ذلك الخطب ، ثم قنع الملك بكلام الكاهن ووسيلته للوصول

لقصر الوزير ، ولابد من مد جسور الثقة مع الوزير وأتباعه والتظاهر بالاستسلام والندم .
لذلك طلب كبير القضاة ، وتحدث معه حول زواج ابن الوزير الأرمل لؤي بعد وفاة أمامة ، فأكد القاضي صحة ذلك ، فأظهر الملك حزنه وندمه على موت ابنته وحرمانها من الزواج ، وكشف عن رغبته بالصلح مع الوزير بسبب هذه المناسبة والمشاركة في عرس الأمير لؤي ، وأنه مستعد لدفع المهر أو طعام ضيوف الوزير من أجل روح أمامة .. وبعد عدة جلسات أعلن عن الصلح في البلاد بسبب زواج ابن الوزير ..وأظهر الملك عن أسفه للسادة والأعيان عن تقصيره في حق بناته ، وأنه على وشك الانتهاء من عقدة الحلم ، وأن موت أمامة أصابه في الصميم ، وهو يفكر بالعودة عن طلاقه ونفيه لزوجته عزوف .
وكان العوام بين مصدق ومكذب لفعل الملك ..وقدم الملك الهدايا للأمير لؤي كغيره من السادة ..وكان من ضمن هداياه عشرة من الخدم ، نصفها ذكور والنصف الآخر جواري .. وقدم مثلهم للوزير والقاضي .. فقبل الوزير الهدية ، وأهدى هو للملك هدية مهمة .



زواج عزوف

وما كاد الملك ينتهي من المصالحة مع الوزير أوس باستغلال مناسبة زواج ولده من إحدى الأميرات الشابات حتى جاءه أحد جواسيسه الثلاثة في مدينة ديك الصباح ، ومن عند الملكة عزوف يخبره عن اختفائها عن البيت أكثر من ثلاثة أيام ، فاعتقد الملك وفسر الغياب أنها ذهبت لزيارة ابنتها بانة وكساب ، وأدرك أنها اكتشفت أمر عيونه ومراقبته لها ، وأدرك أنه كان عليه تغيير الجواسيس بوجوه جديدة .

وجاءت خادمة غياث سمات بعد أيام ؛ لتطلع الملك وسيدها على اختفاء الملكة عزوف ، فلامها الملك على عودتها، وأمرها بالعودة قبل عودة الملكة لقصرها .

فقالت: أرى أنها لن تعود ـ يا مولاي الملك ـ لذلك البيت .

فتسأل عن السبب ، فقالت : قبل اختفائها بأيام كان يتردد على بيتها بعض الشبان ، وكانت تمنع الجواري من الاقتراب من غرفة اللقاء.

فصاح رعبا : أتزني ؟!

قالت برعب : لا ، لم يحدث هذا .. الآن أدركت أنها كانت تخطط للهرب .

ـ أين تهرب ؟

قالت وهي تتذكر الأيام الأخيرة مع الملكة : لقد حضر لبيتها رجل يسمى مناعا .. وكان من كبار لصوص مدينتنا هذه .

ـ اللص الكبير مناع ..وهل ينسى ؟!

ـ نعم ، رآها كرتين .

قال بألم : نعم أعرفه.. بينهم قرابة ؛ ولولا شفاعتها فيه لأعدمته الحياة ...كان لصا شرسا ومعروفا في المدينة ، ثم غادرنا بعد العفو .. إذن هربت معه .

قالت بعزم وقوة :أعتقد ذلك يا مولاي الملك ! لأنني سمعته مرة يودعها بقوله "نعم ، أنا اليوم السيد ، ولي مزرعة كبيرة "وذلك على استفسارها " ألعلك تركت اللصوصية؟" ثم

حضر شبان آخرون ، ثم اختفت بعد لقائها بهم . . فهي لم تكن مطمئنة لي، ولا للجواري الأخريات .

وبعد صمت وتفكير قال أمرا لها : عليك أن تعودي ..قد ترسل وراء الجواري

ـ سأفعل يا مولاي !

ورافقت الجندي إلى تلك المدينة ، ولما لم تحضر الملكة للبيت أو أحد من طرفها تفرقت الجواري في تلك المدينة ، وهجرن البيت ، وبعد شهور عادت جارية غياث لبلادها ، ورجع الفرسان الثلاثة سرا للملك وغياث .

وأصاب الملك وغياث الإرباك والسخط والحيرة من اختفاء حفيده ابن أمامة ، ومن اختفاء ابنته بانة ، وزوجته فقال لغياث : أترى أن الوزير يمكر بنا ، وأنه وراء اختفاء الجميع ؟!

قال مجيبا : الحق أن الأمر محير يا مولاي! وأنا عاجز عن دس السم للوزير .. فخدم مطبخ الوزير لا يسمحون لخادم جديد يعمل معهم أو يدخل مطبخ الوزير كما أعلمني خادمي الخاص .. فالأمر صعب بل أحد الخدم ارتاب في خادمي من كثرة اقترابه من المطبخ .

قال بغضب ولفشل الخادم : خادمك فاشل وجبان .

ـ إنها الحياة التي لا يملك الإنسان غيرها .. إني أفكر بحيلة أخرى .. وقد طلبت منه أن يبتعد عن المطبخ والمائدة نهائيا ؛ لتعود ثقة خادم المطبخ والمائدة به .

قال بحقد وجنون : نار الحقد تغلي في بطني وقلبي .. لقد أهملني أمام السادة والرعية ؛ كأنني لست سيده وملكه .. ماذا سنفعل بهده المرأة التي اختفت ، وكنا نطمع أن نصطاد بانة بواسطتها .

قال : لا تنس أن امرأتك من الدواهي يا ملك الزمان .. لقد كنت أخشى عليك من غدرها .

ـ إني والد بناتها يا غياث.

فأدرك الكاهن قصر تفكيره فقال : هذا ما كان يطمئنني عليك .. سأبعث مجموعة من صغار الكهنة يبحثون عنها في المدن المجاورة .

ـ كيف سيبحثون عنها ؟

ـ عن طريق الأسواق ، وعن طريق ذاك اللص مناع .. ألم تخبر الخادمة أنه صاحب مزرعة سنبحث عن تلك المزرعة .. وعن طريقه سنعرف مخبأ عزوف اللعينة.

فرح بتلك الفكرة وقال : فكرة شيطانية ! نعم سنعرف مكانه من أقاربه عندما عفونا عنه آخر مرة تعهد بمغادرة البلاد ؛ ليعيش في بلاد أخرى .. فأقاربه يعرفون أين يعيش أين استقر ؟

قال : أحسنت أيها الملك! من كان أقرب الناس إليه ؟

قال : كان لديه عدد من اللصوص ..والظن أنهم لحقوا به .. هناك لص اسمه أو لقبه حمار كان يعمل معه في فترة ؛ ثم تكاسل بعد أن وقع عن جدار وكسرت رجله .

ـ حسنا أيها الملك ! سأتصل به أو أبعث أحد رجالي إليه .

ـ اللصوص يتتبعون أحوال وأخبار بعضهم كما يفعل الملوك والوزراء

قال : سيقوم شمر بالمهمة .

واستدعي الكاهن شمر أمام الملك ا وكلف بمهمة اللقاء بحمار اللص التائب ، ومعرفة المدينة التي هاجر إليها القاتل اللص مناع .

وصل شمر لحمار واستطاع معرفة اسم المدينة التي رحل إليها مناع اللص المشهور ؛ ولكنه قال له في ختام اللقاء : عاش فيها فترة , ثم اختفى .

لما خرجت عزوف وخدمها من البلاد بضغط من الملك بعد اختفاء ابنتها ، وخشية منها على نفي والديها قبلت بالنفي إلى مدينة ديك الصباح ، وقد قبل ملكها وجودها ؛ ولكنه لم يهتم بأمرها وشخصها ؛ لأنها ملكة مطلقة ومنفية ، ولا أهمية لها في العلاقات بين المدن ، وكانت ترى أن الوزير بعد حين سيستطيع إرجاعها ، وإخراج أمامة من السجن الملكي .

واكتشف خدمها عيون الملك ، فطلبت منهم التظاهر بعدم معرفة ذلك ، ولما جاءتها هدية باسم الوزير عرفت أنها مكر من الملك ، وأن الجارية جاسوسة عليها ، وتظاهرت بأنها بلعت الطعم .

زارها مناع قريبها وابن مدينتها لما علم بنفيها ، وهو لص مشهور في البلاد ، وتشفعت له عند

الملك في قضية قتل ، وقبل بالنفي .. وكان قد كبر سنه فترك اللصوصية كمصدر رزق ـ وإن كانت علاقته باللصوص لم تنقطع ، فما زال له معرفة بهم ـ فقدم إليها ، وعرض عليها الزواج منه ، والحياة معه في مزرعة يملكها بصفته من أبناء أعمامها ، وبصفته منفيا مثلها .. وبعد تفكير وإمهال من قومها ومن الوزير قبلت ذلك العرض .. وقررت الخروج خفية ، فأخذت تخرج للسوق بنفسها بحجة التعرف على أسواق المدينة والتنزه .. وكانت تنقل المال عند أحد الحوانيت التي عرفها عليها رجال مناع .. ولما قلّ المال في البيت استعدت لتنفيذ الخطة المدبرة وكان الحراس الثلاثة قد اعتادوا على خروجها وحدها أو مع أحد خدمها ، ولما اطمأنت على أنه لا يتبعها أحدهم دخلت حانوت أحد التجار الذي له مدخلان فدخلت من أحد الأبواب وخرجت من الباب الآخر ، ثم سارت حتى وصلت إلى أحد المنازل الذي وصف لها من قبل مناع وأعوانه ، فاستقبلت في البيت استقبال الضيوف الأغراب ، وأرسل سيد البيت رسولا لمناع مخبرا بوصول ضيف يخصه .. وخلال يوم كان مناع قد أقبل للبيت ، وبعد الغداء غادر مناع اللص القديم بيت صاحبه تصحبه الملكة عزوف متنكرة ، وركبا جوادين ورافقهم السيد حتى أحد أبواب المدينة ، ثم رجع ، وتابعا المسير حتى وصلا مزرعة مناع التي تقع في أحد أطراف عثمانية إحدى المدن في ذلك الزمن .

وبعد حين يسير تزوجا أمام قاضي المدينة على أنها من العامة ، وكانت الملكة عند الأربعين سنة ومناع قريب من الستين .. فهذه قصة زواج مناع وعزوف .. وكان الرجل يتوقع أن يبحث عنهما الملك وأعوانه ، فاشترى بيتا في قلب المدينة ، وجهزه ليعيش به وزوجته الجديدة بعيدا عن خدم المزرعة واتباعه وغلمانه .

هذا اللص له أكثر من عشرين سنة مغادرا مدينته الأولى ، ولما تشفعت له الملكة كانت في أول زواجها من الملك زرارة .. وقد تعرض مناع لحكم القاضي بالموت بسبب وفاة شخص على يديه .. وجاء والده لقرابة بينه وبين الملكة يبكون ويرجون شفاعتها .. وكانت تلك الأيام تلد للملك البنت الثانية ، وملكة شابة معززة .. وأمام توسلهما قبل الملك شفاعتها ، ودفعت الدية

لولي الدم .. وجرى الصلح ، وخرج مناع من المدينة منفيا ومتعهدا ألا يعود إليها .. ومع الزمن تلاشت علاقته مع لصوص وزعران المدينة .. وماتت زوجته التي رفضت الرحيل معه في البلاد .. وتبعها بعد حين ولده الوحيد بالموت غرقا في أحد انهار المدينة .

نسي هو مع الوقت البلاد والأهل والأصدقاء ..واشترى مزرعة وعمل بها ، وأصبح رجلا صالحا .. فلما سمع بقصة عزوف من بعض أهل مدينته أثناء تجارة لهم في مدينته الجديدة تعاطف معها ، ولم ينس معروفها القديم معه ، وتألم من الظلم الذي أصابها فزارها ، وراودته نفسه بطلب يدها ، وهو لم يتزوج منذ هاجر .. إنما كان يتسرى بالإماء الحسان .

وكانت الملكة بعد نفيها تمر بحزن شديد ، وقد تخلى عنها بلدها وأهلها ، وكذلك عيشها وحيدة فوافقت على العرض .. ولما زارها في المرة الثانية رتبا حيلة الخروج من المدينة سرا لاكتشافها عيون الملك في داخل البيت وخارجه .. ونفذت الخطة التي تحدثنا عن تفصيلاتها .

وبعد زمن يسير وجدت الملكة نفسها تحمل من مناع ـ وهي قضت سنوات لم تحمل من الملك بعد ولادة ابنتها الرابعة سفانة ـ وهو أيضا لم تلد له أي جارية من الجواري اللواتي عاشرهم معاشرة الزوجات ـ وكان الأمر عجيبا ، وولدت له ذكرا سماه رياضا .

وكانت الملكة عزوف ومناع حريصين على إخفاء أنفسهما خشية عيون الملك وجواسيسه .. وكان قيم البستان رفيق هو الوحيد الذي يعرف بيت مناع داخل المدينة .. وكان القيم مطلعا على الخطر المحدق بسيده نتيجة زواجه من سيدة من بلاده القديمة ، وإن لم يعلم أنها ملكة مطلقة .

وكان يغادر الرجل وزوجته البيت في حالة تنكر ، ولما مضت السنة الأولى ، وولدت السيدة ارتفع الاطمئنان لديه إلى حد ما ، فقال : علينا أن نصبر على هذا الوضع بضع سنين .. فالملك لن يغفر لنا بسهولة حتى لو كنت مطلقة ، وأننا نعيش في بلاد لا يحكمها .. وبعد هلاكه قبلنا سنعود للحياة في المزرعة بين الخدم والحشم .

ـ أنا لا أنسى أنني اليوم أم ولدك .. واعدت لي الحياة من جديد يا مناع!

جنون الملك

استطاع مساعد الكاهن الأكبر من اتصاله بكبار السن من لصوص المدينة أن يعرف المدينة التي يعيش فيها مناع ، وذهب أحد خدمه متنكرا لتلك المدينة ، واستطاع معرفة المزرعة التي يملكها مناع في عثمانية ، ورصد المزرعة وقتا من الزمن ، ولم يتمكن من رؤية الملكة عزوف التي يعرف شخصها ـ فهو من خدم القصر قبل أن يهدى للكاهن الأكبر ـ ولما عجز عن الرؤية اشترى هدية ، ومشى بها للمزرعة بجرأة مدرب عليها ، وقدم نفسه لقيم المزرعة أنه يحمل هدية للسيدة عزوف ، فأنكر القيم وجود سيدة بهذا الاسم ، وأنه أخطأ العنوان .. فعاد الرجل يقول: أليست هذه مزرعة السيد الكريم مناع من مدينة اللؤلؤ ؟

ـ بلى

ـ أليس الرجل متزوجا من سيدة من بلدته القديمة منذ عهد قريب ؟

ـ بلى

ـ إنها السيدة عزوف

ـ السيد ترك المزرعة ، وشارك فيها السيد خميس قريب الملك ، ورحل .. وهو فعلا تزوج من امرأة من مدينة اللؤلؤ .

ـ أين رحل ؟

ـ لا نعرف .. هو أصبح شريكنا فقط في ما ينتج من مال في المزرعة ، وعندما يحضر يأخذ نصيبه ، وليس له وقت محدد للحضور .. وهديته احتفظ بها أو دعها وعندما يأتي لقبض حصته من الغلة ندفعها له ، ونقول له عنها .. من صاحب الهدية ؟

ـ سيدي طلب مني أن أسلمها باليد أيها السيد .. فهي قريبة للملك زرارة ملك مدينة اللؤلؤ .

ـ لا نعرف زرارة ولا مرارة .

تعجب القيم من تعريف الرسول بأن زوجة مناع قريبة لملك تلك البلاد .

وغادر الرسول المزرعة حاملا هديته، وعاد للبلاد مخبرا لأسياده بما حصل عليه من معلومات ،

فجن جنون الملك من زواج طليقته من لص حرامي منفي .. لص يتزوج زوجة ملك زرارة ، ويختفي عن الأنظار .. وقال لغياث بجنون بين : اللعينة تتزوج من لص لعين !

ـ ألست أنت الذي أخرجها من البلد ؟!ولماذا تغضب من فعلها ؟

صرخ : أخرجتها لتتزوج ؟

همس الكاهن : ولماذا خلقت المرأة ؟ ألم يخلقن للزواج منا ؟ أنت تخلصت منها وكرهتها ، ثم نفيتها ؛ لتصطاد ابنتك الهاربة عن طريقها ، وهي لم يهتم بها أحد حتى الوزير فاستغل اللص هذا الوضع .

صاح قهرا : اللص ينتقم مني !

ـ له عمر خارج البلاد .. وكما قال الخادم : هو صاحب مزرعة كبيرة .. فلم يعد لصا .. وهي ليست على ذمتك يا مولاي ! فلا تتعب بدنك وروحك بزواجها .

قال مستصعبا زواجها من مناع : إنها امرأة ملك! ألم تكن امرأة ملك ؟!

ـ وهل إذا طلبها الوزير العجوز ستمنعه من زواجها أيها الملك ؛ بل زواجها من لص إهانة لها لنفسها ولوالدها وقبيلتها وللوزير نفسه ، دعك منها .

تنهد وتأفف وقال : إنها أم البنات .

قال : أي بنات يا ملك الزمان! أمامة هلكت وتزوجت سرا قبل ذلك، وابنة اختفت .. ولم يتركن لك كرامة ، وإنهن بنات ملك.

صاح سخطة : تتزوج لصا يا غياث ! هذه إهانة لي ، واحتقار لي ، وانتقام مني أنا لنفي لها .. امرأة الملك ولو طلقت عليها أن تبقى مطلقة حتى تهلك .

قال مهونا من غضبه : الظروف والنفي ..فهي تعيش وحيدة .. فاستغل ذلك اللص السافل وحدتها ونفيها.

قال بحزن : آه ! أكل ما أفعله غلطا ؟!

أجاب الكاهن مهونا الأمر على قلب الملك المشتعل غيظا على عزوف : ليس غلطا أيها الملك !

أنت طردتها ؛ لتكون وسيلة لمعرفة مكان النذل كساب والأميرة الخائنة لتقتص منهما .. والذي يظهر أن أمها لا علاقة لها بزواجها وهربها ؛ كما وقع في خلدنا لأول الأمر .. ظلت مهجورة ، لم يزرها أحد من أهل المدينة سوى ابن الوزير مرة أو مرتين .. وها هو تزوج ، ورحل عن المدينة ، ويعيش في مدينة عبسان في رعاية الملك حبيب بن عجلان ؛ كما أخبر جواسيسنا.

عاد الملك يتحسر فقال : أه ! كم أكره هذا الوزير! أصبح صهرا لعدد من الملوك حتى ابنته الكبرى تزوجت من الملك ضياء .

ـ إنها زوجة ثانية أو ثالثة .

قال : هل أخطأت يا غياث بعدم تزويج البنات ؟!

قال : أنت لم تخطئ أيها الملك ! الرؤيا هي التي منعتك من تزويجهن ، وحالت دون زواجهن صغيرات .

قال الملك : صار لي حفيد يا غياث رغم أنفي .. ابن أمامة اختفى ، ولم نعرف مكانه ؛ فإذا كبر هذا الحفيد سيحقد عليّ ؛ لأنه عاش منفيا ومختفيا بسببي وتسببت بموت أمه .. أمه هلكت في سجن الملك .

قال محرضا : ربما هو عند والده ، فربما خرج الأمير بزوجه ليرعى ذاك الطفل .. حاولت أن أتأكد من ذلك وفشلت .

صرخ الملك بجنون : غياث يجب أن تقتل عزوف ومناع والوزير .

ـ ولماذا نقتل عزوف ومناعا ؟!

ـ حتى لو كانت مطلقة ..كان يحرم عليها الزواج .

قال: فهما في المنفى ، وتحت حكم ملك .. قد يسبب قتلهما فتنة لنا ، وجيشنا غير موال لنا وأما الوزير فأننا ما زلنا نتحين الفرص لننال منه .. وما زال الخادم يقبع في قصره .

قال : ما زال الوزير لا يهتم بصلحي .. ولا يحضر ديوان الحكم ..وإذا جاء يسلم ، ويعاود الخروج إنه يذلني ويغيظني !

ـ ولماذا نريده في قصر الحكم ؟ !وهو طول عمره يحكم من ديوانه .

ـ كان يحضر الديوان ، ويطلعني على أهم أحوال المدينة وأخبارها .

قال : لا أخبار مهمة أيها الملك ! الناس في أشغالهم وتجاراتهم ، والأمن مستقر .. ومشاكل الناس لا تنتهي .. والرجال يقومون بأعمالهم .

قال من جديد : أصابني الجنون لابد من القضاء على مناع الذي لم يجد امرأة يتزوجها إلا مطلقتي .

قال : هون عليك أيها الملك ! دعنا منهما إذا قضينا على سيادة الوزير هان أمر القضاء عليهما ، وعلى كل خصومنا .

لم تعجب كلمات غياث الملك بترك عزوف وزوجها الذي حكم عليه بالموت قبل سنوات خلت ؛ لذلك استعان بأحد فرسانه الأخصاء جدا ؛ ليقوم بمهمة اغتيال عزوف ومناع ، ووعده بالمال والجوائز .

تحت جنح الليل غادر الفارس شهير المدينة متخف وبخنجره وصرة مال إلى المدينة التي فيها مزرعة مناع كما فهمها من الخادم ، وكانت الحيرة تنتابه من هذه المغامرة ، والفائدة المرجوة من تنفيذ الأمر ؛ ولكنّ الإغراءات التي وعد بها تشده ؛ لتنفيذها ، والعيش ثريا السنوات القادمة أدرك شهير قوة غيظ وحقد الملك الكبير من مطلقته ، وزوجها اللص القديم ، وإنه رجل خطير وقوي .. وهو يعلم أن الغدر أيضا سلاح قوي .

كان مناع الذي يدخل المزرعة من بابها الخلفي البعيد متسللا لقد علم من قيم المزرعة نجم قصة الخادم أو الرسول والهدية ، وأن الملك يتعقب زوجته ، ويغار منه ، ولن يهدأ له بال حتى يصيب منهما .. وهو كان من أحد أهدافه الخفية من الزواج من مطلقة الملك إغاظته وقهره ، واستغل هجرتها ووحدتها ، وضعفها للزواج منها .. وهي بدورها قبلت به ؛ لأنها تشعر بالخذلان وخيبة أمل من أهل مدينتها وأهلها وعشيرتها ؛ وربما هي نفسها لها رغبة بمضايقة الملك بزواجها من أكبر لصوص مدينتها في زمانه .

وكانت الملكة قد ذكرت له الجواسيس الذين يرقبونها أثناء خروجها ، ثم دسهم جارية عليها وتظاهر هو بأنه لم ينس معروفها بإنقاذ حياته ، وتقبلها توسلات والديه .

علم مناع بقصة الرسول والهدية التي رفض تركها في المزرعة ، ويريد أن يسلمها لشخصه وباليد ، أدرك أن الملك سوف يصل إليه ، فاستعد لذلك .. فكم سيرسل الملك من الرجال للنيل منه ؟ فهو لا يدري ؛ ولكنه اشترى لنفسه العداوة والحرب

وصل شهير لمزرعة مناع متنكرا على صورة بائع متجول، يسوق حمارا .. وبعد تتبع علم أن السيد مناعا منقطع عن المزرعة .. كما أخبر ذلك العين .. وقال لنفسه لابد أن تكون بينهم وسيلة اتصال ولقاء .. من يقوم بهذه الحركة القيم أم أحد الخدم أم مناع أم شخص ليس له علاقة بالمزرعة كأحد التجار ؟

مضى الشهر على شهير ، وهو في جولات تنكرية دون فائدة مهمة . فقال : مناع من الأذكياء .. وهو معروف بذلك أيام المدينة .. لن يصاد بسهولة.. وألف قطعة ذهبية ثمن رأسه تحتاج لمغامرة .. المال سبب المشاكل بين الآباء والأبناء والأخوة والأخوات والملوك والسادة .

استطاع قيم المزرعة نجم بعد أن أفهمه مناع الخطر المحدق به أن يترصد الرجل رغم تنكره بصور مختلفة بين حطاب وبياع ومتسكع ومتسول ؛ لكنه لا يعرف كيف يتصل بالسيد ؟ ليخبره فالسيد هو الذي يأتي المزرعة خفية .. وأدرك أن الرجل يتنكر بهذه الصور رغبة في رصد سيده .. والسيد مناع كما نعلم لم يعد يأتي بانتظام ، ومن بوابتها الرئيسة كان يزورهم بدون ترتيب ، ومن الباب البعيد للمزرعة من حيث الجبال والأراضي الأخرى ، فلما أتى أخيرا فرح نجم ، وأخبره بالجاسوس الجديد .. فأثنى عليه مناع ، ووعده بمزيد من المال ، وقال: رائع يا نجم ! لن أنسى لك فطنتك عندما تزاح الغمة .. سأكرمك غاية الإكرام .. إياك أن تظهر أنك كشفته ، قد يكون معه آخرون.. وقد أستطيع من وصفك أن أعرفه إذا قابلته ورأيته.. أنا لا أريد أن يؤذي أحدا ، ولا أن أوذيه .

قضى بضع ساعات في المزرعة ، وقبل الفجر غادر المكان ، وركب جواده ، وعاد للمدينة ،

وأودعه أحد الخانات ، وتسلل لبيته حيث كانت الملكة تنتظره على خوف وقلق ، ولما دخل تنفست الصعداء وارتاح بالها وخوفها .. وهذا الرعب يصيبها كلما ذهب للمزرعة .. إنهم ينتظرون تغير الأحوال .

فهم لم يهتموا بنفيها ، فهم لا يهتمون بحياتها ، وكانت تمني النفس بالعودة لبلادها ، وأن تعيش كسائر نسائها في قصرها وبين خدمها وجواريها وصديقاتها وبناتها .. وحزنت كثيرا لموت أمامة لما علمت به .. وفرحت لمشي طفلها الجديد .

قالت بعد الاستيقاظ من النوم : ماذا ستفعل مع هذا الجاسوس الجديد ؟

ـ لن أفعل معه شيئا سوى الحذر .. قلت لك أنا تبت إلى الله ، وتركت اللصوصية بعد خروجي من بلدي .. وإذا لم يتعرض لي بأذى سأدعه وأتجاهله.

ـ ألا تخشى أن يغدر بك ؟

قال : هو قادم ليغدر بي .. فليبق يدور حول المزرعة .. لو كان في بيع المزرعة نجاة من تعقب الملك لبعتها ؛ ولكنها مهمة لنا .

قالت بتعجب : إني أعجب من قدر جمع بيننا يا مناع! .. لولا تلك الحادثة الرهيبة ما عرفتك ولا عرفتني !

تبسم لها : هكذا الدنيا يا مولاتي! هل يمكن أن يحلم شخص مثلي بالزواج من سيدة عظيمة في يوم من الأيام ، من ملكة أنقذت حياته من موت محقق!

ـ لم أعد ملكة يا مناع !



خلود

خرجت الأميرة خلود بنت زرارة الملك مع بعض رفيقاتها الأميرات ، وبصحبة الحرس والخدم في رحلة صيد في غابات تبعد عن المدينة بضع ساعات فقط ، تسمى غابات الشمس ، وهي دون أخواتها ممن عرفت بحب الخيل والفروسية والصيد والتنزه في الغابات .. فهذا الصيد والسفر ليس غريبا عنها .

وكان الخروج يبدأ في ليالي البدر من فصل الصيف ، وبعد نصف الليل ، وقبل وقت الفجر تتحرك الحملة والموكب ، ولما وصلوا للغاية المطلوبة كانت الشمس قد طلعت وأشرقت بنور ربها ، فيبدأ الغلمان والخدم بنصب الخيام ، ويبدأ الطهاة بإعداد وجبة الإفطار ؛ ليبدأ البحث عن الطرائد حول غدران الماء ومصاب المياه .. وعادة تستمر مطاردة الظباء والوحش حتى انتصاف النهار ، ثم يعود الفرسان للخيام بما صادوا من حيوانات مأكولة وغير مأكولة ، ولما اجتمع القوم عند الغداء والاستراحة لم تظهر الأميرة خلود ، وكذلك أحد حرسها ، فأصابهم الخوف والقلق على غياب الأميرة .

فقال أحدهم : رأيتها تطارد ثعلبا ، والحارس يتبعها ، ثم اختفيا عن الأنظار .

وبينما هم يرقبون عودتهم ظهر الحارس وحده ، وظلوا صامتين حتى وصل إليهم الحارس على جواده ، وسأله قائد الحملة عن الأميرة .. فقال : اختفت ذهبت تطارد ثعلبا ، ولما توغلنا في الغابة أمرتني أن ألف له من الجهة الأخرى ، ثم غاب عني جسمها .. وأنا حلقت له من حيث أشارت ، وناديت عليها ، فلم أسمع صوتها ، ولا حركتها ، فعدت إلى حيث افترقنا .. وبحث هنا وهناك.. فلم أجدها .. فعدت إليكم لأخبركم بما جرى لنعمل سوية في البحث عنها .

فقال قائد الحملة بخوف على حياتها : خذنا إلى حيث فقدتها .. نخشى أن تعرض لها وحش من بين الأدغال .. أسرعوا أيها الرجال !

فقادهم الحارس إلى مكان مطاردة الثعلب .. وبعد تدقيق وتحر ، وجدوا آثار حوافر خَيل في

المكان .. فقال القائد متشككا : هل تعرض لها لصوص أم هي حوافر فرسها فحسب ؟ .. نحن لم نطارد بجياد .

قال الحارس : كنت معها على جوادي ، وكانت هي تركب جوادها عند المطاردة .

قال القائد : هل هي آثار جواد الأميرة ؟! الأميرة تعرضت للخطف أو هربت بنفسها .. لقد تتبعت ..الأثر ما العمل ؟!

بعد مزيد من البحث والتوغل في الغابة قرروا العودة للمدينة ، واطلاع الملك على الخطب .. وبقي بعضهم في المكان ؛ لعل الأميرة تعود من تلقاء نفسها ، فهي فارسة وشجاعة .

الملك يعلم برحلات ومغامرات الأميرة في الصيد والتنزه عند تلك الغابات ،فلما أعلمه قائد الحملة بالخطب صاح بحنق وهياج : ويلك الأميرة خطفت ! لا يعقل هذا ..أين كُنتُم ؟!

قَص القائد القصة ، وأحضر الحارس المرافق ، وروى ما جرى من مطاردة الثعلب أمام الملك فقال بهياج : اللصوص يتعرضون لبناتي أين الرجال والفرسان ؟!

ـ لم أسمع يا مولاي صوت استغاثة ! لقد نفذت أمرها في مطاردة الثعلب .. وسرت للجهة التي أمرتني أن أذهب إليها .

قال : الأميرة بنت الملك زرارة تخطف ! أين هيبة الملك والأمة أيها الناس ؟ أمامة تتزوج رغم أنفي .. وابنة تهرب مع عشيقها .. وخلود تخطف أمام أعينكم أيها الفرسان !.. لولا كثرتكم لقلت إنها مكيدة مدبرة منكم .. اطلب قائد الجيش ليرسل فرقة للبحث عنها ، ومطاردة اللصوص والخاطفين ؛ لعلها مقتولة في تلك الغابة .

قال قائد الحملة : يا مولاي ! تابعت الأثر والمكان لا دماء فيه ..وصلت لأبعد غدير دون دماء صاح محتدا : ليكن القائد باسل الأحمق بين يديّ الآن .. هذا عار أيها السادة أين الوزير ؟

ـ الوزير !

قال : أليس هو حامي البلاد ومثبت الأمن والسلام والرخاء ؟!

ـ بلى يا مولاي ! إنها الحادث في الغابة .

ـ فليأت الديوان .. هذا حدث كبير !

حضر الوزير أوس بن عثمان ، وقائد الجيش باسل بن كيوان لديوان الملك عندما سمعا بجلية الخبر ، ثم قائد الحرس الملكي حجر بن زيد حضر مثلهم للديوان ، واطلع الوزير على الحكاية بالتفصيل من قائد الحملة والجندي الحارس ، ولما صمتا تبسم الوزير مما أغضب الملك وبعض أتباعه .

فقال : اغضب كما تشاء.. وأنا ـ كما ترى ـ مريض ومنهك ، ولبيت الدعوة يا مولاي ! الأميرة ابنتنا كما هي ابنتك .. وكلنا أهل المدينة منزعجون من حدوث ذلك ؛ ولكن هذا ليس خطفا هذه الأميرة ـ كما سمعت من تفاصيل ـ تدل على هرب ؛ فإنها هربت كما هربت الأكبر منها .

جرت همهمة ودمدمة ودهشة في الديوان للنتيجة ولصراحة الوزير : ماذا ؟!

فقال الوزير بثبات أعصاب معروف بها : لقد دبر الأمر بليل يا ملك البلاد ! قلت لك من سنوات أمام سادة البلاد دع البنات تتزوج .. لا تحرمهن من النكاح .. هذا هرب على صورة خطف .. قلت لك لا تسمع لهذا الكاهن الشيطان .. الأميرة دبرت مع أحدهم هذه الحيلة .

فقال قائد الحملة : أظن هذا ما حدث يا مولاي ! لقد كانت مطاردة الثعلب فرصة للوصول إلى الرجل المنتظر للأميرة .. لم تطارده مشيا وتربصا ، ولما رأته من بعيد ، قالت هذا لي وانطلقت تطارده .. تبعها الحارس ، ثم خدعته بالالتفاف من جهة أخرى ، ثم ركضت إلى حيث التقت بالخاطف .. لم تصرخ ، لم تستغيث ؛ ليسمعها الجندي الحارس .

أخذ الملك يتأمل المشهد ، ويراجع ما سمع من الجندي وقال : سأتحقق من ذلك بالحديث مع الجواري ..من الذي رتب معها الأمر أيها الوزير الفطن ؟!

ـ سيعرف لابد أنه أحد الفرسان والأمراء .. فارس قريب منها .. فارس يستطيع الحديث معها دون ريبة .. قد تجد علما عند جاريتها رغم أنني أرى أنها أذكى من ذلك أي تكشف نفسها لجواريها .. فهذا دبر من وقت حتى ينجح .. ليس ابن الساعة .. نصحتك بأن تسمح بزواجهن كالأميرات ؛ ولكنك لا تحب الناصحين

حسرة الملك

ضج الناس في المدينة لحادثة هرب ابنة الملك خلود ، وزاد حنقهم على الملك وأعوانه ، واعتبروا ذلك إهانة كبيرة لهم وللأمة كلها .

وخيم الحزن القاتل على الملك وقصره وخدمه وحرسه ، وأدرك بعد فوات الأوان أن سبب ذلك كله المنام الذي اعتقد صحته ، ورتب حياته على تفسيره ، فقد تزوجت ابنته الكبرى سرا ودون علمه ، وولدت حفيدا قد اختفى ، ولولا ولادتها ما كشف السر ، ثم بعد طلاق عزوف هربت ابنته الثانية مع كساب واختفت ، ثم نفى زوجته حتى نكحت لصا بسبب هذا الطرد والإهانة لمقامها الملكي .. وماتت أمامة في سجن القصر لإهماله العناية بها.. وقد خاب وفشل في الوصول لمناع وكساب والوزير أوس ..وها هي ابنته الثالثة تدبر حيلة خطرة للهرب مع عشيق أو زوج .

طلب الكاهن غياث اللقاء بالملك فرفض بشدة أول الأمر ، وبعد إلحاح وتكرار قبل دخوله عليه .. وكان قد اعتبره سبب هذه المحن بتفسيره للمنام .. وأصبح مهزلة أمام السادة والكبار من عشيرته والبلد .. وأبدى له حسرته وتعاسته مما حل .. وقال ساخطا : هكذا يفعل بي المنام يا غياث! لقد أخطأنا في فهم المنام ..وكيف أضطر لمنع البنات من الزواج وبظروف حسنة؟ إني أحس بأني سأموت من الغم والغل يا غياث ! الأولى تزوجت سرا والثانية هربا والثالثة هربا ومطلقتي تتزوج لصا .. إني أموت يا غياث حيّا .. المرأة لا تستغني عن الزواج إلا إذا كانت ميتة .

وأضاف غياث : أو مريضة يا مولاي !

قال : بناتي لم يكن مريضات .. ومطلقتي التي يجب أن تبقى بدون رجل تنكح لصا لعينا كاد أن يموت هنا .

ـ أخطأت يا مولاي بعدم قتله .

قال :لقد دفعت الدية لأسرة المقتول وعفوا عنه .. ولم أكن أحلم أن يتزوج امرأتي

ـ كان من الخطأ يا مولاي طردها وحيدة مع خدم وغلمان .

قال : كان عليّ أن أعرف مكان بانة .

ـ لقد تمكن اللص من استغلال وحدتها وطردها وأقنعها بالزواج .

قال : وأنت دفعتني للصلح مع الوزير للنيل منه وقد فشلنا .

ـ الخادم ما زال بين خدم الوزير ..لم يستطع الوصول لخدمة المطبخ .

قال : ماذا سنفعل في الهاربة خلود ؟

ـ خلود ! فكما اقتنعتم من كلام الوزير فمن هو الرجل الخاطف ؟

قال متأملا : لا ندري .. لم نعرف أميرا غادر البلاد .. ولم يظهر الخاطف .. أخشى أن تكون تعرفت على رجل من أبناء رحلات الصيد ، ورتبت الأمر معه ..كانت كثيرة الخروج للصيد في العام الماضي .. لم يبق لي إلا سفانة ..أتراها ستفعل مثل شقيقاتها ؟!

قال : إنها شابة ناضجة .

قال : هل سيعود ذلك الحفيد الخفي ويسبب موتي ؟

ـ لا أعلم .. لكن حذرتك من الأحفاد كما فهمنا الحلم .

قال متحسرا : أين اختفى يا غياث ؟ قتلني المنام يا غياث! أكاد أصدق أنه من الشيطان .. ها هم الناس شامتون من فعلي ومن عقلي .. يسخرون من الملك الذي لم يمنع بناته من الهرب والزواج سرا مثل بنات السوقة والجهال .. هل من خبر عن الوزير ؟

قال : سمعت أنه على وشك الموت .. فقد زاد عليه المرض .

قال : إنه ذكي يا غياث ! له أكثر من أربعين سنة يحكم البلاد .. أما زال خادمك عنده .

ـ ما زال .. وإذا مات هذه المرة أراحنا من اغتياله .. لا أخشى أحدا في الدنيا كخشيتي منه .. إنه فطن ماكر .

قال : أعرف خوفك وجزعك الشديد منه ، فهو لا يهتم بكلام المنجمين والكهنة ولا العرّافين ـ يؤمن بالعقل والفكر .. كم كنت أحب أن أراه أمامي متوسلا لكشف حلم أو نبوءة .. إني

ضعيف وجبان أمامه .

قال : وأنا مثلك يا غياث أخافه ! لولا حرمة العهد بين قبيلتينا من عهد بعيد لخلعني عن الحكم ؛ لكن قومه أهل وفاء .

ـ من سيكون وزيرا إذا مات ؟

رد قائلا : تجتمع العائلة ويختارون وزيرا منهم ..وقد يكون ابنه .. الوزارة تورث كوزارة فقط وإذا اختاروا من أولاده يكون البكر في العائدة .

لما أدرك الوزير أن أمره أشرف على الختام هذه المرة ، طلب اجتماع العائلة لاختيار وريثه في الحكم ، وتم اختيار أصغر أشقائه الأمير غالب بن عثمان وزيرا للمدينة .

واجتمع مع أسرة الملك ، وحدثهم عن سخط الشعب على الملك بهرب بناته .. وطلب منهن عزل الملك وحبسه في قصره .. وتنصيب ابنته الباقية سفانة ملكة على البلاد ، وتزويجها من أحد أبناء عمومتها .

وبعد تداول الأمر تمت الموافقة على رأي الوزير ، وأخبر الملك بالعزل والإقامة في أحد القصور وذلك بأمر من الوزير أوس وكبار عائلة الملك ، وأمر بحبس غياث المسيطر على الملك وأفكاره وإلغاء منصب وظيفة الكهانة في القصور الملكية .

وبعد حبس الملك في قصر من قصوره ، وحبس الكاهن في أحد السجون توفي الوزير بعد حكم طويل في مدينة اللؤلؤ ، وبعد الصلاة عليه ودفنه أعلن الوزير غالب وزيرا في البلاد خلفا لشقيقه .

ولما انتهى الحداد لسبعة أيام أعلنت الأفراح لتنصيب الوزير غالب .. بدأت المدينة بالاحتفال بالوزير الجديد الذي سيكون لمدة سبعة أيام بلياليها .. استقبل قصر الوزير المهنئين بعدما استقبل من أيام المعزين .. واستقبلت وزراء وفرسان من المدن الصديقة .

وكان الملك زرارة في غاية القهر والغيظ والغضب من عزله وحبسه بقرار من الوزير الميت .. وبينما البلاد تحتفل بالوزير الجديد هرب غياث الكاهن المعروف من سجنه ، وغادر المدينة

خفية بعد أن رشا عددا من حراسه ، وقد قبضوا الكثير من أمواله .

وتعرض هؤلاء المتواطؤون للحبس في آبار السجن لحين الزمن ، وصودرت الأموال التي استولوا عليها من غياث .

وأخذ الملك هو الآخر يفكر بالهرب من محبسه لما سمع بهرب الكاهن ، لقد منع عنه الاتصال بأتباعه ورجاله المعروفين ، وهربت إليه رسالة ترغبه بالهرب ، وترك البلاد ، وقال لنفسه : جاء عليّ الدور للهرب كما هربت البنات!

فنصحته إحدى الخادمات الخاصات اللواتي معه منذ زمن بعيد أن يصبر حتى تتوج ابنته ملكة على البلاد ، ويطلب منها حرية الحركة والسفر .

فوجد هذه الفكرة صائبة وارتاح إليها ، وأن النفي أحسن من البقاء رهين القصر .. فهو بسبب منعهن من الزواج اعتبره بعض أقاربه مريضا ، ولا يصلح للحكم ، واعتبر فاقدا للأهلية للحكم بسبب هربهن وهن بنات الملك .

وعرض عليه بعضهم تهريبه لمدينة جلال الدين للصداقة بينه وبين ملكها الملك حميد بن أحمدان .

فقالت الخادمة المخلصة : الصبر يا ملك الزمان ..النفي خير من الهرب ..وتعود وقتما تشاء من المنفى ..الهرب سيعمق العداوة لك من الأمة والأقارب .

قال : قد تسطيع سفانة تحقيق رغبتي بالحرية والنفي .. فالعائلة تقف ضدي .. يعتبروني مريضا عقليا .. اطلبي منهم أن يكتبوا عن خطة إخراجي من المدينة .

أطاعت الخادمة ، وسربت رسالة تطلب منهم ما العمل للهرب من المدينة ؟

جاءت الخطة أن أحد حرس القصر سيتعاون معهم ، وسيقوم بإلباسه ثياب الحرس حتى يخرج من أبواب القصر .. وستظهر جارية قبل الهرب وتنفيذ الخطة أنه مريض طريح الفراش لا يخرج من غرفته ، ولما يصبح خارج القصر يذهب به إلى أحد المنازل ، وسيصحب قافلة تجارية ، ليخرج معهم من المدينة ، ثم يرحل برفقة فارس إلى الملك الصديق حميد .

اطلع الملك على تفاصيل الخطة واستحسنها ؛ ولكن جاريته المقربة قالت :أخشى أن تكشف يا ملك الزمان ! وتشدد عليك الحراسة .. ويعتبرون فعلك جنونا وتنقل إلى سجن بدلا من القصر الصغير .

قال ممتنا : أنا أعرف عمق حبك وإخلاصك لي من أيام طفولتي ..وأعلم أنك تخشين عليّ .. وتحزنين على ما حل ؛ ولكني ملك البلاد وتآمروا عليّ .

قالت : سفانة بعد ثلاثة شهور ستكون الملكة .. وستشفق عليك، وستطلب لك الحرية في التنقل والسفر ..لا تهرب مثل الأوباش .. سيغضبون عليك .

ـ كم بقي لتنصيب سفانة ؟

ـ شهر .

تنهد حسرة على حاله : شهر .. إنه طويل يا عروب ! حتى أنها لم تطلب زيارتي منذ خلعي عن كرسي الحكم .

ـ سفانة مترددة يا مولاي في قبول العرش !

الملكة سفانة

كانت التقاليد المتبعة في البلاد أن ينصب الملك الجديد بعد تسعين يوما من وفاة الملك أو تنازله أو عزله .

أخذت المدينة تستعد لتتويج الملكة سفانة ملكة على البلاد والعباد ؛ لتقوم بواجباتها الملكية .. ومنها الموافقة على قرارات الوزير الأكبر للمدينة ..ومنها استقبال الملوك والزوار والمشاركة في الاحتفالات المهمة كالزواج واعتلاء العروش .

عندما تجلس على العرش سيكون بيدها سلطة مهمة ، منها الموافقة على موت قطاع الطرق واللصوص والمجرمين ، ولها سلطة العفو عنهم ، وسيكون لها رأي على أفراد عائلتها الخاصة بها ، ولها سلطة شكلية على تعاليم الوزير وتشريعاته وعلى كبير القضاة .

كانت سفانة تبلغ تسعة عشر عاما حينئذ وهي كأخواتها لم تتزوج بسبب ذلك المنام السيء الذكر.

كان بعض رجال الإدارة قد أخضعوا الأميرة خلال فترة الانتظار للتتويج على التعرف على سياسة البلد والحكم والمهام المطلوبة .

وبدأ الاحتفال في ساحة عامة أمام وحضور حشد كبير من عامة الناس ورجال البلد .. فجلست على عرش أعد لها وبجوارها الوزير غالب وأتباعه من الكتبة وكبير القضاة وعدد من أعوانه ، وقائد الجيش وقائد الحرس الملكي الخاص بقصور الملك .

وأقسمت أمامهم جميعهم على كتاب الله المقدس على القيام بواجباتها وحماية الأمة ورعايتها والدفاع عنها ، والحكم بينهم بالعدل قدر استطاعتها .

وأقسم الوزير بالإخلاص للملكة والأمة ونصر الضعفاء ، وكبير القضاء فعل مثل الوزير ، وتبعه قائد الجيش والحرس وأهم رجالات المدينة .

وجرى استعراض للفرسان والشرطة أمامها، ثم انتقلت ومعها حرسها والأعيان إلى قصر الحكم حيث استقبلت كملكة ، وجلست على العرش تتقبل التهاني من السادات ورجالات

الدولة والترحيب بضيوف المدينة الذي جاءوا للمشاركة في هذا التتويج من المدن الصديقة ، وظل ذلك حتى هبط الليل .

واستمر هذا الاستقبال لمدة ثلاثة أيام ، وكانت خلالها تقدم الأطعمة والأشربة للضيوف والعامة في ساحات أمام القصر قصر الحكم ، وكان كل هذا برعاية الوزير .

وكان على الملكة أن تحضر كل نهار ما عدا الجمعة للجلوس في الديوان .. ديوان الحكم لتسمع من الوزير أخبار وأحوال المدينة .. وإذا كان هناك سفارات زيارات تستقبلها وترحب بها .. وعند الظهر تنصرف لقصرها وبيتها للغداء وغيره .

والوزير بعد إطلاع الملك على أهم الأمور ينصرف لديوانه ، وقد لا يحضر الديوان الملكي إن لم يكن هناك ما يهم إطلاع الملك عليه .

والملكة ذات نهار تجلس في ديوان الحكم بين السادة وعلى رأسهم الوزير جاءتها رسالة من والداها كما أعلن الحاجب ، وكان يطلب فيها السماح له بترك محبسه .

فالتفتت للوزير قائلة : وهل أبي محبوس يا سيدي الوزير ؟

أخذ الوزير الرسالة وقرأها وقال : لا ، يا مولاتي ! حضرة الملك لما خلع عن الحكم فرضت عليه إقامة جبرية في أحد القصور .. فهو يشكل خطرا على النظام والمدينة

همست بشك : أبي يشكل خطرا على البلاد !

نظر في عينيها وقال : أيتها الملكة أنت لماذا جعلت ملكة مكانه وهو حي ؟!

ـ لا أدري !

قال : ألم يوضح لك المدربون ذلك ؟

رفعت صوتها وقالت : لا .

قال : أبوك يا مولاتي تسبب في موت أختك أمامة بحبسها ظلما ، وهي عليلة فماتت في السجن بعد أن منعها من حقها في الزواج حتى اضطرت للزواج دون علمه من ابن أخي ، وولدت سرا .. وذلك خشية تحقق منام رَآه الملك عندما تزوج أمك .. وطلق أمك ونفاها بدون جريرة

حتى اضطرت أن تتزوج من لص تائب ليحميها .. ثم هربت أختك بانة مع أحد رجال المدينة والاختفاء لليوم .. ثم هرب الأميرة خلود مع رجل مجهول .. وكل ذلك بسبب المنام المشهور فاضطررنا لعزله واعتباره مريض عقليا .

ـ أعرف كل هذا .

قال ؛ من أجل ذلك تم عزله وخلعه ، وتنصيبك ملكة ؛ لأنك الباقية من ذريته .

قالت : ولماذا كتب لي هذه الرسالة يستغيث بي لإنقاذه من الحبس؟! إنه يسألني الرحمة يا مولاي!

ـ قابليه ، وتحدثي معه عم يريد من هذه الرسالة ؟

قالت بتوتر بين : لقد حاولت ذلك قبل تنصيبي ملكة .. ومنعت إلا بموافقتك

قال : ولماذا لم تطلبي موافقتي ؟

قالت : لا أدري ! هل أذهب لرؤيته ؟

قال : اذهبي لرؤيته .

ونادى أحد القادة الذي لبى النداء ، فقال له الوزير : زيارة رسمية للملكة لزيارة قصر والدها ؛ لتقابله وتسمع شكواه .. رتب الأمور .

ـ أمرك سيدي الوزير .

وقال : ودع الملكة تتحدث مع والدها وحدهما خلوة .. ابعد الرجال والحرس عنهما .

ـ أمر سيدي الوزير .. متى ؟

نظر الوزير للملكة وقال : الآن هيا اذهبوا .

نزلت الملكة عن العرش ، وتقدمها القائد والحرس من خلفها .. وجاءت مركبة تجرها الجياد ؛ لنقلها إلى قصر والدها المعتزل فيه .

ولما وصلت للمكان ترجلت من المركبة .. وفتح لها القصر يتقدمها القائد ، وظل الحرس أمام باب القصر ينتظرون انتهاء الزيارة .

كان الملك علم بوصول ابنته الملكة للقصر من خادمته المخلصة ، وكان مستلقيا على سريره متوعكا ذلك النهار ، فجلس ووضعت الخادمة خلفه بعض الوسائد والمخدات ، ودخلت سفانة الحجرة ، وغادرت الخادمة ، دخلت وهي تلبس ملابس الحكم ، حيث أنها كانت في ديوان الحكم عندما أتت لتقابل الوالد ، قبلت يده ورأسه .

وقالت دامعة: أبي حبيبي عندما تسلمت رسالتك هرعت إليك مسرعة .

فقال بحزن بين : لم يبق لي إلا أنت .

قالت بدون ترو : ستعود أمي وبانة وخلود سنجتمع من جديد يا سيدي الملك .. كيف صحتك وطعامك ؟!

قال بنفس النغمة : الحمد لله ..كنت أرغب برؤيتك خلال الشهور التي مضت هل حرموك من ذلك ؟

قالت : ليتك أرسلت لي .

قال معاتبا : أتحتاجين لمرسال يا سفانة ؟!

قالت : لقد فوجئت بعزلك ، وجعلي ملكة ! لم أكن أحلم بذلك .. وكنت أمنع من زيارتك .

ـ أتعرفين مكان أمك وأخواتك ؟

قالت بحدة وحزم : لا ، يا أبي .

قال : هل ترين أني أسأت لكنّ ؟

قالت بتأن وتردد : لا أدري ! لكنك كنت تمنع زواجنا .

ـ أوجدوا لك زوجا ؟

ـ سمعت بذلك .

قال : من ؟

قالت : لا أدري ! سمعت الخدم يتحدثون عن ذلك الزواج .

قال كأنه آمر : هل سيأخذون رأيي ؟

قالت بصدق : لست أدري يا أبي ! إني أحبك كثيرا يا أبي! لقد حملوني عبئا كبيرا

قال وهو سارح : الشعب احتج على خطف ابنة الملك أو هربها فرأوا أني لا أصلح للحكم .. لقد أصبحت بناتي تشكل عارا عليّ .. يتعرضن للخطف ، والهرب كبنات العامة والسوقة .. أفكرت بالهرب مثلهن ؟

ردت : لا أدري !

قال : لا أدري .. أعلموك كيف تحكمين وتفعلين في قصر الحكم ؟

قالت : نعم ، خضعت لتدريب خلال التسعين يوما .. ماذا تريد يا أبي من رسالتك المبكية ؟

قال : يجب أن أعرف هذا العريس الذي سيقدم إليك وأوافق عليه .

قالت : ستعرف يا أبي ..ولن أقبل به إذا لم تقبل أنت به .. وسأبحث عن أمي وأخواتي ماذا تريد مني .

قال بتذمر : كنت أفكر بالسفر ونفي نفسي .. زهقت من الحبس .

قالت بحيرة : هل هذا حبس يا أبي؟ إنه قصر .

قال بغضب : إنه سجن .. لا يسمح لي بمقابلة أحد إلا بموافقة الوزير أو قائد الجيش .. لا يسمح لي بالخروج منذ وضعت هنا .. أريد حريتي من الملكة .

قالت : إنهم يخشون على حياتك من الخروج .. فأنت ملك .

قال : هم قالوا لك ذلك!

قالت : سمعتهم يتحدثون عن ذلك .. إنهم يخشون الدسائس والمؤامرات من خصومهم .

قال : لا حول لي ولا قوة يا سفانة !

قالت : للشيطان أعوان .. والكاهن هرب ، لابد أنك سمعت بذلك ، وقد طلبوا رأسه .

قال : الوزير الجديد .

قالت : القاضي ورئيس العسس والوزير الكل .

قال بثقة : لن يقبضوا عليه .. فهو أذكى وأفطن منهم .

قالت بتحد : لكنه قتلنا يا أبي! سبب طلاق أمي وموت أختي ، ولم تفرح بطفلها وزوجها ابن الوزير .

قال : لا داعي لتذكيري بجرمه .

قالت :آسف يا أبي ! كان أخطأ وأساء .. أتريد أن تنقل من هذا المكان ؟ أتريد أن تخرج بدون رقابة ؟

قال بتردد : أنا الآن أقول لا أدري ! كنت أظن أنهم سيمنعونك من الاتصال بي .

قالت بإنصاف : لا يمنعني أحد فلما قرأت رسالتك في الديوان، وقرأها الوزير قال اذهبي إليه فهو والدك .. أمن البلاد مطلوب كما يقول الوزير .. إنهم يَرَوْن أنك لا تصلح لقيادة البلاد .

قال : جعلوني مجنونا غبيا .. حسنا يا سفانة ! مبارك عليك هذا التاج .. سأصبر ؛ فإذا ضاقت نفسي سأهاجر وأرحل ؛ ربما أترك هذا القصر الصغير والعودة لقصري الكبير أيسمحون لي بذلك ؟

قالت بدهشة : يسمحون ! أنا التي أسمح .. إن حياتك في وطنك يا أبي خير لك ولنا .. ستعود أمي وأختاي .. سيجتمع شملنا .. إذا أحسست بظلم تجاهك فلن أقبله .. وسأترك هذا التاج .. وسأترك العرش .

قال رافضا ترك التاج : لا ، لا ، كنت أظن أنهم سينقلون التاج عن بناتي لأحد إخوتي أو أبنائهم الذكور .. المهم يا بنية أن أوافق على العريس الذي سيختارونه لك ؛ لأنني أنا مثلك سمعت عنه .

قالت : أذكر اسم العريس ؟

قال : لا ؛ لكني علمت من بعض المخلصين أنهم سيزوجونك من أبناء العائلة من أبناء عمومتك .. ولم يذكروا اسما معينا .. وبما أنك ملكة سيكون من الأقارب من الأمراء الشبان لا تقبلي به قبل رضائي .. وإلا مت وأنا عليك غاضب يا سفانة!

قالت : سأفعل يا أبي ! وأنا قبلت بهذا التاج رغم أنفي يا أبي!

زواج سفانة

زارت مجموعة من النساء من زوجات وبنات وقريبات الملكة قصر الملكة ، وكان سبب اللقاء الحديث عن زواج الملكة ، وأن على الملكة الزواج ؛ لتلد للأمة ولي العهد ، وملك المستقبل .

ولما علمت الهدف المهم من النكاح تذكرت سفانة أن لشقيقتها أمامة طفلا ، وقد اختفى ؛ وربما أختها بانة أنجبت كذلك، وكذلك أختها المخطوفة خلود .

وبينت النسوة للملكة أن الزواج يجب أن يكون بأسرع وقت ، وأن يكون من قريب لها ، وأنهم سيضعون أمامها ثلاثة شبان ؛ لتختار واحدا منهم .

فقالت : أنا لا أعرفهم ، ولم يكن والدي يسمح لنا باللقاء بأقاربنا الذكور .

قالت واحدة منهن : كان أبوك مخطئا وظالما لكنّ .

وأخذت النسوة يهاجمن الملك المخلوع ، ومنامه السيء الذكر ، وأخذت هي تدافع عن والدها وأنها لن تتزوج إلا من رجل يقبله أبوها .

فقالت إحداهن متهكمة : إيه .. هذا هبط عليك حب أبيك فجأة ! أين كان أبوك عن زواج أمامة ؟ وزواج بانة وخلود وطلاق أمكنّ .

قالت ثانية : التي في مثل سنك كان يجب أن تكون قد ولدت عدة ولادات يا ابنة أخي .

وقالت أخرى : يبدو أنك لا ترغبين بالبقاء ملكة .. اسمعي نحن أقارب أبيك .. ونعرف أنك قابلت والدك .

صاحت بحدة : نعم ، قابلت الوالد .

فقالت امرأة متهكمة : الذي لم يكن يراكنّ إلا في السنة مرة .. من العيد إلى العيد .. لا يريد أن يرى دموعكنّ .

قالت ثالثة : أصابنا من والدك العار يا سفانة ! كنّا نخزى عندما تزورنا بنات ونساء الأمراء والملوك الضيوف ..أصبح حبسكن سخرية ، ثم أصبحت سيرتكن سيئة .. أمامة تضطر للزواج سرا ، وبانة تهرب لتتزوج من أحد الشباب الذين لا يقربون لنا ، ولا يمتون لنا بصلة

والثالثة تهرب مع رجل غير معروف لنا لليوم .. أي عار أصابنا منكنّ يا بنات زرارة ! والفضيحة أمكنّ تطلق وتنفى ، ولم تجد زوجا أمامها إلا لصا أنقذت حياته قبل عشرين سنة .. أين أبوك ؟

طفقت الملكة الشابة تبكي ، وهي تسمع كل هذا التجريح والتبكيت وتقول : إنه أبي ! إنه أبي!

ـ أبوك لا يريد لك الزواج .. يريد أن تخطفي وتهربي .

كان كلام النسوة قاسيا على قلبها ؛ ولكنه صحيح .. ومن قسوته على قلبها صاحت وهاجت فيهن: أنا الملكة أنا الملكة !

ضحك النسوة وقهقهن ، وقالت امرأة لها : والله نعلم أنك الملكة العزباء .. سيتقدم لك ثلاثة شبان تختارين أحدهم .. ابني أنا أحدهم ، والثاني ابن ابن عمتك مريم .. والثالث الأمير عز من أبناء العمومة ..وكلهم من جيلك .

ـ وإذا لم يوافق أبي .

صرخت فيها إحداهنّ : أنس أباك .. أبوك دمر البلاد ، وجعلنا أضحوكة لملوك الدنيا .. وأساء لسمعتك ، وسمعة العائلة والعشيرة .. الملكة تحتاج لزوج .. تحتاج أن تكون أما .. تحتاج أن تلد للأمة ملكا .. أبوك حبس ابنته حتى هلكت في السجن كالنعجة الجرباء !

قالت أخرى : سنزورك قريبا ، ومعنا الرجال الثلاثة ، وكلهم أكبر منك بسنة أو سنتين .. وهم من أبناء النبلاء والسادة من أبناء عشيرتك .. واعلمي أنه لا تهمنا موافقة أبيك يا سفانة المهم موافقتك أنت واختيارك أنت .. وإذا لم تتزوجي ستخلعين عن العرش .. فحافظي على ملككي ، وعلى هذه النعمة التي جاءتك على طبق من ذهب .

صرخت في وجوههن : لن أتزوج دون موافقة أبي عليه .

ـ عجيب أمر هذه البنية !

قالت : أنا يهمني رضا الملك الأب .

قالت واحدة منهن : الملك كلنا يعرف أنه لا يريد الزواج لك ولغيرك ..إنه يخشى من ولادة

حفيد ذكر يقتله .. أهذا يعقل يا بنية ؟ أليس هذا الحلم ما دمر أسرتك ؟ وسبب طلاق امّك حتى تزوجت لصا بسبب نفيها وحيدة دون أهل وأقارب .. عادة الملوك في بلادنا تهجر الزوجات ..من النادر أن يحصل الطلاق فينا .

قالت : أنتم لا تحبون أبي .

قالت ثانية : أنحن أسأنا لكنّ ؟ هو الذي فضحنا بين الأنام .. أختك بانة من أجبرها على الهروب مع فارس صعلوك .. وتتزوج بدون حفل وفرح وزفاف .. تتزوج كابنة صعلوك ومعدم .. وماذا فعل ليأتي بها ؟ لم يفعل شيئا ..طرد أمك معتقدا أن البنت هربت بمعرفتها .. وأنها ستلتقي بها بعد الطرد .. كان عليه أن يبحث عنها .. ويسفك دمها لخيانتها لقومها وعشيرتها ..وأمامة تزوجت بعلم أمها من ابن الوزير الأكبر سرا ودون علمنا .. وها هي أختك الثالثة تتظاهر أمام الصيادين بأنها مخطوفة ؛ لتهرب مع من ؟ لا أحد يدري .. أكل هذا وتقولين موافقة أبي ؟ أبوك أيضا لم يحرك ساكنا لإحضارهن.. استعدي لاستقبال من سيكون أحدهم بعلا لك ..وسيوافق أبوك على اختيارك إذا أحسنت عرض الرجل عليه ؛ لأنه يا بنيتي عدم زواجك معناه أنك تخلعين نفسك .. أخبري والدك بذلك .

قالت الملكة : لعلي لا أريد الزواج .

ـ وهل امرأة أو رجل تعيش بدون زواج .. ولماذا خلق الذكر والأنثى يا سفانة ؟ العاقل السليم الصحيح يتزوج .. وهذه سنة الحياة والدنيا .. لو كنت مريضة ؛ ربما صدقت أنك لا تصلحين للزواج والرجال .. عندما تحيض الفتاة يلزمها النكاح إن تيسر الطالب .

قالت : ولكنني أبغض الرجال .

قالت : ليس بالضرورة محبتهم .. الزواج غير الحب والميل .. المرأة التي لا تتزوج في عز شبابها ستبحث عن العشاق .

قالت دهشة من جرأتهن : العشاق !

قالت : وإلا ماذا أنت ستكونين بين الرجال يا ملكة البلاد؟ ستجدين من العيون الخائنة التي

تنظر إليك بشهوة .. لما تكوني ذات بعل يقل التطاول إليك بهذه النظرة ، ولا تتعرضين للغزل وغيره ، ولا الطمع ببدنك .

بعد هذا اللقاء العاصف والجريء مع الملكة الشابة رتب اللقاء بالشبان الثلاثة بينها وبينهم في قصر الملك الوالد والملكة عزوف .. وحضر اللقاء بعض أعمامها وبعض عماتها .. وبعض تلك النسوة اللواتي قابلنها من يومين فقال عمها معرفا بذوات الشبان : هذا ابن عمك الأمير يزدان عمره عشرون سنة ، ولم يتزوج بعد .

ووقف الأمير أمامها لتحدق فيه . ولما عاد للجلوس أشار عمها مرارة للثاني وقال : وهذا ابن عمتك الأمير سعيد بن يوسف ووالده من أبناء العمومة .

وتقدم الأمير ووقف أمامها ، ولما نظرت فيه بدقة عاد للجلوس .

وقال عمها وهو يشير للأمير الثالث : وهذا الأمير خالد بن عُمير أمه ابنة عّم لك .. وعمير والده من العائلة ، والوزير خاله ، فأمه ابنة الوزير غالب .

وفعل الأمير خالد كما فعل سابقوه ، ولما جلس حيث يجلس قال العم : وهذه أيها الشباب الملكة سفانة !

رحبت الملكة بهم وتأملتهم بشكل دقيق وحاد ، وحدقت في عيونهم من جديد ، وبعد صمت وتفكير .. قالت : كيف سأختار أحدهم ؟

قالت امرأة عمها أم الأمير يزدان وزوجة مرارة : القوم لا يريدون أن يفرضوا عليك أحدهم هؤلاء الأبطال أمامك .. فهم الأقرب إليك نسبا وسنا.

ـ ألا تسمحون بإعلام أبي وإحضاره ليراهم ؟

فقال عمها : يا بنية ! والدك الملك لا يعرفهم معرفة قوية ؛ ربما رآهم وصافحهم في مناسبة التهنئة بالأعياد .. وهو قد أساء للبلاد والعباد .. وألبسنا العار بهرب أخواتك ، وزواج أمك من مناع السارق المشهور .. لقد كان أن تتزوجي من خمس سنوات .. ولكان اليوم ابنك يرتع ويلعب مع الصبيان .. وتسبب أبيك في موت بكره بعد ولادتها .. وهو كما نعلم لا يرغب في

زواجكن .. وتحدثت قديما معه في ذلك ؛ ولكنه بدل أن يقبل نصحي هددني بالطرد والنفي .

قالت بخضوع :إنه أبي يا عمي .. قابلته من أيام كان يفكر باللجوء إلى أحد الملوك والعيش خارج البلاد .. ولما علم أنني سأقبل من يوافق عليه من زواج .. قال سأبقى من أجلك يا سفانة !

ـ هل اخترت أحدهم ؟

قالت : كلهم أبطال ، وسيراهم أبي ، وينصحني بحسن الاختيار .

قال العم : مسكينة أنت ! أنت لا تصلحين للملك سيضيع الملك من العائلة.

همست بحيرة : لست متعلقة بالحكم ..لماذا جعلتموني ملكة ؟!

فكر العم وقال : جعلناك ملكة لأنك ابنة الملك .. والملك لم ينجب ذكرا يرثه .. والملك سينتقل لابنك الذكر .. أتحبين العزل ولا تريدين الزواج ؟

قالت : لا أدري يا عماه ! كأنني كرهت الزواج بسبب أخواتي وطيشهن .

قال بضيق : الحق على أخي .. اللوم على الملك في الأول ..أخواتك حرمن من الزواج .. فتزوجن رغم أنف أخي وبطرق مخزية .. الهرب .. كان أخي أحمق .. أغلق حياته على منام فاسد حلم شيطان .. وأنت تزعمين أنك غير راغبة بالزواج .. ألم يعجبك أحد من هؤلاء الشبان ؟

عادت تقول : لا أدري .. هل الزواج ضروري ؟

قال بامتعاض : ما دمت ملكة فهو ضروري ولازم .. حسنا ستذهبين برفقتهم لقصر أبيك !

قالت بسذاجة : أبي سيحضر هنا أليس هذا قصره يا عماه ؟!

صاح بحدة وملل : هذا قصر الملوك .. ومنام الملوك يا بنية من عهد بعيد .. سأرسل وراء الوزير .. يا خالد اذهب إلى خال أبيك وأت به .

صاحت منزعجة : وما دخل الوزير في هذا يا عماه ؟! أنا التي ستتزوج ..أنا الملكة أنا الملكة !

حدق في ووجها سخطا وقال : نعم ، أنت الملكة ؛ ولكنّ أباك يشكل خطرا على البلاد .. فهو

محجوز في قصر صغير حتى يموت ، حتى لا يتصل بأنصاره والموالين له ، ويسبب المشاكل والقلاقل في البلاد .. نحن لا نريد حدوث فتنة يا ابنة أخي .. وأنت عُلمت ما هي واجباتك وحقوقك علينا .. أبوك أخي .. ومصلحة البلاد أهم من الأفراد .

قالت : لا دخل للوزير بزواجي .

قال : موافقة الوزير على زواجك أهم من موافقتك أنت وأبوك الملك .. الوزير رأيه الأهم ، وكذلك القاضي الأكبر .. وزواج ملكة ليس كزواجي وزواج الوزير .. وهؤلاء الفتيان الوزير قبل بهم ؛ ليكون أحدهم بعلا لك .

صاحت بحسم موقفها : أنا إذا لم يقبل أبي بأحدهم لن أتزوج .. اعزلوني عن الحكم ..لا أريد الملك .

قال الأمير : حسنا ! سيأتي مولانا الوزير؛ ليسمع هذا الكلام حتى لا أتهم بتضليلك والافتراء عليك .

جاء الوزير بعد وقت يسير يصحبه موكبه وحرسه ، وأخبره العم مرارة بكلام الملكة ، وأنها تطلب موافقة أبيها على العريس .

فضحك الوزير وقال بتهكم : موافقة أبيك الملك على العريس أو تتركين الحكم .. يا لك من طفلة ! ما زلت تفكرين بعقلية الطفلة .. أبوك لابد أنك تذكرين أنه لا يحب لكنّ الزواج .. وعمك بمقام والدك .

قال العم : يا ابنة أخي ! لقد أساء الملك للأسرة والبلد .. يا مولاي ما العمل ؟

قال الوزير : فلتذهبوا جمعيا إلى قصر الملك .

قال العم : تريد أن يأتِ أبوها إلى هنا .

نهض الوزير قائما وقال :تذهب إليه وحدها ، وتتشاور معه ، ثم نرتب إلى اجتماع هنا .

زارت سفانة والدها في محبسه الخاص ، وأخبرته بأشخاص العرسان الثلاثة وعليها أن تختار احدهم ؛ ليكون شريكها وزوجها في الحياة ، وأنها لن تقبل بأحدهم دون موافقته هو ،

وفضلت ترك الحكم إذا لم يقبل هو بزواجها.

هز الملك رأسه عدة مرات وقال : لو الأمر بيدي لمنعتك من الزواج .

نظرت في وجه أبيها وقالت : إذا كنت لا تريد لي الزواج سأرفض يا أبي .. لست متعلقة بالزواج .. إنني أكرهه .

فقال : وهل يرضون بذلك ؟

قالت : لا أريد التاج ..لم أحبه .

فقال : ما دمت لا تريدين التاج فدعك من الزواج.. أنا بغض لي زواجكنّ .. وسعيت لذلك المنع .. لا أنكر ذلك أيها الملكة البارة بأبيها .

قالت : أنت الملك يا أبي .

قال : أتحبين أباك ؟

قالت : هل من أحد يكره أباه يا أبي ؟!

قال : أخواتك .. ألم يجلبن العار لأبيهن ويفضحنه بين القريب والغريب ؟ وتزوجت أختك الكبرى سرا دون علمي ..والأخريات هربن .. وأمك نكحت لصا .. مع من هربت خلود ؟

قالت : لا أدري .. ولا أحد يدري مع من هربت ؟ لم تخبر أحدا بسرها ..أنت ترفض زواجي يا أبي !

قال :ما دمت أنت مبغضة له ،ولا تريدين الزواج فأنا أرفضه .

قالت : ألا تخشى انتقامهم ؟

ضحك وهو يقول :ماذا يفعلون أكثر مما أنا فيه من الحبس والإهانة والخلع ؟ سيقتلونني لا يفعلون .. وأنا لا أخشى الموت .. لم يصدف أن قتل ملك من أجدادي قتلا في بلده .. إذا كنت لا ترغبين بالزواج فأنا أحثك على ذلك .

قالت : أخواتي تزوجن رغم رفضك ؛ بل إحداهن ولدت سرا .

عاد يقول : إذا أنت راغبة بالاقتران عليّ أن أوافق .

عادت تؤكد :إذا لم تقبل أحدهم فلن أتزوج .

قال : الزواج كله مرض يا سفانة!

أخبرت الملكة عمها برفض أبيها زواجها ، وأنها غير مستعدة للزواج دون رضاه ، وهي مستعدة للتنازل عن الحكم .

فقال مشفقا : أترين أن هذا من البر ؟!

قالت : إنه أبي يا عماه !

قام وقال: حسنا ! استعدي لخلع التاج ..وإذا أصاب والدك سوء أنت السبب .

بعد هذا الكلام قابل العم الوزير غالب بن عثمان ، وحدثه برفض أبيها زواجها من هؤلاء الشبان ومن غيرهم ، وهي جاهزة لخلع التاج الملكي .

فقال الوزير : دعني أفكر بعض الوقت .

اجتمع سادة البلاد الكبار ، وسمعوا كلام العم والوزير ، ورفض الملكة الزواج بدون رضا الملك المعزول زرارة ، وأمهلهم ثلاثة أيام للتفكير بالملك الجديد .

اجتمع القوم مرة أخرى لمناقشة أمر زواج الملكة وخلعها ، واتفقوا على توليه العم مرارة الملك حتى يظهر ويعود ابن أمامة الذي هو من نسل الملك زرارة من منفاه السري ، ويتولى مقاليد الحكم وكان ابن أمامة كما نعلم قد هُرّب ليلة ولادته إلى مدينة مجاورة مع جارية وعبد من جواري وعبيد أسرة الوزير أوس ، ومن أجل حمايته تزوج الأمير لؤي أميرة من تلك البلاد ، ورحل إليها ؛ ليكون قريبا من ابنه .. وكان حذرا جدا في زياراته خشية أتباع الملك وأعوانه .. وكان يفكر بعد خلع جده بنقله لبيته ومنزله .. فكلنا يذكر تهديد الملك المعزول بالبحث عنه وقتله .

عزلت الملكة بعد رفضها الزواج ، ومنعت وحرمت من زيارة أبيها ، ورجعت لقصرها القديم ، حيث كانت تعيش مع أخواتها ، وشددت عليها الحراسة ؛ لأنها ملكة معزولة كأبيها فلا يجب عليها أن تتصل بأحد إلا بالحدود الدنيا.. ولما رأت هذا الحال والتضييق أحست بالندم والجهل والغباء .

عودة عزوف

بعد مضي فصل من الفصول سمح الملك الجديد لسفانة بزيارة الوالد حسب ترتيب وحراسة مشددة ، وصارحها الوالد برغبته بالهرب بمساعدة من أنصاره ، وأن أحد الملوك الأصدقاء رحب بلجوئه لبلده .

فقالت بقلق : ألا يغضب قومنا ؟

فعاد يقول : لكني ضعيف ، لم يعد بدني يتحمل السفر .

قالت : لماذا لا يسمحون لك بالسفر ؟! فليشفع لك ذلك الملك عندهم عند شقيقك الملك مرارة .. فالهرب سيّء يا أبي !

قال كأنه شارد الذهن مشتت الفكر : ألم تتزوجي بعد ؟

حملقت فيه استغرابا وقالت : لم أتزوج !.. ألم تمنعني من الزواج ؟

قال : أنا منعتك من الزواج ! أنا قلت إنني لا أحب زواجك .. لم أمنعك من الزواج إذا رغبت بذلك .

قالت : ولكني تنازلت عن العرش حتى لا يحدث الزواج هناك خبر لا أدري هل نقل إليك ؟

قال : خبر .. ما هو ؟

قالت : كتبت أمي رسالة للملك تطلب العودة للحياة في بلدها في مدينتنا .. فقد ترملت من شهور مضت.

هتف شامتا : آه ! مات اللص .. نكحت أمك لصا !

قالت : علمت أنه تاب منذ فارق هذه المدينة يا أبي .. ولم يعد لصا .

قهقهة زرارة وقال : اللص يبقى لصا حتى يموت .. إذن هلك مناع اللعين .

قالت مستفهمة عن فرح أبيها بموت زوج أمها : إذا لم تكن ترغب بزواجها من غيرك لماذا طلقتها ؟! فكان عليك أن تهجرها كما يفعل بعض السادة .

فكر قليلا قبل أن يقول : كانت ضربة قاصمة عندما علمت بزواج أختك سرا .. وبدون

مشاورتي ..ولولا تلك الولادة لما عرفت بزواج تلك العاهرة .. وممن من ابن الوزير عدوي الأول .. كنت صغيرة يومئذ .

قالت : لم أكن صغيرة يا أبتي ..كنت ابنة خمس عشرة سنة .. وأعرف الأمور وما يدور حولي كانت أمي منزعجة من كبر سنها .. ولم تصبح زوجة وأما .. وأنت مصر على القلق والخوف من ذلك المنام البشع.. فاضطرت أمي للسعي إلى زواجها ممن تحب .

قال : أأنت تُحبين أمك ؟

قالت بحيرة : أحبكم جميعا .. إنها أمي ، كما أنت أبي.. لقد كتبت رسالة للملك تستعطفه بالعودة .. وكتبت لي رسالة تلومني على ترك العرش ، وعلى رفض الزواج .

قال : هي حمقاء ! لا تقدر ذلك المنام !

قالت : أما زلت تعتقد بذلك الحلم يا أبي ؟! قد خلعت عن الملك بسببه

قال بتحد : ما زلت ، وما زلت أعتقد أن ميتي على يد أحفادي .

قالت : أين هم الأحفاد ؟

قال : سيأتون .. ألم تلد أمامة أحدهم قبل موتها ؟ وقد أخفي عني، سعيت لقتله ، والغدر بالوزير أوس اللعين ، وفشلت .

قالت بحيرة : أردت قتل الوزير !

قال : نعم ، يا بنية ..كان عاقا لي ..أردت قتله بالسم ؛ ليموت .. وأخلص منه وأنتقم منه .. كيف تجرأ على النيل من بناتي وعلى شرفي ؟ كأنني غير موجود .. وأنا سيده وسيد هذه الأمة والبلاد .

قالت : هذا كلام خطير يا أبي !

قال : أعرف ..كان عليّ التخلص منه .. كان زواج ابنه من ابنتي قاسيا على قلبي ، وجريمة كبرى في حقي وقد جرأ الناس على التغرير ببناتي ؛ لكنه كان حذرا وذكيا

تنهدت برعب : الحمد لله أنك لم تقتله ، وإلا كانوا قتلوك وأصابتنا حسرة عليك

قال كأنه حكيم : يا بنية الحكم والسياسة والتاج أحيانا تحتاج منا إلى قسوة وجبروت حتى تبقى الرعية في خوف ورعب .. وتبقى قوة الملك .

قالت : أهكذا السياسة يا أبي ؟

قال : ليست دائما هكذا ..بين الفينة والأخرى .

قالت بجفاء : هذا أمر مرعب !.. عمتي ودود زارتني وطلبت مني التفكير بالزواج من أجل الزواج ، وليس من أجل الملك .

صفن قليلا ثم قال : أترغبين برجل يا سفانة ؟

قالت بعزم : لن أتزوج قبل موافقتك ورضاك ..لن أكون مثل شقيقاتي .. قبولك المهم عندي يا أبي .

قال بدون تردد : أنا لن أوافق.. إذا لك رغبة تزوجي دون موافقتي .

غيرت الحوار : هل ستقابل أمي إذا عادت للبلاد ؟ لأني علمت أن الملك وافق على عودتها لقصر أبيها الذي يحتضر كما نقل لي .. وقد علمنا أن لها طفلا من ذلك الرجل .

صرخ زرارة بجنون : ولدت منه! .. يا الهي ! لك أخ من لص !جنت اللعينة !

قالت : هذا ما كشف لنا من رسائلها لأهلها .. وهو طفل يافع يمشي .

قال بضيق واضح : أرأيت ما يصنع الزواج من البلايا ؟!.. بنات الملك أصبح لهن أخ من لص وغلبه البكاء فأخذ بالبكاء من هول النبأ .

تفاجأت من بكائه ورددت : أتبكي يا أبي ؟ الملك يبكي !

استنشق دموعه وقالت :أبكي من القهر والغيظ .. لقد أخطأت بطلاقها ..كان عليّ هجرها ، كما كان يفعل آبائي .. لقد خالفت رأي غياث .

قالت : الكاهن !

قال : نعم الكاهن .. أمرني بهجرها .. لقد كنت معلولا منها لما علمت بزواج أمامة من ابن ذلك اللعين وولادتها .. أردت إذلالها .. أليس هناك أخبار عن ابن أمامة ؟

قالت : إنهم ينتظرون أن يكبر ؛ ليكون ملك البلاد .

قال : نعم ، هو الأحق بالملك ؛ لأنه ذكر ، ومن سلالتي .. وأبوه من أهل المدينة .. فله الأولية عندما لا يكون للملك الميت أو المخلوع مثلي ابن ذكر .. وإن كان المولود من جهة الأنثى .. عندما تعود عزوف أتمنى اللقاء بها إذا رضوا بذلك .

قالت : سأسعى بذلك يا أبي !

بعد حين يسير من هذا اللقاء بين الملكين المخلوعين عادت الملكة عزوف من بلاد الغربة ، ونزلت في قصر والدها الذي مات قبل وصولها بزمن قريب .. واستقبلتها أمها وأهلها أحسن استقبال فور دخول البلاد ، ورحب الوزير بعودتها ، وعزاها بزوجها ووالدها عندما استقبلها في قصره .

وذهبت للديوان وقدمت الشكر للملك الجديد الذي تمنى لها حياة سعيدة في بلدها ، وبين أهلها وأقاربها ، وطلب منها المساعدة في عودة بناتها للحياة بين أهليهن ، فوعدت بالمساعدة في ذلك ، وبعودة حفيدها ابن ابنتها أمامة .

قامت سفانة بزيارة أمها لما سمحوا لها بذلك ، وأبدت المرأتان السعادة بهذا الاجتماع ، وعاتبت الأم ابنتها على خلع نفسها عن العرش ، وعدم الزواج بحجة طاعة الوالد وبره .. فذكرت تبريرها لرفض الزواج دون موافقة أبيها الضعيف الموقوف في قصره .. فاتهمت الأم ابنتها بالسفاهة والجهل ، وشجعتها على الاقتران بزوج صالح ؛ لتنجب منه ذرية طيبة ، وأعلمتها أن والدها يعيش في وهم وحمق مما دفع سفانة لتتشاجر معها .. ثم طلبت من أمها أن تريها أخاها ، فحضر فعانقته وقالت له : أنا أختك يا رياض ! وقالت : إنه طفل رائع وجميل يا أماه ! أصحيح أن والده لص حكم عليه بالموت ؟

جاءت رسالة من الملك حميد بن أحمدان ملك بلاد جلال الدين صديق زرارة إلى الملك مرارة بن نعيم ملك بلاد اللؤلؤ يطلب فيها العفو عن الملك ، والحياة في بلاده ..فقد أرسل له زرارة رسالة يستعطفه ويرجوه بالسماح له في العيش في بلاده للصداقة العميقة بينهما ، وبين البلدين

من عهد الآباء والجدود .

اجتمع الملك بالوزير غالب ، وحدثه عن رسالة حميد ومناشدته ، فقال الوزير بعد تفكير : لا أدري خطر خروجه من البلد ! وهو كما علمت من طبيبه الملكي الذي يعوده يعاني من ضعف وإرهاق بدني .. لكن لديّ شرط إذا غادر البلد ، ومات هناك ستبقى جثته عندهم .. لن تقبله البلد ميتا .. فهو ملك حكم بلادنا عشرات السنين كما تعلم ؛ فإذا قبل الشرط فحيهلا .. فأرسله إلى الملك حميد بن أحمدان ملك بلاد جلال الدين ولتصحبه خدمه وغلمانه الذين يرغبون بالهجرة معه .. ونحن سنرسل له أمواله المخصصة له كل عام دون نقصان وأي زيادة وحذره من التآمر على البلد .

نقل الملك مرارة الشروط لشقيقه زرارة ، فقبلها ، ووافق عليها ، وطلب أن تصحبه ابنته سفانة التي قبلت بدورها مرافقته في رحلته ، والعيش معه في تلك البلاد حتى الموت .

وتشاور الملك مع الوزير في أمرها فرأيا أن تذهب ما دامت موافقة على ذلك .

طلب الملك المخلوع قبل النفي الاختياري اللقاء بعزوف ؛ ولكنها رفضت هذا اللقاء ، ولم ترحب به ، وقالت للرسول : إنها ترملت على ذمة رجل غيره .

وحتى أنها لم تذهب لوداع ابنتها ، وغادر الملك زرارة ، وابنته بصحبة كوكبة من الفرسان والحرس إلى مدينة الملك حميد ، وصحب الملك عدد من خدمه ، وكذلك سفانة صحبتها إحدى مربياتها ، وبعض خدمها.

فكان الملك يهامس سفانة : أرأيت أمك أبت أن تودعنا ؟ إنها لا تحبنا .

قالت بحيرة : لقد طلقتها يا أبي ؟

فرد على حيرتها فقال : ولكنها امرأة ملك .. الحمد لله الذي أبقى لي سفانة .. أنت الابنة الوحيدة التي تحب أباها ومخلصة له .

قالت : بالتأكيد أني أحبك يا مولاي أنت أبي !

فقال سؤالا محيرا : أترين أني قصرت معكنّ ؟

قالت : لست أدري !

فقال : هل ظلمتك لرفضي زواجك من هؤلاء الأمراء ؟ وتسببت في تنازلك عن العرش والتاج .

قالت : أنت أهم من العرش .

تنهد وقال : كلام طيب إذا كان صادرا من قلبك !

هتفت مؤكدة : أنت حبيبي يا أبي! صدق أن سعادتك أحب إليّ من الزوج والعرش .

فقال : ليت أخواتك كن مثلك ! لا أخبار عنهنّ يا بنيتي !



ابن الوزير

رجع الأمير لؤي بن أوس من مدينة عبسان إلى وطنه تصحبه زوجته وأولاده الثلاثة بعد غربة اختيارية استمرت لعدد من السنين .. واستقبله عمه الوزير في قصره ، ورحب به ، وشكر الله على عودته سالما ، واطمأن على أحواله ، وأحوال ملك تلك البلاد التي عاش فيها الملك حبيب واستقر في أحد قصور والده ، وزارته الملكة عزوف ، مهنئة بعودته لبلاده سالما غانما ، ورحبت زوجته الأميرة ليلى بالملكة القديمة عزوف .. ورأت أولاده ، فلما سمعت أخباره وأسباب عودته سألته عن ابن أمامة .. وهذا هو أهم أسباب هذه الزيارة .

فقال : هو في أمان يا ملكة الزمان !

قالت : لم أعد ملكة يا ولدي .

قال : ستبقين في خلدي ملكة ..أنت أم أول امرأة اتخذتها حليلة .. وكانت مغامرة مؤلمة رغم فشلها .. فأنت كنت سيدة فاضلة وشجاعة .. لقد أصر الملك على عدم زواج بناته .. وقد خرقت الحاجز ، وضحيت بملكك من أجل سعادة بناتك .. وقد علمت أنه حرم على سفانة الزواج ، وأخذها معه إلى حيث غربته ومنفاه.

قالت : لقد ترك البلاد .

قال :كانت تصلني أخبار البلاد من تجار المدينة .. وإن لم يسعوا إليّ أسعى إليهم

قالت : نسيت أنكم من أهل التجارات .

قال : عدت من أجل الأطفال ؛ ليكبروا في بلاد أبيهم ، ويعرفون أهليهم .. أما الفتى فهو ابن عشر سنوات .. ويستطيع الجلوس على سرج الجواد .. وكنت ألتقي بين الحين والآخر زاعما أني سافرت للتجارة .. ويعرف أنني أبوه وأن أمه ماتت .. وسيعود بعد زمن للجلوس على عرش البلاد .

قالت : سيقبلون به ملكا .. وقد عاش بعيدا عن بلاد أجداده .

قال بثقة : سيقبلون ؛ لأنه من سلالة زرارة الملك .. هو لو عاش هنا لكان الأحق بالتاج من

خالته سفانة .. هل من أخبار عنها ؟

قالت بغم : لم تكن علاقتي بها جيدة بعد عودتي من النفي .

قال : سمعت أنك ولدت ذكرا .

قالت : اضطررت للزواج .. وكنت وحيدة غريبة .. وقدر لي أن ألد ذكرا منه .. كان نبيلا رغم ماضيه الأسود .

قال مواسيا : الناس تتغير .

قالت : هل من مجال لرؤية الولد أم عليه خشية من الظهور ؟

قال : الأمر صعب .. والخطر ما زال عليه من أعوان الملك زرارة .. فلنصبر حتى يشب ويكبر ويستطيع الدفاع عن نفسه أيتها الملكة الأم !

قالت : أنت شجاع يا لؤي ! كانت شجاعة منك أن تقبل بالزواج من ابنتي في تلك الحال المؤلمة وأنت ابن الوزير !.. لقد خشيت عليك القتل من الملك .

قال بأدب : الله الحافظ يا مولاتي ! كان علينا أن نتزوج ، وكانت هي شجاعة .. وقبلت المغامرة .. وأنت معها ، ووافقت على زواجنا ، وإغضاب الملك ؛ لكننا فشلنا في إعلان الزواج أدركنا الوقت ، ولم نستطع إقناع الملك، وظل على عناده ، وكرهه لزواج بناته .

مسحت دمعات سالت على خديها وقالت : لكنها ماتت ـ رحمها الله ـ ماتت مسجونة مظلومة محرومة من حضن وليدها وإرضاعه .

قال الأمير بحزن : غفر الله للملك .. لقد مات أبي مهموما من أجلها ..وأبى الصلح معه إلا بعد العفو عنها ؛ لكن سبق الموت الجميع ..ولم يحب أبي استخدام القوة ضد والدها ..إنه أبوها .. وكان يخشى الفتنة الكبرى بسبب هذا الزواج الغريب ؛ ولكن سيكون ولدها الملك في قابل الأيام والزمان .

قالت : عساه شجاعا.

قال : هو من ناحية الصورة شبيه بها .. وسيكون ملكا عظيما بأذن الله .. لمست الشوق عند

السادة لعودته فارسا مقداما بطلا ؛ بل يفكرون بتزويجه قبل عودته فهم يدبرون ذلك .

قالت : علمت أن حفلة ستقام على شرف عودتك .

قال : أتحبين الحضور يا ملكة الزمان ؟

قالت : ما رأيك أنت ؟ أنا لما عدت للمدينة لا أتصل إلا بعدد قليل من النسوة .

قال : إنهم يريدون تكريمي ؛ لأنني والد الملك القادم .. وليتعرف الأمراء الصغار على عمهم وقريبهم وأولاده وزوجته .. ووالدي هو الوزير الكبير أوس صاحب الحكمة والقوة المعروف لك .

قالت : إذا رغبت بالحضور أرسلت لك خادمتي .

قال : أنا رهن الإشارة .. فأنت حماتي التي لا تنسى .

قال : كيف حبك لابنك ؟

قالت : سيكون بطلا ـ إن شاء الله تعالى ـ عدت أيها الأمير ووجدت ابنتي بانة قد اختفت ولم تظهر لليوم ، ثم خلود .. وها هي سفانة تلحق بهنّ مدعية حبها لأبيها الذي حرمها من الزواج .. تركت الحكم من أجل حبها كما تزعم لأبيها .

صاح الأمير : لعنة الله على ذلك المنام .. أين ذهب الأمير غياث ؟ رشا الحرس واختفى اللعين

قالت : شيطان رجيم .. لقد كان الملك مخدوعا به ومتعلقا به ، لم أحبه يوما ..كنت أتعوذ من الشيطان ومنه عندما كان الملك يدعوه لمائدته .. كان ينظر إليّ نظرات كلها حقد وحسد .

قال : ملعون لعله هلك .

قالت : الآن اسمح لي بالانصراف .. وشكرا على هذا اللقاء الطويل .. وشكرا لزوجتك .. وبارك الله فيكم وبأولادكم .

وغادرت عزوف الحجرة يرافقها الأمير حتى ركبت عربتها ، وتحرك الجواد بها وبخدمها إلى خارج القصر .

ولما عاد قالت زوجته : أهذه أم الأميرة المسكينة ؟

قال : نعم ، وستكون جدة الملك ؛ ولعل ذلك تعزية بموت ابنتها في سجن زرارة .

قالت : إنها ما زلت حسناء شابة !

ضحك وقال : ترملت منذ زمن يسير .. لقد نفيت بعد طلاقها من الملك زرارة .. كان زواج أمامة شؤما علينا .. وإذا رجع ابننا سيتحول الشؤم إلى نعمة ورحمة .

رفض الملك زرارة زواج ابنته بانه من الأمير كساب ابن أحد قادة الجيش الكبار والقدامى بسبب المنام المشهور .

كان الأمير كساب في زيارة لخالة مريضة ، فرآها وأعجب بها ، وهي أعجبت به وبادلته الإعجاب ، وأصبحا عاشقين من نظرة واحدة يلتقيان خفية في ضواحي وأطراف المدينة والغابات ، وخطبها والده القائد صلاح من الملك ، فرفض أي زواج لبناته ، ولم يقبل أي شفاعات في ذلك .

وكان المنام قد انتشر وشاع في البلاد والعباد خاصة بين الأمراء والسادات ، ولما تزوجت أمامة سرا كانت بانة تعرف بهذا الأمر ، فأخذت هي وكساب يخططان للزواج سرا ، ووجدا أن الأفضل لهما الهرب من المدينة ، والزواج في بلدة أخرى فإذا هما يريان ابن الوزير لم يستطع إشهار زواجه فكيف هما ؟ فخرجا خفية ، وبعد أن ابتعدا عن المدينة تركا الجوادين لابن السبيل ، وخلعا ملابسهما الثمينة والقيا بها في إحدى الوديان ، وتزينا بزي البسطاء من الناس.

وكان القائد صلاح أخبر من ولده بأمره ، وأعلمه بزواج ابن الوزير لؤي من الأميرة أمامة سرا وبعد تردد سكت عن أمره ، وتظاهر بأنه لا يعلم شيئا ، ودعمه بالمال والمجوهرات ، وكان هروبهما بعد انكشاف أمر أمامة ولؤي .

وكان الأمير كساب قبلا قد ذهب لإحدى المدن ـ وهي جلال الدين التي تبعد عن بلدته اللؤلؤ مسيرة ثلاثة أيام بلياليها جهة الشمال الغربي ـ واشترى بيتا فيها ، وزعم لجيرانه أنه سيسافر والعودة بزوجته .. وفعلا أتى بها كما خططا ودبرا ، وبعد أيام ذهبا للقاضي ، وعقدا

زواجهما الشرعي بشهادة القاضي وأحد معاونيه وولاية القاضي ؛لأنهما غريبان لا أهل لهما في المدينة .. وكان كساب تسمى بإبراهيم وبانة بشهد .. واشتغل كساب بالتجارة ، وبعد حين تم فتح دكانا في السوق ، واشتهر بالتاجر إبراهيم .. وكانت حياته بين السوق والبيت .. وتعرف على بعض الجيران في السوق والبيت .. وكان يتعامل معهم بحذر وإخفاء مسقط رأسه وسبب عيشه الحقيقي في هذه المدينة .. وأنجبت له الأميرة شهد ابنه الأول ، وسماه حماما طابت لهما الحياة فيها ، وكانا يتحسبان ويتحسسان لمطاردة من الملك زرارة ، ثم تفاجا بعد سنين بمجيء الملك زرارة منفيا أو مهاجرا للعيش في بلاد الملك حميد ، ومعه ابنته سفانة .. وحمدا الله تعالى بأنهما لم يتقربا لذوي السلطان والحكم .

وكان الشاب يلتقط أخبار البلد من التجار بسرية وحذر .. فسمع بخلع الملك وفرار خلود شقيقة زوجته مع أحد الناس .. وتربع سفانة ملكة ، وتنازلها عن العرش .. لذا تفاجأ من خروج الملك من بلده لعند الملك حميد ، وكل ما يسمعه ينقله لأم حمام .

فقالت : أبي هنا !

قال : نعم ، يا شهد !

قالت : هل من خطر على حياتنا ؟

قال : لا أعتقد ذلك .. فهو قد ترك الحكم ، ولم يعد حاكما .. وهو رجل ـ كما أخبرنا ـ مريض وضاق به المقام في بلادنا ، وإلا ما هاجر .. هذه تصاريف القدر .. ومعه الأميرة سفانة .. فالتجار ينقلون أنباء المدن والسادة والقصص .

قالت : المهم سلامتك يا سيدي إبراهيم !

قال : لا أحد يعرف أننا من أبناء تلك المدينة .. ولليوم لم نلتق بأحد يعرفنا ؛ لأن أكثر من يتردد هنا التجار وأولادهم .. ونحن كنّا بعيدين عن التجارة بأشخاصنا كان الوكلاء والخدم يقومون بالعمل .

قالت بحسرة : أبي يعيش هنا ولا نستطيع مقابلته !

قال : لنا سبب .. ولو رخص لنا بزواج ما تشردنا واختفينا .. لقد جمع الحب بيننا .

قالت : لقد بذلت أمي كل جهد ؛ لتصرفه عن المنام اللعين .. وكيف يقتل حفيد جده بدون سبب ؟ وها هو قد كبر ، ولم يظهر حفيد ليقتله .

قال : ولما زارني أخي نبيل منذ زمن يسير .. وقد رافق إحدى قوافل بلادنا .. قال ما زال الوليد مجهول الإقامة .. وينتظرون بلوغه ؛ ليعود ويحكم البلاد .

قالت بحزن : أذكر أنك قلت لي ذلك ـ غفر الله لك يا أبي ـ دفعتنا لنتشتت في بقاع الدنيا .. طلقت أمي ونفيت وحيدة .. وماتت أمامة ، ولم تفرح بزوجها ، ولا بابنها ، ماتت في حبس أبيها الذي تهاون في علاجها .. وهي في حالة وضع .. وخلود اضطرت أن تهرب وتختفي .. وسفانة تركت الزواج من أجل رغبة أبيها ـ سامحك الله أيها الأب ـ سامحني يا كساب على هذه الذكريات والجروح .. أهناك أخبار عن أمي ؟

قال مجيبا : كما تعلمين أخبر أخي بعودتها للبلاد .. وعفا عنها الملك مرارة عمك .. وعرف الناس أن الملك نفاها ؛ لينصب لنا فخا إذا أقدمنا على زيارتها .. فتزوجت في الغربة ، ثم ترملت قبل العودة لأهلها .

قالت بشوق لأمها : كم أنا مشتاقة إليها يا سيدي الشجاع ! أليس هناك حيلة نزور بلادنا ، ونرى أحبابنا ؟

قال : الحيل موجودة .. والخطر موجود .. وأنا مثلك في شوق لأهلي ووالديّ .

قالت : ألا يصفح عنا العم ؟!

قال : هو يصفح ؛ لكن الخطر من الحاقدين من أتباع الملك الوالد .

قالت : الملك أصبح هنا .. وسفانة المسكينة هنا!

خلود

كانت الأميرة خلود كأختيها تشعر بظلم من والدها من عدم تزويجها ، وقد بلغت سن الزواج والرشد وترى الأميرات والقريبات يتزوجن ويفرحن بأطفالهن .. ورأت مغامرة أختها بالزواج دون علم الأب ، وموتها بعد الولادة .. ورأت هرب أختها بانة تتزوج من شاب ، وتهرب من البلد ، فوقع في نفسها فعل ذلك ، والخروج من المدينة ؛ ولكن أين الزوج والعريس ؟ وكيف ستجده ؟ لابد من جهد ومغامرة .. فمعاداة الملك ليست كمعاداة شخص من العامة .. فمخاصمة الملك تعني الموت والدمار .. ومصاهرة الملك ليست كمصاهرة غيره من أين ستأتي بابن وزير وأمها قد طلقت ونفيت ؟ وأختها وجدت أميرا وهربت معه .. ولاحظت سخط والدها على الوزير وأتباعه وحتى أسرته .. لم تكن العلاقات بينهم على ما يرام .. ولولا أن لؤي ابن الوزير لسفك دمه .

سمعتها جارية من جواريها ذات مرة تتمنى لو أنها تستطيع العمل مثل بانة بأن تجد زوجا تهرب معه .. وذكرت مثل ذلك بقصد أو غير قصد في أحد الحوانيت التي تبتاع منها الثياب الجديدة ، وجاريتها نور تردد ذلك.. فتشجع أن يساعدها في ذلك التاجر عمرو بن سنان لما سمعهما ترددان ذلك وحزن على حالها ،.. وهو يعلم الظلم الذي وقع على بنات الملك بسبب ذلك المنام الشهير حتى أن بعض الناس تمنى ظهور الحفيد؛ ليخلصهم من الملك وكهنته .. وأحب التاجر عمرو بن سنان أن يغامر لما حدثه ابن أحد التجار من مدينة أخرى برغبته بالزواج من فتاة غنية من بنات بلده .. فحدثه التاجر عمرو عن ابنة الملك ، ورغبتها بالزواج ، والخروج من البلد كأختها بانة فتحمس الشاب لهذه المغامرة الجريئة .. فالتقت الأميرة به في المتجر بعد أن أخبر التاجر الجارية .. فجاءت الفتاة والتقت بالشاب سرا .. وعرفها على نفسه والمال الذي يملكه في بلده .. وتواعدا على اللقاء في رحلة أخرى ؛ لتفكر بالمغامرة جديا .. وأرسلت جاريتها معه إلى بلده ؛ لتزداد معرفة به وبطباعه .. فوافق الشاب على ذلك زاعما أنه اشتراها .. وعادت الجارية بعد أشهر تقدم معلوماتها للأميرة عن الشاب .. فأثنت عليه خيرا

وحضر للمدينة .. والتقى بالأميرة وزعمت الجارية للجواري أنها استأذنت الأميرة لزيارة أهلها وأمها واختفت .

ورتبت الأميرة مع الشاب خطة الاختطاف والهرب ، وكانت حيلتها بالهرب أثناء رحلة صيد رافقت الجارية الشاب إلى الغابة ، وبينت له خطة الأميرة .

وخرجت الأميرة بعد أن رتبت الأمور ، وقد اختفت جاريتها وسبقتها لبلاد الملك سعيد مدينة الرحمة ، وأثناء رحلة الصيد انتقلت خلود إلى حيث تواعدت مع الشاب ، وكان في انتظارها على جوادين أسرع من الريح ، وتخلت عن جواد بلادها ؛ ليظن من ظن أنها خطفت عندما يجدوه وحيدا ، وأنه هرب من خاطفيه .. وظلا يركضان حتى وصلا مدينة الشاب ، وكانت خلال الطريق قد تخلت عن ملابسها الملكية ؛ لتبدو أمام من يراها ؛ كأنها من عامة الناس .

ورتب الشاب أمر الزواج من الأميرة على أنها فتاة من بلاد الملك زرارة ؛ وأنها عن طريق التاجر عمرو بن سنان المعروف للكثير من تجار البلدة ومن أقاربه .. جرى احتفال بسيط للزوجين ..وأصبحت الأميرة زوجة للشاب محمد بن نجوان ، وتسمت بسلمى ، وتحقق لها ما تحقق لأخواتها ، وأرسل الشاب رسالة للتاجر طمأنه على زواجه ، ونجاح الخطة .

وفقد الملك بناته بسبب تشبثه بمنام ، فسره له غياث تفسيرا ماكرا ؛ ليصبح الملك ألعوبة بين يديه .

وكان والد الشاب المعلم نجوان أحد كبار تجار مدينة الرحمة يعلم حقيقة من هي زوجة ابنه ؟ وكان يدعي أمام المعارف بأنها قريبة للتاجر عمرو المعروف لتجار مدينتهم ، وكان يكرمها غاية الإكرام رغم الخطر المحدق بهم ؛ ولكنه يأمل أن تتحسن العلاقة مع الملك ، ويصبح زواج ابنه مفخرة لأهل المدينة وسادتها في مستقبل الأيام ، فهم أصهار أحد الملوك العظام في ذلك الحين والتاريخ .

لذلك تعجب أبناؤه وأقرباؤه من بنائه بيتا كبيرا وجميلا لابنه محمد ، وخصه به دون الآخرين ،

خصه دون سائر إخوته الأكبر منه الذين هم بنوا بيوتهن بأنفسهم .. وكان يزعم لهم أنه تعهد للتاجر عمرو وأهل البنت بفعل ذلك .

وكانت الأميرة مسرورة بزوجها ، وتراه ملك الدنيا ، وقد خاطر هذه المخاطرة التي كانت قد تكلفه حياته وما زالت .. الخطر لم يذهب كليا رغم بعد المدينتين عن بعضهما البعض .

وحلت عليها السعادة أكثر عندما ولدا طفلتهما الأولى ، وقام الجد بذبح الذبائح الكثيرة على غير العادة حتى أن بعضهم قال مستغربا : والله لو أنك مزوج ابنك بنت ملك البلاد ما فعلت ذلك . فأجاب أنه وعد عمرو أن تكون قريبته ؛ كأنها ملكة في بلادنا .. وفرح بالمولودة ؛ كأنها أول حفيدة له مع أن هذا الابن من جملة آخر الأبناء .

احتفل الأهل والجيران بحفل كبير على غير العادة بالطفلة أسماء ، سموها على اسم والدته .

وكان الناس في دهشة وعجب من كرم وسخاء التاجر نجوان مع كنته الأخيرة وولده محمد .

أما هو فهو يعرف ابنة من يكرم ، فهو صهر الملك زرارة بن نعيم ، وإن زرارة إلى موت وزوال وسيعرف الناس ابنة من نكح ابنه الصغير .

وكان الزوج يقول لزوجته : بارك الله لك بالمولود يا أميرتي سلمى . سماها سلمى أمام أهل مدينته .

قالت بسعادة غامرة : مبارك لنا جميعنا .. أرأيت ما أجملها ؟!

قال : أنت أجمل منها !

قالت : شكرًا .. لم ولن أنسى شجاعتك ومخاطرتك بحياتك من أجلي .. وأجل سعادتي أن أعيش كأي أنثى خلقها الله ؛ لتكون زوجة وأما .. كان الخطر عليك كبيرا من رجال أبي !

قال : عجبت من منام أبيك ؛ ولكنه هو الذي أسعدني باللقاء بك ؛ لتكوني حبيبتي وحليلتي.

قالت : هو القدر .. كان ساحر أبي شيطانا ، فسر منامه بطريقة خبيثة ، ومنع أبي عنا الزواج خشية الحفيد .. وها هم الأحفاد يهلون ..فأختي الكبرى ولدت طفلا .. وأخفاه الوزير بسرعة الريح .. ولابد أن أختي الأكبر مني سعدت مثلي بذريتها

وعانقها بحب ووله ، وسمعها تقول : ألم تخلق النساء من أجل إسعاد أنفسهن وأزواجهن ، ومن أجل الولادة والأبناء ؟!

قال : نعم ، هذا أحد الثمار العظيمة للنكاح الأبناء والبنات .

كان التاجر نجوان محبا لزوجة ابنه محمد على غير العادة ، ويكثر من التردد عليهما متفقدا لأحوالهم ، معانقا لحفيدته أسماء حفيدة الملك زرارة ، مطمئنا على راحة وسعادة الأميرة .

وكانت الفتاة تكن له الاحترام والشكر ، ولا تظهر له أنها أعلى مقاما منه ، وأنها ابنة ملك ، وكان معجبا بتواضعها ، وحسن أخلاقها ، ومقدرا شجاعتها على هذه المخاطرة الكبيرة .



سفانة في بلاد الملك حميد

استقر الملك زرارة في مدينة الملك حميد ، واستقر في قصر من قصور الضيافة اسمه الغمام ، ووجد الاهتمام والراحة والحريّة في الخروج للغابات والمراعي بصحبة ابنته التي أوقفت حياتها على راحة أبيها .

وكانوا يستقبلون الزوار من بلادهم وأصدقائهم دون معاناة ورفض ، وكذلك رجال البلاط في هذه المدينة من الرجال والنساء .. فعلاقات المدينتين كانت علاقة قوية ومميزة ، حتى أن الملك زرارة كان يرسل الجنود للدفاع عن المدينة عندما تتعرض لغزو واعتداء ملوك وأمراء المدن الأخرى نتيجة أحداث وصراعات تنشب بينهم .. وجيش بلاد زرارة من الجيوش المعروفة بالقوة والبسالة بالدفاع عن بلادهم ومن يتدخلون لحمايته .. فلهم هيبة معروفة وشائعة بين المدن والملوك حتى أن بلادهم لم تعد تتعرض لأطماع أحد منذ أكثر من خمسين سنة .

لذلك كان الملك حميد مسرورا بوجود الملك زرارة في بلاده ، فهو مقابل قبوله هذا النفي الاختياري للملك اعتقد أنه قوّى علاقته بالملك مرارة شقيق الملك ؛ ولكن الأمور لا تسير حسب شهوات الناس وهواهم .

كان يتردد على قصر الضيافة الغمام الأمير شداد بن عُمير بن حميد أي حفيد حميد ؛ لتفقد الملك وابنته ، وتقديم حق الضيف لهم ، والجوار ، وكانت قد مضت سنة على هذه الخدمات والزيارات ، ونتج عن هذا التردد المتكرر إعجاب الأمير شداد بابنة الملك ، وطمع بها زوجة .. فأعرب لها عن إعجابه بها ، وهواه لها ، وبجمالها وخلقها ، وأنه مستعد للزواج منها ،والتقدم لوالدها طالبا يدها إذا قبلت به فأخبرته أنها لا مانع لديها من الزواج ؛ إنما المشكلة مع أبيها الملك الذي خسر عرشه من أجل ألا تتزوج بناته .

فقال متحمسا : دعي هذا الأمر لي ولجدي الملك .. وستكونين الزوجة الأولى والمقدمة على زوجتيّ .

فهو متزوج من أميرتين ، وهي ستقبل به قرينا إذا قبل والدها .

تحدث الأمير شداد مع والده الأمير عُمير بما اتفق عليه مع الأميرة سفانة ، ورأى أنها فرصة لزيادة وتقوية العلاقة بين البلدين ، وقبل الأب ذلك ، وقال الكلام الفصل لجده والملك زرارة فلما سمع الملك حميد رغبتهم ورغبة الأميرة . قال لهم : إن شقاء الملك وبؤسه رفضه زواج بناته لمنام رَآه وهو شاب صغير .

وترجى الرجلان الملك أن يتحسس ذلك ، وأن الأيام كفيلة بتغيير الناس والأفكار ، والأميرة لم تصرح بالقبول الصريح ؛ إنما تركت الأمر لوالدها ؛ ليقينها أن أباها سيرفض بقوة وشدة .

والشاب رأى لينها وسهولة الحوار معها قبولا وموافقة ؛ ولأنها أنثى فتحتاج للنكاح كسائر بنات حواء .

ذكره الملك زرارة بمنامه بعدما سمع رغبة حفيده شداد بالاقتران بابنته سفانة كزوجة وحليلة واعتذر له عن تدخله في هذا الطلب ، وهو ضيف كريم عنده ، وأن هوى حفيده وقع دون علمه ورغبته .

وقضى الملك بضعة أسابيع يفكر في أمر زواجها ؛ ولكنه في النهاية استسلم وقبل بزواجها ، واحتفلت المدينة بهذا الزواج احتفالا كبيرا حتى شاع خبره في المدن والبلدان الأخرى .

ورفض كل سادة وأمراء وأقارب زرارة مشاهدة هذا العرس ؛ ورفضوا الدعوات من الملك حتى الطفل الصغير ، واعتبروه شاذا ومؤلما وإهانة لهم ؛ لأنه لم يقبل بزواج أي ابنة له كل سنوات عمره الماضية ، ودفع سفانة لترفض الزواج من أبناء الأمراء من مدينتها .. وقد أثر هذا الرفض الشديد على نفسية وحياة زرارة .. وحتى أن الملك حميدا أحس بأنه أخطأ بمسايرة حفيده شداد في أمر هذا الزواج ، وضغطه على الملك اللاجئ إليه ؛ ولكن الملك رغم الألم لم يهتم لرفضهم والكلام الذي أرسل إليه ؛ لذلك قال والد الأمير شداد لأبيه : لم تكن مسرورا لهذا الزواج يا مولاي الملك !

قال : تسرعنا يا عُمير .. نسينا أن الملك لا حيلة له ولا قوة في بلاده .. وخسرنا الوزير غالب

ومدينته ..كان علينا بعث رسول يشاورهم قبل الزواج .. لقد طلبها أمراء منهم .. ورفض والدها ؛ لكنه خجل منا لما قبلنا حياته عندنا ..وإن يتظاهر أنه غير مهتم بقومه ..إنه منهم .. وملك كبير كان عندهم .

قال : هل من إصلاح ذات البين بيننا وبينهم ؟

قال : ماذا ترى لإصلاح ذات البين ؟ وتحدث الوزير وقال : الأيام دواء للجراح والأخطاء .. نحن لم نحسن تقدير الموقف أيها الأمير !

ـ نعم يبدو ذلك.. أنا رأيت أن ذلك يقربنا إليهم .

وقال حميد : وهذا ما جال في فكري أيضا .. فإذا تعرضنا لغزو من اليوم فصاعدا فعلينا ألا نطمع بمساعدة منهم لقد تسرعنا فعلا .

ـ هل تريد أن يطلقها ابني ؟

ضحك الملك : لا ، الطلاق سيزيد الأمر تعقيدا .. ولا يحل الجرح ..كانت علاقتنا أفضل قبل استقرار زرارة بيننا .. نعم، قبلوا مجيئه على مضض وكره .

قال : أنرسل سفارة للملك مرارة والوزير غالب ؟

فكر الملك قليلا ثم همس : فكرة طيبة ! نعم ، جهز نفسك ؛لتكون على رأس هذه السفارة ، ودون علم زرارة الملك وابنته وحتى زوجها.

قام الأمير عُمير بالتشاور مع الوزير بأمر السفارة والاعتذار للملك مرارة ووزيره غالب .

رحب الوزير بهلول بن فراس بالفكرة ، وتحولت إلى واقع ، وجهزت الهدايا والقافلة ، وتحرك الأمير عُمير إلى بلاد الملك مرارة ، واستقبلت السفارة كما تستقبل الوفود والضيوف ، وتحدث القاضي المرافق للسفارة مع المضيفين ، واعتذر عن تعجلهم بالزواج دون مخاطبتهم ، وسماع رأيهم ، وتأسف لهم بأشد عبارات الاعتذار والأسف .

فقال الوزير غالب :الأسف اليوم لا ينفع ، ولا فائدة منه .. نحن خلعنا البنت عن العرش لرفضها الزواج بدون موافقة أبيها .. وكنا قادرين على إجبارها على الزواج .. لقد عرضنا

عليها ثلاثة أمراء شبان .. أحدهم ابن الملك وابن عمها وابن ابن أختي .. ولماذا وافق على زواجها بعد كل هذا الرفض ؟! فأنتم قبلتم مقامه في بلادكم ؛ وقبلنا بذلك لقوة الصداقة بين بلدينا .. وشرطنا عليه إن مات في المنفى ألا يدفن في ديارنا ؛ ليتراجع ويبقي في قصره .. واعلموا نتيجة لهذا التراجع في موقفه من زواج سفانة ستضعف العلاقة بيننا للأبد .. وسنوقف التجارات بين بلدينا ؛ ولعلها توقفت من طرفنا .. وسنمنع بلادكم من ذلك ؛ حتى لو طلقتم الأميرة فهذا العمل إهانة لنا ولكرامتنا .. ولو شاورتمونا سلفا ما قبلنا زواج الملكة .. إنها ملكة وابنة ملك .. ما كان لها أن تتزوج خارج بلادنا ـ كما هي تقاليدنا ـ بنات الملوك عندنا يتزوجن هنا إلا القليل لظروف معينة .

تكلم القاضي ، وذكر بحسن العلاقة بين المدينتين والتعاون بينهم، فقال الملك مرارة : كلام الوزير هو الحكم .. وانتهى ما بيننا من حسن العلاقات والجوار وحتى التجارة ستضعف بيننا وبين بلادكم ؛لأن الأذى لحق الجميع .. واعتقد أن الزيارة قد انتهت .

وترجى القاضي والأمير ؛ ولكن الملك أمر بأنهاء الصداقة الحسنة بين البلدين ، وغادر الوفد خائبا وفاشلا من تضميد الجراح ، وترميم العلاقات .

ولما علم الملك حميد بفشل السفارة عض على أصابعه من الندم ، لقد خسر حليفا قويا أمام الغزاة والطامعين في خيرات بلده ، واستوعب شدة غضب القوم .

وتحدث الحفيد عن الطلاق أمام جده ، فقال الملك: يا بني لا فائدة من الانفصال ؛ ربما يزيد الهوة اتساعا .. أخطأنا في حق القوم وعدم اطلاعهم على الأمر ، ولو خفية .. فافرح بزوجتك وأسعدها ، فهي صارت منا ؛ ولعل الأيام تحدث أمرا بيننا وبينهم .. فكثير من بناتنا أمهات عندهم .. وهي ستعيش كل حياتها هنا بهذا الزواج .. ولن يسمح لها بالعودة إذا طلقت .. لقد أخطأنا وعلينا أن نتحمل خطأنا وتعجلنا بمثل الزواج

قال : أنا أعتذر عما جرى .

بينما الملك زرارة يعيش وحيدا بعد رحيل ابنته ، وقد استسلم لزواجها من حفيد الملك حميد ،

وقد رفض قومه حضور الزواج ورغم الألم الذي اعتصره لم يبال برفضهم ومقاطعتهم لزواج ابنته التي كانت حزينة لعدم وجود أمها وأهلها معها .. وقد رفضوا زواجها لما علموا بالأمر الواقع .. وقد علم بالسفارة التي ذهبت بلاده للإصلاح .. وخابت في مسعاها كما أخبرته ابنته التي علمت بالأمر من زوجها الأمير شداد .. وبينما هو في وحدته عنده خدمه دخل عليه الكاهن السابق غياث متنكرا بصورة حطاب ، ولكن خدمه يعرفونه حق المعرفة لما عرف بنفسه ومن صوته .. لما عرفه الملك أمر بإخلاء الحجرة من الخدم ، وعانقه ورحب به وقال جذلا : أين ذهبت ؟ وأين هربت ؟! لقد فرحت لهربك .

قال : خشيت الموت أثناء الحبس ، فرشوت الحرس ، وهربت .. لم تعد لك قوة لحمايتي يا مولاي!

قال بحسرة : لم تكن لي أيام عز ملكي .. الملك كان الوزير .. ما أخبارك ؟

قال : أعيش متخفيا .. أعمل منجما في الأسواق .. وأضرب الرمل والخط .. وأعمل حطابا أثناء الترحال بين المدن .. لم أستقر بأرض بعد يا مولاي الملك ! ولما علمت بوجودك عند الملك حميد رحلت إليك كما ترى .. فجئت مسلما ومباركا خروجك ؛ ولكني حزنت لتزويجك ابنتك مكرها بعد أن تركت الحكم والملك حتى لا تنكح .

قال مبينا ضعفه : ماذا أفعل يا غياث؟ طمعت بمجاورة صديقي حميد الملك ؛ ولكن حفيده رأى البنية وهويها .. فخجلت من كسف الملك وشفاعته بعد أن قبل عيشي في بلده على غير رغبة قومنا .. وقد كبرت سني ورق عظمي .. ولا أظن أن أعيش حتى يكبر حفيدي .. وبناتي كلهنّ تزوجن رغم عني.. ورأيت أن للبنت هوى بالزواج من الأمير شداد .. فكان عليّ أن أقبل .

تظاهر غياث بتفهم ضعف الملك فقال : لا بأس .. نسأل الله لك العافية أيها الملك .. الأيام تقسو علينا بعض الأحيان .. دمرنا الوزير أوس ، ولم نستطع النيل منه رغم قوتنا وبأسنا ؛ ولكن هل تعلم أيها الملك السعيد أن زواج ابنتكم من حفيد الملك خرب العلاقات بين الملك

هذا وشقيقك مرارة ؟

قال : لم أفهم !

أدرك غياث أن الملك لم يعرف نتائج زواج ابنته من أمير غريب ، من غير وطنها الأول ، فوضح للملك الأمر .

فقال : تحدثت بشيء من ذلك سفانة .. إذن إذن قومي غضبى منا .. ولهذا ذهبت سفارة بقيادة كبير القضاة لمقابلة الملك .. أنا زياراتي لديوان الملك متباعدة ولم أعر رفض قومي أي اهتمام .. نحن خرجنا .. ولن نعود إليهم حتى شرطوا عدم دفننا في بلادنا إذا متنا هنا .

قال : حياة النفي صعبة .

قال : سنعيش في بلادنا كسجناء يا غياث .. ففضلت الخروج على البقاء حبيس القصر .. هنا نخرج للبساتين والرياض والولائم والأفراح .

قال غياث : كان عليها أن تبقى ملكة ، وتتزوج هناك يا مولاي ! ما دمت أنك قد تخليت عن المنام بعد زواج بناتك دون إرادتك .

قال مبررا أمره : لم أتخل عنه ،هو تخلى عني .. الكبر يا غياث والسن .. إني حزين بما حل بي من زوجتي وبناتي .. هل أخطأت في حقهم .. فكلهن تزوجن رغما عني .

قال بخبثه المعهود : أتمنى أن لا تقتل على يد حفيد .. فابن أمامة ما زال مختفيا .. أهو حي أم ميت ؟ لا أعرف .. وعلمت بعودة أبيه من منفاه الاختياري ؛ ليعش تحت رعاية عمه الوزير غالب .

قال : سيكون الملك إذا ظهر .

قال غياث : نعم ، سيكون الملك عندما يظهر .. وهم كما علمت من بعض أعواني ينتظرون ويرقبون عودته ؛ ليعود الملك إلى سلالتكم حسب القانون المتبع .

قال : أنت تعرف هذه الأخبار من أعوانك رغم هربك .

قال غياث متعجرفا ومتبجحا : نعم ، أنا لي أصدقاء وأتباع في عدد كثير من المدن .. ونتعاون

ونخدم بَعضُنَا بعضا واعلم أني قد تزوجت جاريتي سمات التي كما تذكر وعدتها بالزواج عندما أرسلتها عينا على عزوف لحقت بي بعد هربي من المدينة ونكحتها وولدت لي طفلا وطفلة .. ضحك الملك عجبا وقال : أنت أب اليوم يا غياث !

قال : نعم يا مولاي ! ولكني ذليل حقير ، ومطلوب دمي في بلدنا العزيز .. بعد أن كنّا سادة البلدة أصبحنا هاربين خائفين .. ذهب العز بذهاب ملكك يا سيدي الملك! لو ظلت سفانة ملكة كنت آمل بعد زمن أن تدبر أمر العفو عني .

قال : وهل يسمحون لنا بالعودة بعد زواج سفانة ؟ ذهب الأمل .

قال : الأيام تتغير .. والأفكار تتغير .. ما رأيك أن ندبر أمرا ؟ .. وتعود ملكا على البلاد بالقوة

قال مندهشا : كيف ؟!

قال : أبحث لك عن حليف كما أردنا أن نفعل ذلك ذات زمن مع الملك نواس .. أبحث لك عن ملك طامح بتكبير ملكه .. ويقاسمك البلاد ومالها .. وتنتقم من كل الخصوم .. ويخضعوا لك بكل قوة .

قال مسايرا حقد غياث : ومن الملك الذي يقبل بذلك ؟!

قال بمكر : المهم إذا وجدت لك مثل هذا الطامع تتعاون معه وتطالب بتاجك المغصوب .. وتنال نصف الحكم .

قال : بعد كل هذه السنين من العزل والصمت . قال : المهم الإرادة وليس العمر .

قال الملك : أفكارك عميقة وعقيمة يا غياث !

قال مشجعا : المهم من حيث المبدأ أن توافق لأسعى بين الملوك .

قال : وأعود ملكا على المدينة . قال غياث الخبيث : ومعك جيش قوي، وشريك قوي .

قال : إنها مغامرة كبيرة وخطيرة !

قال : سأتركك تفكر في هذا العرض ؛ فإذا وافقت .. سأخبرك بتدبيري وتفكيري المهم أن تتشجع وتقبل الانتقام .

تحذير

رحل غياث بعد لقائه بالملك ، وبعد أيام من رحيل الكاهن تفاجأ زرارة بزيارة الملك حميد ، وبعد أن اطمأن على حاله وعافيته ، قال : علمت من زوج ابنتك شداد ، وهو علم من زوجته أن الكاهن غياثا كان في قصرك زائرا .

وكان الملك حميد يعرف غياثا من خلال زياراته لصديقه زرارة في بلده . وقال : أليس هو الذي كان يمنعك من تزويج بناتك حتى فعلن ما فعلن أيها الصديق وهو الذي تسبب في خلعك عن الحكم في تفسيره لمنامك المشهور .

قال زرارة بحيرة من زيارة حميد : نعم ، وأذكر أنني عرفته لك في أكثر من لقاء .. وهو كان محبا لك ومعجبا بحكمك .. وهو كما تعلم ورثته عن أبي شابا فطنا ومنجما ذكيا حتى صار رئيس الكهنة في القصور الملكية والمدينة .. وهو صديقي ورفيق عمري .

قال : لكنه يا ملك الزمان هارب من السجن ـ كما تقول سفانة ـ وإنه شيطان كما يصفه العوام

قال : الحسد أيها الصديق الحسد ! كان له حظوة في البلاط وعندي .. وهو صديقي المخلص الوحيد للعرش ، لم يكن عدوا لي ، ولا لأبي من قبلي .. فحسده الناس والسادة على هذه الحظوة .

وأخذ يسرد على مسامع الملك قصصا من صداقته الطويلة للكاهن ، ولما سأله عن سبب مجيئه إليه بعد مرور أكثر من سنة على وجوده بينهم .

فقال : إنه مجرد زائر .. لما سمع عن رحيلي إلى هنا ومغادرتي بلادي جاء ليطمئن عليّ وعلى سعادتي .

قال حميد : ولكنه ـ كما علمت ـ يا صديقي الملك أنه رجل شرير ، ويحب الفساد .. وأخاف أن يؤذيك ، وأنت في مثل هذه السن .. فعليك أن تنسى بلادك والطمع بالعودة للملك .

صرخ الملك زرارة بغيظ وقال : أنت تضع عليّ الجواسيس .. هذا لا يجوز أيها الملك حميد .

نفى التهمة وقال : أبدا أيها الصديق .. أنت صديقي قبل أن تكون صهري ؛ ولكني علمت أن

الرجل شرير وحقود .. وتحدث إليك عن تقسيم الملك والانتقام .. نحن لا نتجسس عليك .. هؤلاء الحرس ليسوا جواسيس ـ كما تعلم ـ لأنهم لا يدخلون القصر .. فمهتهم حماية حياتك فحياتك مهمة لنا ؛ لأنه إذا أصابك مكروه وأذى سيغضب قومك ويتهموننا بالتقصير في حمايتك .. فأنت ملك ولو كنت بدون رعية .

قال بحدة : أنا لا أفكر بالعودة للملك .. إنما هو كلام يخرج للمواساة ورفع الهمة والإحباط ؛ إنما هو من باب الشفقة يخرج أيها الصديق .. ومن باب الحزن والتعاطف .. ولم يكن كلامنا سريا وخفيا .

قال : هذا رجل هارب من سجن بلادكم لجرم ارتكبه .. وأنت رغبت بالعيش بيننا لكرهك لقومك .. كما كتبت لي .. وأنك ضقت من مدينتك التي عزلتك عن الحكم ، وقبلنا حياتك هنا .. لكن لا يجوز لك التآمر على بلدك من بلدنا يا صديقي العزيز .. ولا أحب أن تزيد الهوة بيننا .

قال : لقد علمت بغضبهم من زواج ابنتي من حفيدك .. وفشل سفارتكم في الإصلاح بين المدينتين .

قال : هذا أمر لم نفكر فيه .. وقدره الله .. كنّا نحب أن تبقى العلاقات طيبة بيننا .. ولكنهم اتخذوا موقفا حادا منا .. والأيام ستزيل الأسقام والأوجاع .. فصدورنا واسعة .. المهم أيها الصديق العزيز نحن لا نتجسس عليك .. ولكن هذا الرجل علمنا أنه ماكر خبيث .. وهذا قالته ابنتك لنا بكل صراحة وشجاعة .. فهي خائفة عليك من مكره وحقده .. وكان يسبب لك الكثير من المشاكل مع الوزير أوس ـ رحمه الله ـ وتسبب في عدم زواج أخواتها ، وطلاق أمها بأفكاره الشيطانية .

قال بضيق : كانت تسمع كلام أمها وأعدائي .. هم يكرهونه ؛ لأنه كان يحبني .. وصديقي الوحيد في البلاد والمخلص لي .

قال :عليك أن تعلم وتذكر يا صديقي الملك أن قومك يرفضون عودتك لبلادك ولو جثة

وزواج ابنتك من حفيدي زاد الأمور تعقيدا مع أننا كنا نراه لمصلحة البلدين ، ولتقوية الأواصر بيننا بعد زواجها .

قال : حفيدك شجاع ! وبارك الله له في زوجه .. والمحيا محياكُم والمهات مماتهم.. أنا لا أحب أن ينقل هؤلاء الحرس والخدم الذي يحدث عندي.. وإلا استغنيت عنهم .. أنا لا أعمل ضد بلدي ، ولا بلدكم .. وليس كل ما يقال ينفذ .. فأنا لم أعد استقبل تجار بلدنا.

قال الملك حميد : للأسف قومك حرموا التجارة معنا أيضا .. ومنعوا تجارنا من المرور على بلادهم .. والأرزاق كثيرة والمدن كثيرة .. ولا يؤثر ذلك على تجارتنا ؛ لذلك قل أو اختفى زوارك .

قال : لقد تسبب هذا الزواج في عقد كثيرة!

قال : لا تهتم أيها الصديق ! الشاب تعلقت روحه بالفتاة .. وهي قبلت به .. فكان الزواج خير.. والأيام ستصلح بيننا .. هل تريد شيئا أيها الملك ؟

قال : المهم هؤلاء المحيطون بي لا تجعلهم جواسيس عليّ .

قال حميد : ليس هناك شيء نخشاه منك أيها الصديق .. لنضع عليك الجواسيس والعيون ؛ إنما هؤلاء الخدم سمعوا كلاما خافوا عليك منه .

قال : هناك الله يا ملك الزمان!

قال : بارك الله فيك .. وعش معززا مكرما بيننا .. ونحن لا نقبل قول الوشاة.

قال : أعلم ، وأعتب على ابنتي .

قال : هي تحبك ، وتخشى عليك من الكاهن وألاعيبه .

بانة وسفانة

وضعت سفانة مولودها الأول ، وكان ذكرا رائعا ، وفرحت به فرحا لا يوصف ا واحتفل والده به احتفالا بهيجا ، فهو حفيد ملكين ؛ ولكن الملك زرارة لم يحفل به .. فهذا أول حفيد يراه عندما قدمت به لوالدها؛ ليباركه وينظر إليه .

فقال لها ولزوجها بدون مبالاة لفرحهما وعواطفهما : أخشى أن يكون هلاكي على يده يا سفانة كطفل فرعون !

فتألمت من كلام والدها ومن سوء التشبيه ، وكذلك استأ زوجها ، ولزم الصمت ، وتجرع الألم لأن فرعون كان ملكا ظالما قاتلا للأطفال والذكور ، فسلط عليه موسى النبي ، ولم يقدم له الملك أي هدية ، أو تهنئة ، ولم يفرح به ، ولم يحاول حمله ومعانقته مع أنه مجرد وليد ضعيف ، لا يعرف خيره من شره .

فلما رجعا لبيتهما قالت معتذرة عن تصرف أبيها : ما زال أبي يعاني من ذلك الحلم مع أننا كل بناته تزوجنا حتى أمامة هلكت بسبب الزواج ، وبعد ولادتها طفلا ذكرا .. لابد أنه اليوم شاب صغير.

فقال شداد مواسيا : لا تحزني يا أميرتي من كلام أبيك .. فهو ما زال مرعوبا من ذلك المنام الذي رآه قبل عشرين أو ثلاثين سنة حتى أنه كان خائفا من حمله وتقبيله

قالت : أنت لا تزعل وتغضب من تصرف أبي بحفيده .. هو أول حفيد يعرض عليه يا شداد إنها عقدة المنام السيء .. أنا اعتذر عنه ، وعن هديته .

قال : حتى زوجته لم ترحب به .

قالت معتذرة : هي جارية تزوجها بعد عزله عن الحكم .

قال : أعتقها !

قالت : أعتقد .. وهي مخلصة له أقبل أن يتخذها زوجة .

قال : أصلح الله مولانا الملك .. المهم عندي أن تكوني أنت سعيدة بالمولود ، كما أنا سعيد .

قالت مبررة : أنا لم أرفض الزواج في بلدي أنا طاوعت أبي في رفض الزواج ؛ لأنني كنت مشفقة عليه يا شداد .. أختي الكبرى أمامة تزوجت دون علمه .. وبانة هربت مع أمير من بلادنا للتزوج .. وخلود فعلت مثلها .. ولا نعلم من تزوجت ؛ ولكن يبدو أنه غريب عن بلادنا .. ولما عزل أبي تألم قلبي عليه جدا .. فأحببت مطاوعته والتخفيف من الألم والحزن اللذين حلا به .

طرق الباب ، ودخلت خادمتها تخبر عن امرأة غريبة ترغب بمقابلة الأميرة .

فقال : امرأة غريبة يعني ليست من بلادنا .

فقالت الجارية : غريبة ؛ لأني أول مرة أراها تأتي إلينا .. تريد الحديث مع مولاتي الأميرة .

فالتفت لزوجته وقال : امرأة غريبة يا سفانة !

فقالت : دعيها تدخل ؛ لعلها تحتاج لمساعدة بمناسبة الولادة كما فعلنا مع بعض الفقيرات .

خرج الأميران من الحجرة إلى صالة البيت ، وكان الأمير قد أشار للجارية بإدخال الزائرة الغريبة .. وشاهدا امرأة تدخل ـ وهي تلبس ملابس ثمينة ، ولا يبدو عليها الجوع والفقر والضعف ـ ولما دخلت باب الصالة التي يُستقبل فيها الزوار

صرخت سفانة استغرابا وفرحا : إنها أختي بانة ! إنها أختي بانة ! وركضت إليها تحتضنها وتقبلها .

ـ سفانة حبيبتي .

وعرف الأمير من هي بانة ، فهم قبل وقت قليل ذكرا اسمها ، ولما تركت الأختان العناق والتقبيل وقلت الدموع والشهقات قال سفانة مشيرة للأمير : زوجي الأمير شداد.

أحنت رأسها له وقالت : حيَّاك الله وبياك أيها الأمير إني بانة بنت الملك زرارة النزيل في دياركم .

ابتسم لها وقال : أعرف .. مرحبا بك في بيتنا .

وغادر الأمير البيت ، وانصرفت الخادمات يعددن طعام الغداء ، وتشاكت الأميرتان همومهما

لبعض ، وتذكرن أيام الصبا وحالهن .

وقالت : لما علمت بوالدتك أحببت المجيء إليك ورؤيتك والسعادة برؤيتك ومعانقتك .

قالت : شكرًا .. آه ! أنا كنت بشوق لك ولخلود .. أنا سعيدة بمشاهدتك .. ألك ذرية ؟

قالت : ثلاثة أطفال .

قالت : أكيد سعيدة بهم .. وكساب!

ـ نعم الرجل .. وأنت كيف حالك ؟

ـ بخير .. أبي يعيش هنا .

قالت : أعلم ؛ ولكن لن أذهب إليه .. سأعود لمدينتي .

قالت : أين تعشين ؟

قالت بحرج : اعذريني يا سفانة ! نحن غيرنا بلادنا وأسماءنا .. وتركنا الإمارة ؛ لكننا نعيش بمدينة قريبة من مدينتكم .. فلما علمت بحياتك هنا سعيت لرؤيتك .. وسعدت بولادتك .. فأنا أحبك .. هل من أخبار عن أمنا ؟

قالت بضيق : تركتها بخير.. وقد ولدت لنا أخا من لص .

اعترضت بانة على وصف زوج أمها بلص وقالت : لكنه ترك اللصوصية كما أخبرت من أخوة كساب الذين يزوروننا خفية أثناء مرافقتهم للقوافل ..فهو رجل شريف عندما تزوجها بل ترك اللصوصية منذ طرد من البلد .. لقد كان أبي قاسيا علينا .. ويحرمنا من أهم هدف لنا في الدنيا النكاح والذرية.

قالت : أبي مسكين ضعيف ! ليتك أحضرت أطفالك معك لأراهم وأقبلهم .

ـ سأفعل في مرة قادمة ؛ لعلي أحضر أحدهم ؛ ليتعرف على خالته إن قدر ذلك .. نحن ما زلنا نعيش في خوف وقلق من أعوان أبيك .

قالت : أتحبين أن تقابليه وأتشفع لك عنده ؟

ـ لست بحاجة لذلك ونكح جروح اندملت إذا اندملت في قلبه .. أنا منذ رحلت اعتبرت أن

لا أب ولا أم لي .. وكذلك كساب .. لقد ظلمنا قومنا خاصة أبي .. رحم الله أمامة التي ماتت حزينة مريضة محرومة من معانقة وليدها .وبكت .

قالت : رحمها الله بكيت من أجلها كثيرا .. ستباتين الليلة هنا .

قالت : إذا أحببت ذلك .

قالت : أنا سعيدة حقا برؤيتك .. ومشتاقة للخلود أيضا .. لقد اختفت بعدك مع زوج يبدو أنه من غير بلادنا .

قالت بغصة : نعم ، وصلت إلينا قصتها .. كله ممن يقول إنه أبونا ؛ ربما أنت الوحيدة التي تزوجت برضا الوالد وتزوجت كأميرة .



حبس غياث

لم تخبر بانة شقيقتها أنها تعيش منذ هربت في هذه المدينة ، ترى أن الوقت غير مناسب لكشف هذه الحقيقة ، وقضت ليلتها في ضيافة سفانة ، ثم فارقتها على أمل اللقاء بها كلما تزور هذه المدينة الجميلة الوادعة .

وسفانة كانت في حيرة وارتباك هل تخبر والدها بلقائها ببانة ؟ وأنها سعيدة في منفاها الاختياري .. ونصحها زوجها شداد بكتمان الأمر عن الوالد حتى يأتي الظرف الملائم لكشف اللقاء .. فلن يفرح ويسعد بهذا الخبر .. وسيهمس بذكر الأحفاد والموت والفتك به ..فلزمت الصمت .

علم الملك حميد بعودة الكاهن غياث لزيارة الملك فأرسل حفيده شداد ليتأكد من ذلك الخبر ، ولما رجع من زيارته ، أكد لجده صدق الخبر ، وإنه جلس معه ، وإنه سيعيش مع الملك في القصر دون إذن منا .

فأرسل الملك رسالة شفوية لزرارة مع غلام خاص به يطلب منه طرد غياث ؛ لأنه هارب من سجن الملك مرارة .

لم يهتم زرارة للرسالة ، وقال للرسول : أخي وصديقي المخلص في هذه الدنيا .

فلما رأى حميد عناد صديقه زرارة أرسل شرذمة من الفرسان لاعتقال غياث ، وأخرجوه من البيت عنوة ، وألقي في السجن ، وأخذ الملك يفكر بإرساله لمدينة اللؤلؤ ؛ لتحسين العلاقات بينه وبينهم على حساب غياث الهارب من تلك المدينة

وحان الوقت لنوضح سبب حسن العلاقة بين مدينة جلال الدين ومدينة اللؤلؤ ، وإنها علاقة فوق العادة ، وكانت لحدث قديم .. وهو أن والد زرارة الملك نعيم أرسل جندا بموافقة الوزير أوس لوالد الملك حميد الملك أحمدان ؛ لإخماد فتنة جرت في البلاد قادها بعض الفرسان من داخل المدينة وخارجها ؛ نتيجة حادثة حدثت .. وهي أن أحد فرسان المدينة تعرض لفتاة كانت عائدة لبيتها من سهرة أو زيارة لأمها أو قريبة لها .. فصدفت أحد الجنود السكارى ،

وحاول الاعتداء عليها في ذلك الليل البهيم ، وسمع صراخها أحد الشرطة ودافع عنها وأنقذها من براثن الجندي السكران وحبسه ، فقام بعض أهله وأصدقائه بقتل ذلك الشرطي غدرا وغيلة ، وألقي القبض على القاتل ، ومن عاونه .. وكاد أن ينفذ حكم الموت فيه وبمن ساعده ؛ ولكن عصابة من المدينة قامت بتهريبهم من السجن ، ومعهم الجندي إلى مدينة أخرى .. فاستعان والد حميد بالملك والد زرارة .. فجاءت كتيبة من الجيش وساعدت الملك ، وأخمدت الفتنة ، وطاردت العصابة حتى قبض عليها ، وعلى الهاربين والجندي ، ونفذ فيهم حكم الموت ، وتوقف قطع السبيل .. فعاد الهدوء والأمن بعد ذلك للبلاد .. وظلت العلاقات حسنة بين البلدين .. وهذا يذكره الملك حميد لوالد زرارة .. ولولا هذه الذكريات ما قبل من زرارة بالهجرة لبلده وما عطف عليه وقبله في بلده .. ولما حدثت المصاهرة أمل أن تتحسن العلاقة وتقوى بين البلدين الصديقين ؛ ولكنها ساءت ، وقطعت العلاقات التجارية إلا من النزر القليل ، وغفل حميد عن استشارة شقيق الملك والوزير غالب في مثل هكذا مصاهرة .

والملك يعلم أن غياثا هارب من السجن ، ومطلوب في تلك البلاد ، فأراد أن يسلمه للقضاء على أمل عودة العلاقات الحسنة والسلام والأمان للمدينتين ، فهو يدرك خطر المتربصين بملكه من بعض الملوك المجاورين ، ومن بعض أبناء عمومته ، وطمعهم أن يصيروا ملوكا بدلا من أسرته .. وتاريخهم فيه من هذه الذكريات والمؤامرات ، وبعضهم يطمع بخيرات وأموال البلاد .

ولكنه يذكر أن القبض عليه كان وهو في ضيافة الملك زرارة ، فسيجد من يلومه على الاعتداء على ضيف وفد عليه .. وسيعتبر ذلك إهانة شخصية للملك ؛ رغم أن الكثير يعلم شيطنة غياث وفساده ومكره وخبثه ؛ لذلك حاول أن يطرده الملك بنفسه .. لو فعل لأراحه ، وأصبح غياث مطرودا من زرارة ، فتسوء العلاقة الشخصية بينهم ؛ ولكنه رفض إخراجه وطرده ، ورغم محاصرة القصر أصر على الرفض ، فاضطر لأخذه عنوة إما لسجنه أو طرده ، فاختار السجن .. وكلا الخيارين أغضب زرارة فتباطأ في نقله للملك مرارة .. وتشاور مع أركان

الحكم الوزير بهلول والقاضي عزام ، وقائد الجيش وقائد الشرطة في مصير غياث .

فقال الوزير : أرى أن يبقى في السجن إلى حين .. فنفيه وطرده فسيعود .. فليبق في السجن لحين ، ثم نرسل رسالة للوزير غالب إن لهم رغبه في سجينهم الهارب .. فهو عندنا في السجن فليأتوا ويستلمونه .

ونطق القائد مؤيدا لخيارات الوزير .. ورأى زعيم الشرطة بقاءه في السجن ؛ لأن الملك زرارة في حالة غضب وسخط .. وهو صهرنا .. وقبل زواج ابنته من ابننا على غير المتوقع منه .. وهو الذي رفض زواج بناته حتى اضطررن للهرب .. وقبل البقاء عندنا حتى الموت .. وتخلت ابنته عن الملك ؛ لأنه رفض زواجها من أهله وقومه .

قال الملك : هذا لا ينسى .. والبنت ضحت .. ورفضت الزواج من ابن أخيه الملك الحالي لبلادهم .. هذا موقف لا ينسى ؛ ولكن هذا الشيطان من أهل الفساد والشرور .. فنحن عاجزون أمام قبولها بحفيدي .. وهذا الرجل ما جاء للعيش بهدوء ؛ إنما جاء لتحريض الملك ليعود للبلاد .. ويتفق مع بعض الصعاليك والمغامرين للعودة للملك .. فهو يمكر بالملك زرارة ، ويمنيه بالعودة للحكم والتاج .. هذا نقل لنا في زيارته الأولى قبل أسابيع مضت .. وتحدثت مع الملك لما وصلني هذا الكلام فحذرته من الإصغاء لغياث والتآمر على بلده من بلدنا .. يريد إقناعه بتقاسم عرش بلاده مع أحد المغامرين .. وسيظهره أمام الملوك أنه يطالب بعرش غصب منه .

قال أحدهم : فليبق في السجن مع تشديد الحراسة عليه .

غضب زرارة

جن زرارة على حبس غياث ، وكان يصيح ويصرخ ، ويطلب لقاء الملك حميد ، ونقل للملك أن الرجل يريد العودة لبلاده ، فقد أخبر طبيب القصر بمرضه وإغمائه ، فاضطر الملك بعد أيام من زيارته محاولا تهدئته خشية موته فجأة من شدة السخط والغضب والحنق ، فهدد زرارة بالهرب سرا من المدينة والعودة لبلده ، فبين له الملك خطر هذا الكاهن عليه وعلى المدينتين ، وأنه لا يرغب بوجوده في بلده ، وخلال الحديث فقد الملك الوعي ثانية ، وحضر الطبيب ، وعلم الملك بأن الملك سيغادر خلال أيام ، فلعن الملك الساعة التي قبل فيها حياته في بلاده ، وعودة الملك لبلاده بهذه الطريقة ستسبب حربا بين البلدين ، فهو الذي رحب بحياة زرارة في بلاده أثر تلقيه رسالة ترجوه قبول حياته بينهم رغم كراهية قومه ذلك ؛ لأنه ملك مخلوع .. وهو فعل ذلك للعلاقة التي كانت بين والده ووالده زرارة .. وستفسر عودته بأنه مطرود بحجة غياث .. ولازم المرض الملك ، وتكرر الإغماء من الغيظ والغضب حتى خافت سفانة على والدها الموت من الغل .. وترجت الملك حميدا أن يفرج عن الكاهن غياث ؛ لأنه هو متعلق به .

فعاد حميد لزيارة زرارة مرة أخرى فقال : أنت سخرت مني للحياة هنا ؛ ليتزوج حفيدك ابنتي بالحياء .. فكان شداد يتردد علينا كل الأيام ؛ لتحقيق هدفك هذا يا حميد .. فجعلتني سخرية للملوك والنَّاس .. الملك يرفض زواج ابنته من أقاربه ، وزوجها لأمير غريب .. وضحت لي خطتك الخبيثة .

وأقسم له حميد بأنه ما كان يعلم أن ابنته ستصحبه إلى منفاه ، وأنها ستغادر بلادها ، وأن حفيده تعرف عليها لما قدمت البلاد ورآها ، فأحبها فجأة دون تواطؤ ، ووجد لديها الرغبة بالزواج إذا وافق أبوها ، ولو كانت غير راغبة بالزواج ما أحد أجبرها ، وأصرت على الرفض كما رفضت أقاربها الثلاثة .. وقال : وأنا مستعد للإفراج عن هذا الرجل الشرير شريطة أن يغادر البلاد .

رفض الملك الخضوع لهذا الشرط ، وقال : هذا صديق وضيف .. جاء يواسيني في أيامي الأخيرة .. كيف اطرده ؟! هل تقبل أن تفعل ذلك بضيفك أيها الملك!

قال حميد : هذا ليس ضيف ؛ إنما جاء للفساد في الأرض والتآمر على شقيقك الملك .. ألم يحدثك عن العودة وتقسيم الملك بينك وبين المتآمرين ؟!

قال : هذا كلام مواساة ! وإلا كيف يساعد ملكا بعد هذه السنين العجاف ؟ أنا لم أعد أصلح للملك والحكم بعد أن سودن صفحة حياتي ، وتزوجن دون مباركتي .. وسفانة لم يكن أمامي إلا أن أقبل بزواجها من حفيدك ، وأنا في هذا الظرف والحرج والنفي وإلا خلقت سببا لطردي

قال : ما كنت لأفعل .

قال : ظللت تضغط عليّ بأسلوب ناعم والمصاهرة وحفيدك وتقوية أواصر صداقة الآباء .. وأنت تعلم رفضي الشديد منذ عهد بعيد بتزويج البنات؛ لذلك المنام القديم .. صمت لإيام لعلك تكف .. والبنت لا رغبة لها بالزواج بالولادة حتى قالت البنت : وافق يا أبي وافق يا أبي .. نحن مقامنا هنا وحياتنا ستنتهي هنا .. ليس أمامنا إلا أن نوافق والا أصبحنا أذلاء وشمت بنا قومنا أو نطرد لبلادنا أذلاء مُهانين

صاح حميد : لو سمعت هذا الكلام قبل الزواج ما تزوج حفيدي شداد ابنتك .. أنا ظننتك وافقت عن طيب خاطر وللصداقة التي تربط بيننا أيها الأخ العزيز ..كنت أظنها سعيدة بالزواج !

قال : كل أنثى تحب الزواج إذا لم يكن هناك موانع يا حميد .. منامي كان المانع .. وهي كانت ترفض من أجل أبيها المسكين المحبوس في قصر صغير ؛ لأنه رفض زواجهن .. زيارتك لبيتي هذا جعلتنا نقبل .

تنهد حميد وقال : أقدر لك هذا الموقف الكريم يا زرارة ! وأنا ما زلت أكن لك ولوالدك الضرغام الحب والاحترام .. وأنا أحببت هذا الزواج عندما رأيت إعجاب شداد بابنتك.. وهي قبلت إذا قبلت .. ولم أفكر بغضب قومك منا .. حسبت أنهم سيباركون ويفرحون لما

بيننا من صداقة ومعروف.. فلا أريد هذا الشيطان أن يزيد الجرح بين بلدينا ، ويتآمر على بلدك من بلدي.. هذا عار وعيب في حقنا يا زرارة الحبيب !

قال الآخر مدافعا عن كاهنه : هذا رجل مسكين ! هل سمعت أنه فعل شيئا لبلادنا وأنا ملك ؟ هو إنسان ضعيف ، غارق في التنجيم والغيب .. فمنامي كان واضحا موتك حفيدك هو أكد على هذا المعنى .. عرفت أن الخطر على حياتي من جهة ذريتي .. وما زلت خائفا من الأحفاد!

قال : لا يا صديقي الملك! هذا وهم كبّره في دماغك السيد غياث .. هو وسواس شيطان .. لو بنينا حياتنا على منامات ما عمر الكون والحياة .. لو كل منام يتحقق لدمرنا أنفسنا بأيدينا .. الأحلام أكثرها أضغاث أحلام .. كلنا نحلم ونرى في الليل ، وننسى في النهار .

قال : يبدو أنك نسيت حلم الملك في سورة يوسف في كتاب ربنا أيها الملك !

قال : وأنا قلت أكثر الأحلام أضغاث وأوهام .. هل إذا رأيت أني أقتل زوجتي ـ وقد رأيتها تزني في المنام ـ هل أقوم على قتلها أو أمي أو أختي ؟وأقول رأيتكن في المنام أنكن تفعلن كذا وكذا .. هذا الجنون بعينه يا زرارة .. هل إذا رأيت نفسي مسجونا أذهب وأسجن نفسي؛ ليتحقق المنام .. الكثير منها وهم .

قال زرارة مصرا : لا ، حلمي ليس وهما .. تكرر معي عشرات المرات ..كان حقيقيا .. رأيته قبل الزواج من عزوف اللعينة ورأيته بعد الزواج عددا من المرات .. وها أنا أرى الأحفاد يولدون ، ولابد أن بناتي الهاربات ولدن المزيد من الأحفاد

قال : أنت تمنع قدر الله! .. منعت بناتك من الزواج لتمنع ولادة الأحفاد ؛ ولكن الله يريد لك الأحفاد والذرية .. من أي البنات سيكون الحفيد القاتل ؟! ولماذا يقتلك ؟ لأنك منعت أمه من الزواج .. أنت لم تعرف من أحفادك إلا ابن سفانة وهو رضيع .. وهل لو ولد لك ذكور كنت تستطيع منعهم من الزواج ؟ سيفعلون كما فعلت البنات .. هذه شهوة وضعها الله في الناس .

قال برجاء : أرجو أن تعيد لي الكاهن ، ونعيش بسلام ما بقي لنا من العمر والأيام.

قال : هذا الكاهن مطلوب في بلدكم ؛ فإذا عرفوا أنه هنا هل سيسمحون له بالبقاء عندك ؟ فسيسبب لي ولَك من الحرج والضيق ؛ وربما الحرب ، ويغزونا قومك بسببه .. وكيف إذا علموا أنني أنزلته قصر الضيافة ؟ سيشتد غضبهم وسخطهم علينا.

فقال محتدا صارخا : فليغضبوا

رد حميد : إنهم أهلك .. وشقيقك الملك وقريبك الوزير .

صرخ بزعيق وقال : أنا لا أهل لي منذ فارقت الوطن .. أنا ليس لي إلا سفانة فحسب والكاهن غياث .. اعلم أيها الملك الصديق إذا لم يكن غياث معي خلال أيام لا مقام لي عندكم سأغادر المدينة .

قال : إلى أين ؟

قال : لا أدري .



طلاق سفانة

تأثرت سفانة بحال والدها تأثرا كبيرا ، وأزعجها تجاهل جد زوجها في الإفراج عن الكاهن الذي تبغضه أشد البغض من أيام طفولتها ؛ ولكنها تشفق وترق من أجل أبيها .. وهو مصمم على إخراج غياث من محبسه .. وعلمت من زوجها رغبة جده بتسليم غياث لبلدها اللؤلؤ آملا إصلاح ذات البين بين البلدين الذي تسبب به زواجها دون رغبتهم .. وهي تعلم أن هربه كان في فترة انتظارها لتسلم الحكم في المدينة .. وعلمت أن الملك حميدا أرسل رسولا بهذا الأمر للملك مرارة عمها.

ولما علم زرارة بذلك زاد غضبه ونقمته على الملك حميد ، وأمر ابنته بالطلاق من حفيده شداد ؛ لأنه سيعود لبلاده .. وقبلت سفانة الطلاق ، ولما رأى حفيد الملك رغبتها بالفراق ومصرة عليها أشهر الطلاق في المدينة .. وفرح وسعد زرارة بطاعة ابنته وقبولها الطلاق .. وأخذ يراسل شقيقه مرارة للعودة للبلاد لعدم راحته في منفاه .. وأن الحبس في القصر الصغير خير من الحياة في بلاد غريبة .

وجرى نزاع بين سفانة وزوجها على حضانة الطفل أسامة ، فأخبرها القاضي بأنها إذا رحلت عن المدينة لا حق لها في حضانة الطفل ؛ لأنهم أحق به ، أما إذا ظلت هنا ، ولو مطلقة سيبقى معها حتى يكبر ، ويخير بين العيش معها أو مع أبيه شداد .

وكان زرارة يحثها على التخلي عنه ، وسيسمح لها بالزواج في وطنه ، وتلد غيره ولكنها تمسكت به ، وإنه ابنها فلذة كبدها ، ولا تريد التفريط فيه ، وقالت : فلذة كبدي يا أبي ! وقد تعلقت به ولن أتخلى عنه قبل أن يكبر ويمشي .

وبذل الملك محاولات كثيرة معها ، وهي تصر على حضانته ، وجرت مراسلات بين الملك وشقيقه للعودة لمدينته ، ويعتذر فيها عن خروجه ، وتسرعه في طلب النفي والهجرة .

والتقت بانة بسفانة ولامتها على طلب الطلاق إرضاء لأبيها ، وكانت قد جاءت إلى قصر أبيها على أنها جارية من جواري صديقات سفانة من أهل المدينة .

فأجابت على لوم أختها : إنه أبي ! وأن طاعته فوق كل طاعة .. وليس له عضد هنا إلا أنا .

قالت : لماذا قبلت الزواج ؟!

قالت : لأنه قبل واستسلم لضغط صديقه الملك حميد .

قالت بانة : هل سيقبل قومنا عودتكم ؟

ـ لا أرى أنهم سيقبلون ..فلم نسمع منهم ردا .

قالت : ألا مجال للصلح بينك وبين زوجك ؟

ـ أبي أبي يفكر بالهرب سرا .. وسيأخذون ابني إذا رحلت لا يريدون أن يتربى في بلاد غريبة .

قالت بانة : أبي مصمم على العودة .

قالت سفانة : إلا إذا عفوا عن غياث اللعين.. تنهدت ضيقا وتابعت : كله شر وفساد .. ما زال مدمرا لحياتنا ومستقبل أيامنا .

قالت : أبي الضعيف .. هذا صعلوك شرير .. ستذهبين!

قالت : لا أدري ! أنا لا يمكن أن أتنازل عن ابني . وأخذت بالبكاء والنحيب .

وبعد أن ذهبت موجة البكاء ، وهدأتها بانة ، وحثتها على الصبر ، وأن الفرج قريب غادرتها ، وقد وعدتها بزيارة أخرى ورفضت ذكر مكان سكنها، وأين تعيش؟

ولما سألها الملك عن هذه الجارية التي طال الحديث بينهما ، قالت : إنها من جواري زوجي ، كانت تحاول الصلح بيني وبين زوجي .

قال : لا ، لا ، لا ، أنا ضحيت من أجل البقاء هنا ؛ ولكنهم نكروا الجميل والمعروف يا سفانة ! غياث ما زال في السجن .. وقد أرسلت له الخادم بطعام فأخبره أنهم سيرسلونه لبلادنا ليموت .

قالت : أجاء الرد من عمي ؟

قال : ليس المهم رد عمك .. المهم رد الوزير .. لقد ذلوني يا ابنتي ..أصبح الموت أحلى من الحياة مع هؤلاء الأنذال .

قالت : أليس هم الحكام من عهد والدك وأجدادي ؟

قال : كانوا يقبلون الذل والخضوع والخنوع .

قالت : أنحن هنا أعزاء ؟ ! يريدون أخذ طفلي إذا رحلت معك .

صاح : لا نريده .. ضعفت أمام ضغطهم يا سفانة .. ما كان لي أن أوافق على زواجك .

قالت : هذا هو الذل يا أبي !

قال : كنت محبوسا في بلادنا .. كنت مهانا من أجل ذلك يا بنية رضيت بالنفي الاختياري .

قالت بحيرة تنتابها : لا أدري أحق هذا ! مضى عام على زواجنا .. منامك كان فتنة لنا .. ليتك رفضت بحجة المنام .. أنا لا أرضى بأن أتخلى عن ولدي .

قال : إنه ابنهم .

قالت : إنه ابني .. حملت به تسعة شهور.. ولي شهور أرضعه .. سيرحل معنا .. سيرحل معنا

تنهد حزنا وقال بضيق : إذا رحلنا سنتركه هنا .. سيصبحون لنا أعداء يا سفانة .. أتربين ابن العدو ؟

قالت : عيشتني في حيرة يا أبي! أرجو أن يقبل قومنا عودتنا .. فظلم ذوي القربى أفضل من ظلم غيرهم .. هنا لا تجد مواسيا مشفقا وباكيا .. إني أتألم أتمزق يا أبي !

قال بعطف وتوسل : أنا حزين من أجلك ! هذا قدرنا يا سفانة! ظننت راحتنا هنا .. عند أصدقاء أبي وأصدقائي .. رحلنا وتنازلت عن الملك لتبقي العذراء .. ثم ضعفت أمام ضغط حميد .. لقد كان شجاعا عندما قبل لي العيش هنا ..كانت نخوة وشجاعة .. استنجدت به من ظلم ذوي القربى .. لا تبكي يا حبيبتي .. دموعك تسقط على قلبي ليس على خديك .. ما زلت عاقلا أترضين أن أعيش أسيرا ؟ أترضين أن يكون ضيفك سجينا ولا نفعل شيئا من أجله ؟!

قالت : لا أرضى .. وأنا في غاية الحزن والألم .. متى سيحكم ابن أمامة البلاد ؟ فأنا سأكون خالته يا أبي !

هرب غياث

بينما الأمور محتدمة بين الملك وابنته بسبب زواجها ، وبسبب طلاقها ، وكذلك عدم وصول رد من شقيقه الملك ، مما اضطر الملك ودفعه أن يكتب رسالة لأحد الملوك الذين له صداقة وود معهم أيام عز ملكه وشبابه آملا أن يقبل حياته في مدينته .

والطفل المولود مع من سيبقى إذا رحلت سفانة .. وهي مصرة على التمسك به ؛ بل هناك حديث عن الإصلاح بين الزوجين .

وكان الملك حميد مشغول الفكر في حل معضلة غياث في تسليمه للملك مرارة حالما بعودة العلاقات الطبيعية بين البلدين قبل لجوء زرارة إليه ؛ ولكنه متردد في حسم الأمر .. وتبين له خطأ قبول الملك ضيفا في بلاده دون طلب من مرارة .. وزاد الطين بلة زواج سفانة ثم طلاقها والنزاع القائم على المولود لمن يكون ؟ وكان مستغربا لعدم رد الملك مرارة على أخيه كل هذه الفترة .

وبينما هو حائر في حل هذه الإشكالات أخبره قائد الجيش عن هرب عدد من السجناء ومن بينهم الكاهن غياث .. وأنهم فشلوا في القبض عليه .. والراجح أنه غادر البلاد .. ورغم تظاهره بالغضب فرح بهذا الحل .. وهو أفضل الحلول ؛ ولكنه أمر بإجراء تحقيق في هذا الهرب للسجناء .

فتبين أن رشا وخيانة من بعض الحرس وتوفير خَيل للهاربين من قبلهم .

ولما علم زرارة هو الآخر بهرب الكاهن أصابه الفرح والسعادة ؛ لأنه كان يخشى من تسليم الكاهن لبلده فيعدم لهربه من الحبس .. وقد أدرك أيضا أن اللقاء به في هذه المدينة أصبح من الصعوبات .. وهو قد بذل جهدا لتحريره ، واضطر لتطليق ابنته من حفيد الملك من أجل إخراجه من الحبس .. هكذا واسى نفسه ، وأمل أن يقبل به الملك حبيب الدين بن سالم نزيلا في بلاده ، فكان يقول لسفانة : كان هربه حلا لي ولحميد .

قالت : أنت سعيد بهربه ! ولكنه أصبح عدوا للملك ، وقد يطاردونه .

قال مطمئنا لها : إنه داهية من دواهي الزمن .. الآن لا يهمني رد شقيقي ووزيره الملعون .

ـ وأنا !

قال : ستعودين لزوجك .. فالشاب يحترمك ويحبك ، ولولا الإجبار ما طلقك .

قالت : هل ترى أنني سأعيش سعيدة بعد هذا الجرح بيننا ؟

قال : عليك أن تتحملي من أجل الطفل كما تزعمين .

قالت : كنت أفكر يا أبي أن أختار الرحيل والهرب به .

قال : حمقاء !

قالت : حمقاء حمقاء! ولا أكون ألعوبة بينكم .. بين ملك وأمير .. ليتني تزوجت ابن عمي .

قال : لا ينفع الندم اليوم .. فإن قومك لم يردوا على طلبنا بالعودة لبلادنا ، وحتى لم يرفضوا .. إنهم يحتقروننا يا سفانة ! لا تفكري بالهرب .. فأنت الخاسرة .. زوجك لديه نساؤه ، ولديه أطفال .

قالت : طفلي لن أتخلى عنه .

قال بثقة : ستعودين له .. حدثني بعضهم عن ذلك .

قالت : أعرف وأرسلت لي الجواري والبنات .. وأعرف أنه محب لي ولولده ، وقدر لي الوقوف معك في هذه المِحنة .

قال : نعم ، إنه شاب عاقل بطل .. لقد أعجبت به منذ تعرفت عليه ؛ إنما هي تقاليد الأسر والسادة .

وفعلا بعد هدوء زوبعة هرب المساجين تدخل بعض الفضلاء بالصلح بين الملكين ، وجرى حفل زواج جديد لسفانة ، وعادت زوجة لشداد .

وقال وهو يرحب بها : صفحة وانطوت أيتها الأميرة الشجاعة .. نعم ، نحن ضعنا بين الفريقين .

قالت : أنت تعلم أنك الرجل الوحيد الذي أحببته وقبلته بعلا ؛ ولكنه يا سيدي الأمير أبي .

قال : أنا أقدر لك شجاعتك .. وقدرت موقفك ونبلك وطاعتك لأبيك .. ولو كان الأمر بيدي لعفوت عن غياث ، وأبقيته لدى أبيك .. والإنسان ما دام لا يتدخل فعليا وبيده فهو مازال بعيدا عن الخطر والضرر .. فليس كل ما يقال ينفذ .. وأما الوشاة فينقلون الكلام حسب فهمهم وأهوائهم ، وحسب رغبة من ينقلون إليه الكلام .

قالت : أشكرك على تفهمك موقفي وعصبيتي ، وعلى حسن خلقك معي وصبرك عليّ .. أنا أكره الكاهن أكثر من إبليس اللعين ؛ لكن أبي متعلق به لحد الجنون .. إنه أبي سيدي الأمير !

قال : مرحبا بك في بيتك ! هي غمة وذهبت ـ إن شاء الله تعالى ـ فأنت في بيتك بين أهلك وجواريك .. وأمي تقدر لك شجاعتك ، وتضحيتك من أجل الوالد .

قالت بحزن : لقد أصبح الوالد ذليلا بعد خلعه عن الحكم والملك.. يشفق الناس عليه ؛ بل تراه يتمنى الموت .. فعندما الإنسان يترك السلطة والحكم يصبح ألعوبة وسخرية ؛ وربما لا يحسّن التفكير والنظر .. لقد كان مصدوما أن تتزوج ابنته الكبرى سرا من ابن الوزير، وتلد دون معرفة .. وهي ابنة ملك كأبي .. ثم تهرب بانة التي تعرفها مع أمير للتزوج رغم أنفه ـ وقد زارتني في قصر أبي متنكرة ، وحثتني على العودة إليك ـ ثم فعلت أختي خلود مثل بانة ؛ فذلك يجعل العاقل مجنونا .. فهذه ضربات قاسية تلقاها أبي .. وأنا أحبك وأحب أمك الغالية على قلبي .



رفض العودة

لقد رأينا الملك زرارة مسرورا من هرب غياث من سجن الملك حميد ، ولقد كان يتمنى أن يفرج عنه بشفاعته ، ويعيش معه بقية حياتها ، ولكن أهل السلطة لا يرغبون بوجوده في بلادهم .

وفرح أيضا بعودة سفانة لزوجها ، وهذا يعطيه مكانة بين أسياد المدينة بأنه ما زال صهرا للملك الشيخ حميد .

وجاءت الأخبار بعد حين ترفض عودته لبلده الأول بسبب تزويجه لابنته لرجل غريب بعد أن رفض تزويجها من أقاربها ، وجاء في الرسالة أن لا يفكر بالعودة قطعيا ، لا هو ولا ابنته ولا أحفاده من سفانة ، وجاء في الرسالة أنهم ليسوا بحاجة إلى استلام الكاهن الهارب .

فوطن نفسه بعد هذه الرسالة الحاسمة والقاسية على عدم التفكير في العودة لمسقط رأسه ، وعليه أن يقضي ما بقي من العمر في المنفى .

وجاءته رسالة من صديقه الملك الآخر يرحب بزيارته لمدينته دون الاستقرار فيها لأهمية الصداقة بينهم وبين مدينة اللؤلؤ ، وأن ابن الوزير متزوج من امرأة من مدينتهم .

فخاطب نفسه : لقد نسيت ذلك .. نعم ابن الوزير لؤي صاهرهم بعد موت أمامة تذكرت ذلك .

فلما رأت سفانة والدها بعد هذه الخطابات قال : رفض قومك أن نعود إليهم بأي حال من الأحوال ، لقد اعتبروننا مجرمين في حق المدينة ، وتقاليد الزواج .

فواست والداها كعادتها منذ قويت العلاقة بينهم ، وقالت : رضينا بالحياة خارج مدينتنا .. فلنرض يا أبي بقدرنا ونصيبنا .. وأنت إذا مللت من العيش هنا فسافر إلى الملك حبيب فهو يرحب بك لعدة أسابيع زائرا ضيفا .

فقال متحسرا : التنقل بين المدن يحتاج لمال وحرس وهدايا يا بنية .. وكما تعلمين أن حقنا المالي توقف لما انتشر خبر زواجك .. فأصبحنا أغرابا عند بني قومنا .. فأنت زوجك ينفق عليك ..

وأنا أعيش على ما بقي معي من مال ومجوهرات ، وبعض إحسان الملك حميد بعد أن علم بقطع ما خصص لي من مال للحياة الكريمة في المنفى .

قالت : عليك أن ترضى بذلك ما دمت قد قبلت النفي الاختياري .

قال : قبلت وصبرت .. وشكرت ربي .. نعم ، صدقت .. على الإنسان أن يقبل ما اختاره بنفسه ، ويتحمل عاقبة الاختيار بطيب نفس.. لقد كنت وفية لأبيك يا سفانة !

وسمح له الملك حميد بزيارة الملك حبيب لما اطلع على الرسالة ، وأرفق معه كوكبة من الفرسان في تلك الرحلة سوى الهدايا ، وقضى الملك عشرة أيام في ضيافة الملك حبيب الدين ، ثم كَر راجعا لمنفاه ، وقد أحضر معه عددا من الجواري والغلمان هدية من ذاك الملك ، وقدم بعضها للملك حميد وابنته وزوجها شداد ، ووالده عُمير وللوزير ، واتخذ جارية منهن كسرية مما أثار حفيظة زوجته الجارية المعتقة ، فوعدها أن يتركها بعد حين ويعتقها ، فهو لا ينسى خدماتها وتعلقها به بعد طلاقه لعزوف .

بعد شهر على هذه الزيارة جاءت سفانة تزور والدها كما درجت العادة ، فوجدته مريضا مرضا شديدا ، وقد عاده أطباء القصر كل يوم ، فقال لها : أحس أن أحدهم يدس السم لي .

قالت : هل حدثت الملك بشكوكك ؟

قال : أخشى أن يكون له يد بذلك .

قالت بحيرة : لا ، لا تسيء الظن به .. فلنا سنوات في كنفه .. ونحن أصهاره .. وعادى قومنا من أجلنا .. فعلى أطباء الملك التحقق من ذلك .. ويفحصون ما يقدم لك من طعام وشراب .

تحركت سفانة ، وأخبرت زوجها بشكوك والدها بفساد طعامه ، والأمير أخبر جده الذي انزعج ، وكان يعتقد أنه مرض تقليدي ، فأرسل رئيس الشرطة وكبير أطباء القصر لمعاينة الملك زرارة الذي رجع وأكد للملك تعرض الملك لمواد سامة ، فتعرض الطهاة والخدم للمسألة والتحقيق والاستفهام .

فكان الملك يقول لوزيره : الطبيب يؤكد أن الرجل دس له في طعامه مواد سامة .. ويستخدمها

الطهاة دون علم على أنها مواد سامة .. فقد أرسلت للقصر على أنها هدية من طهاة قصرنا .. وطاهي القصر أنكر إرساله هذه المواد .

ـ وماذا يقول رئيس الشرطة ؟

قال : يقول إن خادما زارهم ذات نهار زاعما أنه من خدم القصر ، وأنه من الخدم الجدد ، وقدم لهم مجموعة من الأعشاب ، وأنها خاصة بطعامي ، وأحب أن يخص بها الملك زرارة .. فصدقوا ذلك .. والملك لم يخبرهم عنها عن مرضه منها ؛ لأنه لا يعلم بهذه الأعشاب .

قال : يعني أنهم غير متآمرين . . من يريد اغتيال الملك ؟!

قال : هذا ما يحاول معرفته رئيس الشرطة .. فالأمر جد خطير ! هل أصبحت حياته في خطر أيها الوزير ؟

قال : الأمر محير .. من يريد موته ؟ وهو لا خطر منه على بلاده كما تعلم ونعلم .. وله ضيف سنوات لدينا .. فقومه لماذا يفعلون ذلك ؟ فهو ملك وابن ملك وشقيقه الملك .. فالخطر عليه من عندنا .

قال : هل من عدو له بيننا يا مولاي ؟

قال حميد : هل من خطة لحمايته ؟

قال : علينا كشف الخادم الذي ذهب إليهم بتلك المواد السامة .



ابن أمامة

يعلم قارؤنا الطيب من خلال سطور القصة أن الأميرة أمامة بنت زرارة لما كبرت واقتربت من الخمس والعشرين سنة ، وكان والدها يرفض زواجها اتفقت أمها عزوف الملكة ، والوزير أوس على زواجها خفية دون موافقة الملك ، وحملت من زوجها خلال أسابيع من الزواج ، وولدت سرا برعاية أمها والوزير ولؤي وبعض الخدم الثقات ، وفور الولادة قام أحد فرسان الوزير الفارس ليث العامر بأخذ الطفل إلى مدينة الملك حبيب الدين ، وفي إحدى القرى دفع الرضيع إلى امرأة تهتم به وترعاه مقابل المال ، ودون أن تعرف هو ابن من ؟ وهناك خادمة وشت للملك بزواج ابنته وولادتها بعد حين ، فغضب الملك أشد الغضب ، وحبس ابنته النفساء ، وأهمل رعايتها الطبية حتى هلكت ، وكان يقصد ذلك ويعمده انتقاما لنفسه والإهانة التي لحقت ، وبحجة أنها لم تفصح أين أخفت ابنها ؟وهي لا تعرف مكان إخفاء الوليد سوى أنه خارج بلادها .. وود لو قتل الوزير من شدة الغيظ والحقد .

وكان لؤي عندما أهل الوليد صارخا حمله إلى ذلك الفارس ليث العامر ، ونفذ الخطة المدبرة لهذا اليوم العصيب .

وكان هذا الفارس يغيب عن الوزير أوس مع القوافل والحجج الأخرى لمتابعة حياة الطفل الرضيع ، ولما فطم الطفل كانت أمه قد هلكت من عهد قريب من العامين .

ونعلم أن لؤيا تزوج من مدينة الملك حبيب ، وكان يذهب برفقة ليث أو يأتي به ليث إلى مكان متفق عليه ، ويحتضنه ويقبله ، ثم يعاد لمكان اختفائه خشية عيون الجد زرارة ، وحاولت زوجه الأميرة معرفة مكانه ، وعجزت عن ذلك خاصة عندما عادت للحياة بعد الزواج في بلدها ، ونجح لؤي بإخفاء الأمر عنها وعن غيرها بسبب الخطورة المحيطة بالطفل .

ولما شب الطفل رجع به ليث العامر إلى المدينة في بيت مستقل ، وتظاهر ليث أمام الفضوليين أنه ترمل من سنوات ، وأن هذا الفتى ابنه الوحيد ، واشترى جارية وغلام لخدمة الطفل .

وتزوج ليث بعد رحيل لؤي للمدينة ، وعاش الطفل مع أولاده ، ونشأ بينهم كأنه شقيق لهم ،

ولم يشعر أنه ابن رجل آخر ، وكان يعتقد أن الرجل لؤيا عندما يتقابلان عّم له وشقيق والده ، ولما كبر وشب علم أن أمه ماتت ، وظن أن ليثا هو والده ، وكان الأمير يقدم المال للفارس ليث باستمرار ، ولما مات الوزير أوس كان عمر سيف الدين عشرة سنوات ، ورجع الأمير بعد موت والده لبلاده موصيا ليث على ولده ، وأنه قد يصير ملكا على البلاد ؛ لأنه حفيد زرارة الأول .

ولما بلغ الفارس سيف خمسة عشر عاما كان قد تعلم الكتابة والقراءة والفروسية في مدارس المدينة ، وأنديتها المهتمة بذلك .. وعشق الصيد مثل أقرانه في المدرسة التدريبية .

ولما أصبح في هذا السن جاءت رسالة لليث من الأمير لؤي مع ثلاثة فرسان يطلب منه إحضار الشاب للمدينة بدون زوجته وأطفاله إلى حين يسير ، وبعد رحلة استمرت أياما استقبل الشاب في قصر خاص من قصور الوزير غالب عم لؤي ، وقدم الوزير والملك مرارة للقصر ، وتم كشف السر للفتى الذي لم يتفاجأ بذلك ، وقد كان يحس بأنه أمير من تصرفات أبيه ليث معه ، وسمع قصة أمه وأبيه .. وكان الفتى يذكر لقاءته بالأمير لؤي ، ويرى الاحترام الذي يلقاه الرجل من ليث .. والحنان من الأب له .. وكان كل ذلك خوفه على حياته من جده زرارة الملك المنفي برغبته .

ولما عرف تفاصيل حياته وسبب إخفائه وإبعاده عن البلاد بكى امه ، وطلب زيارة قبرها .. وعانق الملك مرارة الذي هو بمقام جده ، وفعل مع الوزير عم والده كما فعل مع الملك .. ثم حضر القاضي الأكبر ، وتعرف على الشاب وبارك له حياته .

وقام الوالد وبعض الحرس والفارس ليث بزيارة قبرها ـ قبر الشهيدة كما يسمونها ـ وبكى الشاب ، ودعا لها بالرحمة والمغفرة .

وأعلن الوزير في نهاية اليوم أمام الأمراء والأعيان والسادات عودة الأمير سيف بن لؤي حفيد الملك زرارة .

وعانقه الملك والوزير وكبار السادة والأمراء من أقاربه وأقارب والدته أمامة ورأوه فتى قويا

جميلا .. وانتشر الخبر في المدينة بعودة ابن أمامة لتولي الحكم .. وعزل في قصر خاص تحت حماية قائد الجيش ووالده واتباعهم ؛ ليخضع لتدريب على الحكم ومهام الملك لمدة تسعين يوما يتم خلالها الاستعداد لتنصيبه ملكا جديدا على البلاد .. فالملك في هذه المدينة ملكا تشريفيا وكل المهام الإدارية والتجارية والحربية موكولة للوزير وأعوانه .

وخضع الأمير للتثقيف والحكم وواجباته .. وكان يخضع لحراسة مشددة خشية على حياته من الحساد والغادرين .

وقد زارته جدته عزوف ، وعانقته بحب وبكاء ، ودعت له بالبركة والتوفيق في رعاية الأمة والبلاد .

وقامت الاحتفالات في كل المدينة لتنصيب الشاب الصغير ملكا على البلاد ، وقد تنازل الملك مرارة حسب التقاليد عن العرش ، ولما مضت الشهور الثلاثة توج الأمير سيف ملكا على بلاد اللؤلؤ ، وأقيمت الولائم عدة أيام .

وأخذت المدينة تستقبل الوفود من الأصدقاء للتهنئة بهذا الملك الجديد ، وانشغلت المدينة بالاستقبال والتوديع .

وعين للملك سبعة مستشارين ، وعين له حرسا ملكيا من اتباع الوزير فهو عم أبيه ، وكان القصر الملكي قصر زرارة قد أعيد تحصينه وصيانته وتجهيزه ليكون قصرا للملك سيف ، ورتب له الخدم والطهاة .

وأصبح الملك الشاب ينتقل بين قصر المنام وقصر الحكم ، ويحضر الوزير لديوانه ويطلعه على ما يهمه سماعه ، ثم يغادر سيف ظهرا القصر وديوان الحكم لقصره ويفعل ما يرغبه من اللعب والسمر .. ويستقبل السفراء والأدباء والشعراء والقصاص والحكماء في ديوان قصر المنام ليزداد معرفة وعلما ؛ فإذا رغب بسماع الشعر أبلغ قيم القصر الشعراء برغبة الملك ، فيتجمع عدد منهم في قاعة خاصة حتى يحضر الملك ، فيبدئون بإلقاء أشعارهم .. وهكذا باقي الأصناف .

خلود

قلنا إن الأميرة خلود بنت زرارة تزوجت ابن أحد تجار مدينة الرحمة عن طريق التاجر عمرو بن سنان ، ودبرت وإياه حيلة بدأت لقومها أنها خطفت ، وانتقلت إلى تلك المدينة ، وتزوجت ولا أحد يعلم أنها ابنة ملك إلا زوجها ووالده والتاجر عمرو وجاريتها لبانة .

ولما انتشر خبر اعتلاء الأمير المختفي سيف ملكا على بلاد اللؤلؤ في المدن والبلدان القريبة ، وعلمت خلود من زوجها وعمها هذا الخبر اشتاقت لبلادها ورؤية ابن أختها الذي أخفي من أول يوم ولادة ، فكتبت رسالة شخصية له تطلب منه أن يسمح لها بزيارته وزيارة أمها وبعض أقاربها .. ونقلت الرسالة مع التجار للتاجر عمرو ، ولما تسلمها انتقل بها لديوان الملك ، ولما قرئت على مسمع الملك أوضح له الوزير قصة خالاته همسا ، ثم قال : نحن منذ تظاهرت لوالدها أنها خطفت ، ولا نعلم عنها شيئا .. هذه أول مرة نسمع عنها حسب علمي .. وأنا شرحت وبينت لك ظروف زواج أمك وخالتك بانة وخلود .. ونحن كنّا نلوم جدك الملك زرارة في ذلك حتى اضطرت البلاد لعزله عن الحكم بعد اختفاء الأميرة خلود .. وأطلعناك على قصة المنام الذي جعله يحرم بناته من حقهن الشرعي والأدبي من الزواج والإيلاد .

قال : ألا تسيء عودتها وزيارتها للبلاد حفيظة الناس وأقارب جدي زرارة ؟

قال الوزير : نحن أوقعنا اللوم كله على الملك جدك يا سيف .. واضطر أخي ورجال الدولة على خلعه .. وهن كنساء لم يجدن أمامهن إلا أن يتزوجن بهذه الطريقة المؤلمة .. فكان زواج أمك من ابن أخي الوزير أوس سرا .. ثم هربت خالتك بانة مع الأمير كساب .. وخلود لم نعرف مع من هربت ؛ ولكنه من غير أهل البلاد .. أنا أعذر البنات في فعلهن سواء كان صحيحا أم خطأ أيها الملك ! ولا أعتقد أن ينزعج الناس من زيارة البنت لأمها جدتك الملكة عزوف التي اضطرها جدك للرحيل ونفيها وحيدة بعدما طلقها مما اضطرها أن تتزوج من رجل اشتهر باللصوصية في بلادنا .. وذلك في منفاه ومنفاها ، حتى خالتك سفانة صغرى بنات جدك نصبناها على البلاد ملكة للتقاليد والقوانين المعتمدة في نظام الملك .. وعرضنا

عليها ثلاثة أمراء ؛ ليكون أحدهم زوجها ، وأحدهم ابن الملك مرارة .. وآخر ابن أختي من أقارب جدك .. رفض الملك المعزول زواجها .. ورفضت الزواج مما دفع القوم إلى خلعها ، ووضع شقيق الملك زرارة ملكا ريثما تظهر ؛ لأنك من أحفاد الملك .. وطلب جدك وسفانة النفي الاختياري .. وهناك قبلت الزواج من حفيد الملك حميد ـ وقد حضر وفد منهم للتبريك والتهنئة بالملك ـ وقبل والدها بزواجها من الغريب .. وهذا لا يجوز في حق بنات الملك يا أيها الملك ! ثم طلقت، ثم ردوها بعد تصالحهم .

قال الملك : نرحب بها يا سيدي الوزير!

قال : نعم ، يا مولاي ! فأمها كبيرة في السن .. ورؤية ابنتها ستحقق لها السعادة .. وأمها سيدة عظيمة وشجاعة .. وخالك سيكون فارسا بطلا .. وهو شاب صغير في الجيش .

قال الملك وهو يتذكر أول لقاء بالملكة عزوف : لقد بكت كثيرا لما رأتني أول مرة وتمنت لو تربيت بينكم .. وعرفتني على ابنها رياض الفتى الصغير ؛ ولكنه خجول

قال : ربما من ماضي أبيه مع أن والده كان لصا كبيرا وشجاعا في مجال اللصوصية ؛ ولكنه تاب ورحل .. وكان ثريا عندما نكح جدتك ، ويملك مزرعة كبيرة في بلاد عثمانية ، وما زالت أموالها ترد إلى جدتك زوجته ، ورفضت بيعها .

طلب الحاجب الكاتب ، فجاء الكاتب ، وكتب رسالة ترحيب بالأميرة خلود بنت زرارة في بلدها ، وختمها الكاتب بخاتم الملك ، ودفعت للتاجر عمرو الذي كان يرتقب الرد .

ولما عاد لمتجره الكبير دفعها لأحد رجال القافلة ، ولما استلمت الأميرة الرسالة ذهبت تبكي وتبكي ، وقد تذكرت أختها أمامة التي كانت صديقة لها ؛ لأنهما متقاربتان في السن ، وشهدت زواجها السري والخوف الذي ركبهم من تلك المغامرة ، فأمامة تكبرها بثلاث سنوات ونصف ، وقالت لزوجها بعدما هدأت عواطفها إنه يرحب بِنَا جميعا .

قال محمد : بارك الله فيه ! فأنت اليوم خالة الملك ؛ لعلنا بعد هذه الزيارة نكشف أمرنا للناس ؛ ليزداد لك الاحترام بين الأهل ورجال الدولة .

طلب منه والده بألا يصحب كل ذريته معه خشية غدرات الطريق واللصوص فأخذت الطفل الرضيع فقط .

وكان الملك يقول لجدته : خالتي خلود ترغب بزيارة البلاد والظهور ، وكتبت رسالة بطلب الزيارة للقاء بك وبنا .

تفاجأت الملكة بالأمر ، ودمعت العيون وقالت : منذ خرجت مطرودة من هنا لم أرها أيها الملك ! ـ رحمك الله يا أمامة ـ لم تعش لترى ابنها سيدا وملكا ؛ بل لم تحضنك إلا بضع دقائق .. كان يجب أن تختفي من البلاد خشية أن يعرف الملك والدها .. ولما عرف رماها في السجن وهي نفساء دون عناية .. كان موقفا قاسيا ظالما ، ثم ماتت رحمها الله .

تنهد سيف وقال : رحمها الله رحمها الله .. ستنزل الأميرة ضيفة في قصري هذا قصر الملك وإذا رغبت بالعيش في بلادنا سأرحب بذلك .

قالت عزوف : يسرني ذلك يا ولدي العزيز .

قال : وأنت إذا أحببت العيش معي هنا فعلى الرحب والسعة .

قالت معتذرة : يسرني ذلك يا ولدي ؛ لكن أمي مريضة وعجوز أكثر مني .. وخالك عزيز النفس ، وبعض أهلنا لا يعاملونه أنه ابني أنا ؛ إنما يعاملونه ابن ذاك الرجل الشجاع .

قال سيف : على كل القصر مفتوح لك .. وعندما نكبر أنا ورياضا سيكون قائد الحرس إذا قبل ذلك .. فهو خالي وابنك .. وأحببته يا جدتي!

مسحت دمعات سقطت على وجنتيها وقالت : شكرًا على عطفك الكبير علينا ـ وإن شاء الله ـ ستكون ملكا عظيما رغم صغر سنك .. فأنت سيد الرجال والملوك .. وسنفخر بك ما حيينا فأنت تاج رؤوسنا .

تعانق مع جدته ، وأمر الغلمان بعودتها إلى قصرها كما أحبت من أجل أمها وابنها .. ولما جهزت مركبتها ، خرجت وعادت لقصر أمها حيث تعيش هي وولدها رياض بن مناع .

بعد مضي شهر من رد الملك على رسالة خلود دخلت البلاد مع إحدى القوافل التجارية

يصحبها زوجها محمد وابنها الرضيع .. وأستقبلهم التاجر عمرو ، ورحب بالأميرة .. وكان قد زارها بضع مرات عندما يسافر لمدينة صاحبه واستضافهم ليلة .. وفي مطلع النهار أخبر الملك بمجيء خالته بصحبة زوجها وابنها الرضيع .. فترك ديوان الحكم ، وعاد لقصره الخاص ، واستقبل ضيوفه خالته وزوجها .. ورحب بها بكل حب .. وكانت تبكي وهي تعانقه وتشكره وعرفته على زوجها الذي قبل رأسه ويده كعادة السلام على الملوك ، وقبل الملك الطفل .

ثم حضرت الملكة عزوف وبعض أخواتها وإخوتها لقصر الملك ، وتجدد البكاء والفرح بهذا اللقاء والشكر للملك على قبوله هذه الزيارة .

وأخذ أقارب الأميرة يتوافدون للقصر لتحية الأميرة العائدة بعد اختفاء طويل .

وقضت عدة أيام تستقبل أهلها وصديقاتها حتى الوزير غالب وزوجته وبناته جاءوا للترحيب بالأميرة وزوجها الشجاع الذي تجرأ على خوض هذه المغامرة الخطرة والصعبة والقبول بالأميرة زوجة رغم الخطر الكبير على حياته .

وأعجبت بأخيها الذكر وأحبته ، ولم تنفر منه ، وصنع لها الملك الصغير ، ومثله الوزير وعمها الملك مرارة وغيرهم الولائم ، وأعلمها الملك أنه يرحب بحياتها في البلاد ؛ ولكنها اعتذرت عن ذلك ، وأنها تعيش سعيدة في بلاد زوجها .. وعليها أن ترضى بقدرها .. وأنها ستتردد بين الحين والآخر إليهم ، وقضت الأميرة شهرا من الزمن في ضيافة أهلها ، وصحبتها الهدايا الكثيرة عند مغادرتها البلاد ، ورافقتها كوكبة من الفرسان حتى أطراف البلاد ، وكان والد زوجها في الاستقبال .. وقدم الشكر للفرسان ، وانتشر خبر الأميرة في بلادها حتى أن الملك الذي يعرف التاجر نجوان طلب اللقاء بها .. والتعرف عليها هو ونساؤه لما شاع خبر الأميرة وعلم من هم أصهاره .. وأدرك أقاربهم وأصدقاؤهم سبب تصرفات التاجر مع البنت منذ دخلت المدينة .

زرارة يطلب العودة

الملل والضجر من طبيعة البشر ، فلما تيقن لزرارة الملك اعتلاء حفيده ملك بلاد اللؤلؤ مكان شقيقه مرارة لعب في رأسه العودة للبلاد .. وكنا ذكرنا أن الملك تعرض لمحاولات السم مرتين ، ونجا من الموت منهما ، ولم يعرف الجاني .

فقال لسفانة : الأخبار أتت من البلاد باعتلاء حفيدي عرشي .. ولي رغبة بالعودة .. بت أخشى على حياتي هنا .. فالموت عند الآباء والأجداد خير .

قالت : ألا تخشى نقمة سيف عليك ؟! وقد أردت قتله وليدا .. وسعيت لذلك .. وماتت أمه دون علاج .

هتف بحدة : إنه ابني يا سفانة ! هي تزوجت بطريقة لا تليق ببنات الملوك والأمراء .. وهذا له سنوات وسنوات .. وأنا لم أقتل أحدا .. هي ماتت بضعفها وغضبي عليها .

قالت : لكنها أمه .. وقد حرمته منها .

صاح : هي حرمت نفسها من نفسها .. تتزوج غصبا عني .. ولا أفعل شيئا أأرقص وأغني يا سفانة! أنا حبستها فقط .. لم أضربها لتموت .

قالت : والحفيد والمنام!

قال : هل يقتلني يا ترى ؟

قالت : لا أدري ! ربما لأنك قتلت أمه .

خيم الصمت لدقائق بينهم ثم قال : يبدو أن منامي كان وهما كما قال الوزير وأمك عزوف زوجة اللص مناع .

ردت تسأل : هل يقبل الوزير عودتك ؟!

قال بقوة : سأكتب للملك نفسه .. سأخاطب حفيدي سيفا .

قالت : اكتب .. وأنا سأرسلها مع إحدى القوافل .

كتب الملك رسالة يستعطف حفيده بالسماح له بالعودة للبلاد لرغبته أن يدفن فيها حينما تحين

ساعته .. وكتب فيها أولا تهنئة بالملك والسلام .. ثم ذكر أن تعرض للتسمم مرتين في قصره وأنه يخشى على حياته .. وذكره بأنه جده رغم كل ما جرى بينه وبين أمه وجدته .. وذكر أنه ضعيف ويحتاج لرعاية وراحة .. وأنه يعيش في بؤس من الوحدة والعزلة .

لما قرأ سيف الرسالة بكى بعمق وحزن شديد لحال جده الذي ورث عرشه وهو حي .. ورق قلبه ونسي إساءته لأمه وجدته وله أيضا.. ونسي تهاونه في علاجها حتى ضعفت عن المقاومة وجاءها الأجل.. ونسي أنه سبب غربته وحياته بعيدا عن قومه ..نسي الحسرات وهو يقرأ الاستعطاف من جده الملك .

اطلع الوزير على الرسالة واستاء من تعرض الملك للتسمم ، ولم يكشف فاعل ذلك .. وبما أن صاحب الشأن الملك يرغب بالعفو والمسامحة .. وقد فعل ذلك مع خالته .. ويقال الأيام دواء الهموم والحزن والجروح .. وافق الوزير على رغبة الملك والسماح بعودة الملك المنفي وابنته سفانة إذا أحبت ذلك .. وأرسل رسالة وفارسا ليحقق في الجهة الغادرة التي تعرضت لتسميم الملك .. ووعد الوزير بتحسن الصداقة بين البلدين إذا تم الكشف عن الخائن .. وأرسلت الرسالة مع الفارس وغلامه وخادم سفانة .. توجه الخادم بالرسالة لما دخلوا البلاد إلى مولاته وتوجه الفارس عبدان وغلامه إلى قصر الملك حميد لنقل رسالة الوزير .

ولما تسلمت الأميرة الرسالة ذهبت بها لوالدها بعد أن أخبرت زوجها بمجيء الرد ، ليخبر جده الملك ووالده .

قرأ زرارة الملك الرسالة ، وفرح فرحا شديدا ؛ كأنه طفل صغير وبكى فرحا .

فقال لابنته : أرأيت ابن أختك الكريم الشجاع رغم أنه لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره يقدم لي كل الاحترام والترحيب بالعودة لأرض الوطن والعيش بحرية كاملة .. لا يقبل أن يكون عدوا لجده الذي ورث عرشه .. وهو حي يرزق .. بطل ـ رحمك الله يا أمامة ـ نعم ، قصرت في حقك كان عليّ أن أقبل بالقدر وزواجها .

قالت : وأرسل الوزير فارسا ورسالة للملك حميد يطلب الأخبار حول حادثة التسمم التي

تعرضت لها .

قال : هناك فارس يطلب ذلك .

قالت : أجل يا أبي ! أنا سعيدة لسعادتك ، ولا تنسى سفانة لما تستقر في بلدك العظيم .

قال : أتحبين الرحيل معي ؟

قالت : لا ، لديّ طفلان يا أبي وحامل بالثالث .. أنا أم .

وبدأ الاستعداد لرحيل الملك عن بلاد الملك حميد ، وأوصى الملك حميدا على ابنته وحياتها وراحتها وذريتها ، وشكره على تعاطفه معه ، وتحمله كل هذه السنين وطمأنه الملك ، واعتذر عن كل تقصير حدث ، وأنهم ما زالوا يبحثون عن الخادم الذي أحضر الأعشاب الضارة للملك .. وهكذا كتب للوزير غالب مع الفارس عبدان الذي أرسله ، وأنهم لم يقبضوا على الخائن .

ولما تجهزت قافلة الملك للرحيل تقدم الأعيان والسادة لوداع الملك زرارة ، ورافقه الملك وابنته وزوجها شداد إلى أطراف المدينة ، وكان الملك يركب عربة ملكية خاصة من الملك حميد يجرها جوادان قويان ، ويصحبه ثلاثة فرسان غير خدمه وغلمانه وطاهيا يخدمهم طوال الطريق الذي يمتد لمسافة ثلاثة أيام بين المدينتين ؛ لأنه في كل مرحلة ستكون راحة وطعام ونوم .

ولما ابتعدت القافلة عن عيون المودعين رجع حميد وسفانة إلى قصورهم ومعايشهم يدعون للملك بالوصول سالما معافى .

فقال الأمير لزوجته : إن شاء الله يصل بالسلامة للوطن .. ويذهب خوفك وقلقك من الطريق .. الطريق مطروقة من القوافل والتجار ؛ ربما خفت القوافل بسبب انقطاع التجارة بيننا وبينكم .. ولا تكاد تخلو الطريق من عدد منها ذهابا وإيابا .. وإن شاء الله بعد وصول الملك تعود التجارة بيننا وبينهم .. اني أراك ما زلت حزينة !

قالت بخوف أصابها منذ استعد والدها للعودة لبلدة : أحس أنها ستكون آخر مرة أرى فيها أبي حيّا يا شداد .. رغم فرحه الشديد للعودة أخشى ألا يصل إليها .. قلبي منقبض من هذه

العودة .

قال مبددا لخوفها : سنسافر إليهم بين الفترة والأخرى بإذن ربي .

قالت : أرجو أن يصل سالما ؛ ليطمئن قلبي المحروق .

قال : أنت قلقة ؛ لأنك الوحيدة التي عشت معه كل هذه السنين هنا وهناك .. الوداع والفراق يترك أثره على النفس البشرية .. سيصل بالسلامة يا سفانة !

قالت : أرجو ذلك أخشى أن يموت قبل أن يصل لبلده المشتاق إليها .. ألم يسع أناس لقتله بالسم أيها الأمير ؟!

قال : هذا قلق طبيعي أيتها الأميرة .. علاقتك كانت به قوية دون سائر أخواتك .. وهو أحب أن يموت في بلاده .. والملك سيف تناسى كل الماضي.. وعندما نرى سعادة الوالد بين أهله سنذهب إليهم .. ونقابل الملكين وأمك الملكة عزوف ونتصالح معها .

قالت : لابد من ذلك .. أنا رحلت وأمي غاضبة عليّ ؛لأني لم أتزوج من أبناء العائلة .. كان نصيبي وقدري هنا أن أتزوج من الفارس الشجاع شداد بن عُمير .. أنا مسرورة لملك ابن أختي سيف ..أرجو أن تكون بانة قد سمعت بعودته ؛ لتعود والعيش مع أهل المدينة كأميرة بدل هذا الاغتراب .. وهي متزوجة من أمير من بلادنا .

قال : أرجو ذلك .

قالت : ولد الأمير وأخفي .. خافوا على حياته من غضب أبي ومنام أبي .. لقد كاد أن يجن أبي لما علم بولادة أمامة دون علمه وزواجها سرا .. كانت أياما عصيبة على أبي وأمي .. ولو وجده لبطش به من الغضب ؛ لكن الوزير أوسا ـ رحمه الله ـ كان مدركا لخطر بقائه في البلاد .. لقد خشينا نحن البنات على حياتنا تلك الأيام من غضب وعصبية الملك .. كان يصرخ ويتهم أمي بالخيانة .

قال : الأمر أيتها الأميرة لم يكن هينا .. فهو صعب على إنسان عادي فكيف على ملك ؟

قالت : لقد سعى والدي بحثا عنه .. وطلق أمي وطردها ؛ ليصل عن طريقها إليه وإلى بانة ..

كان مناما بشعا .. وذاك الكاهن اللعين هول الأمر على أبي حتى أصبح يقينا أن المنام سيحدث ويقتل الجد بيد حفيده .

قال : كيف سيقتل الرجل جده بيده وهو سيرث الملك منه ؟!

قالت : لا يعقل ذلك إلا من حفيد حاقد مجرم .

قال : قد يحدث هذا في أيام فوضى وصراع على الحكم.

تنهدت حسرة وقالت : رحم الله أمك يا سيف !



القتل

مضت القافلة الملكية تقطع المسافات حتى دخل بعض الليل فتوقفت للراحة والطعام ، وعند منتصف الليل نام من نام ، وظل مستيقظا من لم يرغب في النوم .. وتناوب الفرسان الحرس على النوّم حتى الفجر ، وقبل بزوغ الشمس فكت الخيام ، وحملت على الدواب ، وركب الملك مركبته الملكية ، وانطلقت القافلة من جديد تجد في الوديان والسهول حتى دخل الليل كالليلة الماضية ، ونصبت الخيام للمبيت والطعام .

ونزل الملك وزوجتيه في الخيمة الملكية للراحة وانتظار العشاء، وبدأ الطاهي بإعداد طعام العشاء هو وزوجته والخدم .. ولما كمل قدم للملك والفرسان والجواري والغلمان .

وعند منتصف الليل ابتعدت زوجة الملك جاريته القديمة ، وجاريته الزوجة الثانية ، وبعض الغلمان والجواري لقضاء الحاجة في مكان بعيد عن الخيام ، وكانت بين أيديهم شعلة من النار ـ وكان قضاء الحاجة يتم في أبعد مكان عن الموقع وخلف التلال ـ وبينما هن يفعلن ذلك سمع صراخ في معسكر الملك وخيامه .. وسمعت أصوات خَيل تركض ، وغبار يرتفع في الفضاء .

فقال أحد الغلمان : أسمع صوت جياد ؛ لعلهم لصوص وقطاع طرق ..أبقوا هنا حتى أنظر الأمر ألزموا الصمت والحذر .

عاد الغلام جهة الخيام ، وشاهد الخيام تحترق ، والصراخ يرتفع أكثر فأدرك أن لصوصا داهموا المعسكر والقافلة ، فانبطح على الأرض خشية أن يروه ، ورأى على شعاع النار القتال بين الفرسان الثلاثة ، ورجال العصابة ؛ ولكنهم سقطوا موتى أو جرحى .. لقد كان اللصوص أكثر منهم ، وزحف للوراء حيث النساء ، وهمس لهم بالخطر الذي دهم القافلة ، وطالبهم بالصمت حتى يبتعد اللصوص وقطاع الطرق ؛ لينقذوا من كتبت له الحياة .. وكان يحدثهم عن معركة بين الفرسان واللصوص .. وأنهم سقطوا أرضا .. وسمعت أحدهم يقول : لقد طعنت يا فواز .. وآخر صاح : قطعت يميني يا جعفر ..لابد أنها أسماء لصوص أحفظوها ؛ لعلنا بعد انجلاء المعركة نعرف من خصومنا ؟!

لما خمدت النار عاد الغلام بلبل ومعه آخر نحو الخيام متسترين بالظلام .. وكانت بقايا النار تخبو رويدا رويدا .. وكانت هناك بعص أصوات أنين الجرحى .. وقد اختفى من ظل حيّا من اللصوص .. وقد سرقوا العربة الملكية والدواب التي لم تهرب .. وكان الجرحى عند طلوع الفجر في الرمق الأخير .... وكانا قد تابعا انسحاب الغزاة .. وقد تخلصوا من جرحاهم بالقتل دون شفقة .. ولما وصلوا الخيام وجدوا الفرسان قد ماتوا كلهم وتعرضوا لطعنات كثيرة حتى الموت .. والملك زرارة مقتولا .. وكان جثة بدون رأس .. وجاءت النسوة ورأين الفظاعة التي حلت بالملك والقافلة .. وجرى البكاء والعويل واللطم وشق الثياب .

فأدرك أحد الخدم الناجين أن كارثة وقعت ، وأن عليهم أن يعودوا لبلدهم مشيا على الأقدام وبينما هم في حيرة عادت إحدى الخيل الهاربة فاقترح الغلام أن ينطلق بها للبلاد طالبا العون والنجدة .

ومع ظهور الشمس ظهر حجم الكارثة التي حلت بهم .. فقد قتل الفرسان الثلاثة .. وسائق خَيل العربة .. وسرقت العربة .. وجل الخيام تعرضت للحرق .. ومات الجرحى ، ولم يبق حيا إلا من ذهب لقضاء الحاجة تلك الليلة .

فقال الخادم بلبل :هل أذهب لبلاد الملك سيف أم أعود للملك حميد ؟!

فقالت زوجة الملك : اذهب للملك سيف فهو صاحب الثأر اليوم .

لملم القوم ما بقي صالحا من قرب الماء ، وما بقي من الطعام ، وذهبت بعض الجواري لملء القرب الصالحة من عين الماء القريبة من منازلهم .

وكان الملك حميد قبل تحرك الملك بيومين قد أرسل رسولا للملك سيف مخبرا بموعد رحيل جده ؛ ليكونوا في استقباله كما جرت العادات والتقاليد .

ومضى الزمن ، ولم يصل الموكب الملكي.. فأمر الملك سيف بعض الفرسان في التقدم في الطريق ؛ لعل أمرا آخّرهم .. وبينما هم يمشون رأَوْا الخادم .. ورآهم الخادم ، فلما علم أنهم من مدينة اللؤلؤ أخبرهم بالكارثة والنكبة التي حلت بهم فأمروه بمتابعة المسير للبلاد ورافقه

أحدهم .. وهم مشوا إلى المكان الذي ذكره لهم .. ودخل الرجل المدينة .. وهو بغير رداء .. وهو يصيح قتل الملك زرارة .. وتبعه الناس والعوام .. وكان صوت الضجيج وصل الديوان قبل دخول الخادم حتى وصل لديوان الحكم ..

وصاح وهو يظهر جبة ملطخة بالدماء : هذه جبة الملك زرارة أيها السادة! لقد قتل الملك زرارة غيلة وغدرا!

تجمهرت الناس حول الديوان ، وسمع الملك والوزير الخبر والنبأ الصاعق .

وتحدث الرجل بالقصة واللصوص وقطاع الطرق الذين هجموا على القافلة وقتلوا الملك ومن معه ، وما نجا إلا الذين كانوا في الخلاء تلك الساعة .

ولما علم الوزير بقطع رأس الملك قال : هذا ليس عمل لصوص .. هذا أمر مدبر أيها السادة الكرام !

وتحرك ألف فارس إلى مكان الاعتداء ، يرافقهم عدد من رجال الشرطة للنظر مكان الحادث ، ومعهم عدد من قصاص الأثر البارعين .

وانتشر خبر الجريمة في كل المدينة وقراها . وقال الملك سيف: فقط ثلاثة فرسان لحماية قافلة الملك أيها الوزير !

قال الوزير بأسف بين : كان علينا نحن أن نرسل فرسانا لحمايته .. هو عندما رحل منها كان يرافقه عدد قليل من الفرسان .. فهو لم يكن ملكا عندما غادر .. ولما عاد لم يكن ملكا ؛ فلذلك لم يظن أن حياته في خطر .. كان علينا أن ندرك أن حياته في خطر من قصة السم ؛ ولكن وقع في نفسي بعد عودة فارسنا عبدان أن الأمر من الملك حميد لدفع الملك بالعودة والرحيل .

قال الملك : ما العمل ؟!

قال الوزير : سنعرف الحقائق بعد العودة بجثة الملك.. ونسأل عن فواز المقتول وعن جعفر لمن يتبع هؤلاء ؟ وإذا استطعنا تحديد المدينة التي أتوا منها سندس بعض رجالنا والعيارين والشطار في تلك المدينة .. لن يذهب دم زرارة هدرا أيها الملك .. هذه مصيبة على كل أهل

المدينة .. وليست عليك وحدك هذه إهانة كبرى لعرشك وحكمنا .

ولما وصل الخبر لسفانة أصابها الجنون والصراخ حتى صعب على زوجها وحماتها تهدئتها .. وهي تشد شعرها وتولول وتحثو التراب على رأسها وتلطم خديها وتضرب رأسها بالجدار وتقول : ألم أقل لك يا شداد إني أحس أني لن أرى أبي بعد الوداع ؟! آه .. لقد انقبض قلبي وصدري تلك الساعة مع شده فرحي لعودته . شقت الثياب ولطمت الخدود من سفانة وجواريها ، وأبكت كل من أتى إليها من نساء السادة والأمراء .

وأصيب الملك حميد بصدمة شديدة ، وندم على عدم إرساله كتيبة لمرافقة الملك ، وما كان متوقعا لمتربص ما جرى ، وأعلن الحداد أربعين يوما في المدينة ، وما يتبعها من قرى وأرسل الفرسان لمكان الحادث .

وأقسم الملك سيف لما دخلت جثة جده المدينة أمام الشعب إنه لن يرتاح له بال ، ولا راحة حتى ينتقم لجده الملك زرارة ..وإن قلبه يغلي من النار .. وأمر أن تقام أعظم جنازة له في تاريخ مدينة اللؤلؤ وقال : ويا وَيل الذين غدروا به .. وسيبكون دما بدل هذه الدموع التي نقدمها للملك الراحل .

وأحضرت جثة الملك ودفنت في حفل كبير ، حضره كل الشعب والأصدقاء من الملوك والوزراء ، ودفن في مقبرة الملوك حيث آباؤه وأجداده .

وعم الحزن جميع الناس بسب هذه النهاية ، والكل يتسأل أين ذهب رأس الملك ومن أخذه من الناس ؟!

ومع الحزن الشديد الذي أصاب الناس كانت نار الانتقام والثأر والسخط تعم الناس ، ولما رجع المهتمون بتتبع الجريمة أكدوا أن الجريمة مدبرة ومحكمة ، ولم تكن عفوية ، وكانت قافلة الملك صغيرة ؛ ليطمع بها قطاع الطرق واللصوص وتبين أن الغزاة كان بعضهم يركب البعران ، ومن براز الدواب تبين أنهم أتوا من مدن قريبة من مكان الحادث ، ولم تحدد المدينة التي جاءت منها تلك الدواب ، وهم كانوا يعرفون بمغادرة الملك عائدا إلى بلاده .

فقال الوزير : سنتهم الملك حميدا حتى نجد أدلة تشير إلى غيره .

ـ ولكن رأسه يا مولاي !

قال : هو الذي سيدلنا على عدونا .. سنبحث عن الرأس.. لابد أن أحدهم طلب رأسه .. وإلا لو قطاع سبل لماذا يأخذون الرأس ؟! .. ولم يقطع إلا رأسه .. ناس تتعقبه .. والحكاية لابد أنها بدأت في بلاد حميد نعود للسم السم .. من وراء هذه الحادثة ؟ يجب أن نعرف المخاطر التي أحاطت بالملك وهو عندهم .

قال الملك : نعم ، لن أتزوج حتى أعرف فاعل هذه الجريمة أيها الكرام .. لا أحد يحدثني عن زواج الملك.



غضب سيف

كان الحدث صدمة قوية للملك سيف ، كان في شوق للقاء جده الملك بعد أن سمع قصة منامه ، وحرمانه بناته من الزواج خشية أن يلدن حفيدا يقتله ، فتزوجن رغما عن أنفه ، وكانت أمه بكر الملك تزوجت من أبيه لؤي ابن وزير البلاد خفية ، ولما ولدت علم بقصة زواجها ، ثم هربت خالته بانة ، وتبعتها خلود .. كان في شوق حقيقي للقاء الجد رغم الإساءة القاسية لأمه بإهمال علاجها ؛ ولكنها ابنته كما هي أمه .

فقال مخاطبا الوزير : لماذا جزوا رأسه أيها الوزير الحكيم ؟!

قال : هذا يدل يا مولاي أن أحد السادة يطلب دمه .. هل هناك ملك دفع لهذه العصبة من اللصوص لارتكاب الجريمة ؟ فالرأس يؤكد له تنفيذهم الجريمة والقتل .. وهو يريد بذلك إثارة الحرب بيننا وبين الملك حميد.. وهذا سيساعدنا بإذن الله على معرفة من هم من وراء الجريمة !

قال سيف : ألا يكون الملك حميد وراء ذلك ؟

قال : لا ، لا .. فهو صديق قديم .. صداقتنا منذ حياة والد جدك الملك نعيم .. وأنا أتهمه فقط بالتقصير في حماية الملك أو سوء تقدير ؛ لأن الملك تعرض للسم كرتين .. ولما أرسلت فارسا يتحقق من ذلك تبين أن أحد الخدم قدم بأعشاب سامة زاعما لهم أنها من طاهي القصر ـ قصر حميد ـ ويريد الملك أن يخص بها طعام نزيله وصديقه .. ومرض الملك على أثرها وتحدث مع ابنته وظن كما فهم الفارس أن الملك ظن أن حميدا وراء ذلك .. فقالت البنت خالتك لزوجها ، فأخبر جده الملك وقدم كبير الأطباء ، ورئيس الشرطة ، وعرفوا القصة .. والملك حميد حفيده تزوج خالتك سفانة فلا يقدم على اغتياله .. إنما العتب أنه كان عليه أن يرسل معه عددا كبيرا من الجند .. ونحن أيضا قصرنا في إرسال سرية لمرافقة الملك .. في النهاية نقول جاء الأجل .. فهناك من يريد أن ندخل مع مدينة حميد في صراع وقتال سيتكشف ذلك مع الأيام .. وتفحص رجالنا طعام دواب الغزاة ؛ ولعلهم يستطيعون معرفة المدينة أو المدن التي أتى منها القتلة ..

لقد أرسلنا رجالا لجلب بعران وروث من تلك المدن ؛ لعلنا بعد حين نستطيع تحديد المدينة المجرمة .. وسيكون ثأرنا شديدا ومدويا .. وسنركز بعد حين رجالا أذكياء للتلصص والتبصبص في المدن ؛ لعلهم يسمعون شيئا .. وهذا يحتاج لوقت حتى يثمر إلا إذا عرفنا الخصم سريعا باعتراف القاتل والجهر به .

قال : لن يهدأ لي بال أيها الوزير حتى أعلم قتلة جدي المسكين .. لابد من القصاص من كل هؤلاء القتلى .

قال غالب بعمق : هذا الاعتداء له أهداف ستتكشف قريبا ، لم يكن مجرد حظ عاثر .. حتى اللصوص لما يصدف ويلتقون بقافلة ملكية يتريثون في الجريمة ؛لأن عواقبها ستكون وخيمة عليهم أيها الملك .

قال : لابد من القصاص أيها الوزير .

أكد الوزير فقال : نعم لابد منه .. وسيعرف عيوننا وجواسيسنا وأصحاب الخبر من أين أتت اللصوص ؟ ولن نجر لمعركة مع الملك حميد .. فنحن لنا تاريخ طيب معهم ، ونساعدهم ضد الغزاة عليهم .. وابنتا متزوجة لديهم ، وغيرها من نساء بلدنا متزوجات بينهم ، وكذلك بناتهم .. فلنا تاريخ مشترك منذ حياة والد جدك زرارة ؛ ولكني أشعرتهم بأنهم قصروا في حماية الملك .. وهناك تهاون واستخفاف في الحراسة ؛ ليساعدونا بقوة في البحث والتحري عن الخصم المجهول .. وسيذهب بعد حين قائد الشرطة وعدد من أفضل رجاله للبحث والنظر وسيهتمون بإثبات براءتهم من دم الملك .

قال : قواك الله أيها الوزير الحكيم ! نعم ، علينا أن نكون أقوياء .. وليستعد الجيش لأي غزو أو مطاردة .

قال : اطمئن أيها الملك ! الجيش متشوق لمعركة الثأر.. ونحن لا نقبل الذل مهما دفعنا من ثمن لكن الحكمة والحذر مطلوبان ، سنعرف الظالم حتى إذا حاربناه لا يبدو أمام الملوك مظلوما .. ويحرض الناس علينا .. سوف ترى بأس قومك وجندك أيها الملك الشجاع!

محاولة الصلح

أرسل الملك حميد وزيره بهلول بن فراس لبلاد سيف للعزاء مرة أخرى ـ فهم بعثوا القاضي الأكبر بوفد للمشاركة في التعزية العامة والدفن ـ وذهب الوزير للتعزية والاعتذار عن التقصير في حماية قافلة الملك لعدم توقعهم لمثل الأمر ، فقد قام الملك بأكثر من مرة بالخروج من المدينة لزيارة بعض الملوك والأصدقاء .

استقبل الوفد حسب الأصول والتقاليد ، وتقبل الملك سيف العزاء وقبل الاعتذار ، وطلب منهم التعاون في التحري والبحث عن الغزاة والقتلة للقصاص منهم سواء من بلدهم أو بلده أو أي بلد أخرى ، ووعدوا بكل تعاون واهتمام ، وأن الاعتداء على ضيفهم كأنه اعتداء على الملك حميد والمدينة كلها .

وقال الوزير للوزير : لم نكن نرى خطرا على حياته ، فلهم عدة سنوات بيننا ، وزار الملك حبيب ، ومكث عنده أياما دون حراسة مشددة ، ولم يكن ممنوعا من الحركة .. وهو صهرنا وجد أولاد الأمير شداد كما جد الملك سيف ، ولما رغب بالعودة إليكم فعل دون تشاور معنا ؛ إنما هو راسل حفيده الملك سيف ، وأعلمنا بموافقة الملك على العودة .. وليس من حقنا منعه

ردد الوزير : نعم ، ليس من حقكم منعه .

قال بهلول : وجرى لهم حفل وداع من أمراء وسادة البلاد ، وفيهم مولانا الملك ، ورافقه الملك وابنته وبعض الأمراء حتى أطراف المدينة ، ولما غاب عن الأنظار قفلنا راجعين .. وهو سار على طريق القوافل المعتاد بيننا وبينكم ، ولكن استغل القتلى خلو الطريق من كثرة القوافل .. فهذا يدل على أنه عمل مدبر ومرسوم .

فقال غالب : وهذا مؤكد لدينا من قطع رأسه ، لابد أنه أخذ لجهة ما ، وسيقوم رئيس الشرطة ورجال له بزيارة مدينتكم لمعرفة قصة تسمم الملك في محاولتين .. ولولا سرعة الأميرة بالشكوى للملك حميد ؛لربما كررت المهمة .

قال : نعم ، تحرى رئيس الشرطة في القضية ، وكشف عن وجود خادم قدم لهم أعشاب كهدية

من مطبخ الملك حميد ، ولم نصل لهذا الخادم فهو خادم مزور ؛ بل هناك كانت شكوك في زوجاته .

قال غالب دهشة : زوجاته كيف ؟!

أخذ بهلول نفسا وشرح :كيف ؟ عندما ذهب الملك في زيارة للملك حبيب وقضى ضيفا عشرة أيام في عبسان ، عاد ومعه جواري وغلمان كهدايا ، ووزع بعضها علينا ، واتخذ واحدة منهن سرية ، فاحتجت زوجته ، فوعدها أن يعتقها بعد حين ، ولم يفعل .. فكانت تحدث منازعات بينهن .. وكما نعلم أن زوجته كانت جارية مخلصة ، فلما طلق الملكة عزوف تسرى بها ، ثم أعتقها وتزوجها .

قال غالب: نعم ، هذا معروف لنا ؛ ولكن هل يصل التنافس بينهن لقتل الملك بالسم ؟

قال : رئيس الشرطة راودته هذه الشكوك ؛ لكن لم يتم القبض على الغلام .

قال : الأمر مثير أيها الصديق ! لكن قتله بذلك العنف يخفي محاولة حقيقية لقتله بالسم .. وبعد معرفة الجناة ستتحسن العلاقات بين بلدينا كما ترغبون ؛ لأن الناس غضبى اليوم .. وستهدأ الأمور في مستقبل الزمن .

قال بهلول : سنتعاون معكم لأقصى طاقة لمعرفة الجناة .. ونرحب برئيس الشرطة في إجراء البحث والتحري .. فكما يهمكم القبض عليهم يهمنا ذلك ، فهو جد أبنائنا كما هو جد الملك سيف !

قال غالب : مع عودة سيف كملك وحفيد أحب أن يفتح صفحة جديدة مع جده وخالته ، وأن ينسى الأحقاد ويثبت لجده أنه لن يموت على يديه لما طلب هو منه العودة .. ويريد أن يتسامحا عن دم أمامة أم سيف وابنة الملك الشهيد .. كنّا نسعى للود والصفاء والحب مهما حدث .. فهن بنات الملك شئنا أم أبينا ؛ لكن أحوال زواجهن كانت غريبة كما تعلمون .

قال بهلول : نعم ، ذلك المنام اللعين !

واعترف غالب قائلا : نحن أيضا قصرنا في حماية الملك على أساس أنه رحل عنا غصبا عنا ..

ورافقهم عشرة فرسان فقط عند رحيلهم .. ولأنه لم يكن ملكا ليخاف عليه من الغدر .. فقد قضى سنوات معزولا قبل سفرة لبلادكم .. إنه القضاء والقدر يا وزير بهلول .

قال : نعم ، حكم القضاء والقدر .. ولن يفلت المتربصون بأذن الله من العقاب .

قال : ونحن لما وصل رسولكم بخروج الملك من دياركم أرسلنا مائة جندي للالتقاء بهم في الطريق ..وإنما ذهبوا لاستقبال الملك ، ومن معه وإلا لساروا مسرعين .

قال معتذرا : نحن لم نأخذ حادثة السم بصورة جدية أو قصرنا في فهمها ؛ لأنه في المحاولتين مرض المرض وتعب ، وعالجه الطبيب في الأولى على أنها وعكة عارضة لم يتحدث فيها عن السم ، ولما خف المرض عاد إليه .. فهو حدث الأميرة سفانة عن السم .. فأسرعنا بالتحرك ، وصادرنا الأعشاب السامة .. وهي بفضل الله لم يكن مفعول سمها سريعا ؛ لذلك في المرة الأولى ظن الطبيب أن الأمر مرض كما نمرض نحن من الأكل من الجو .

فقال الوزير معترفا : أحدهم يريد الفتنة بين بلدينا .. سيكشف نفسه بصمتنا في الوقت الحالي وسأهتم بأمر الزوجات .. فهن يعشن في قصر الملك الصغير ـ قصر زرارة حيث تقرر عزله ـ علينا أن نتعاون في كشف الخطر المحدق بِنَا وبكم .. وعليكم أن تعدوا جيشكم ؛ ربما تنشب حروب بسبب اغتيال الملك .. هناك تدبير أقوى من نساء الملك إلا إذا مكر بهن ، واستغل أحدهم ما نشب بينهن من غيرة فَلَو قتل الملك ومات بينكم ؛ ربما جرى نهر من الدم بيننا وبينكم قبل أن تكشف الغمة .. ولما فشل القتلة بقتله سما وعودة سيف والسماح لجده بالعودة غيروا الخطة والمكيدة .. لسنا أغبياء يا وزير بهلول .. نعم مكر وكيد ستكشفه الأيام القادمة سيكون غزو على بلادكم إني ألمح هذا التدبير !

قال بهلول دهشا من تنبؤات غالب : غزو على بلادنا ..لم أفهم وكيف؟!

قال وكأنه ينظر في كتاب الغد : لن يكون قتل زرارة مجرد قتل واغتيال ملك ! كونوا على حذر

ـ إنك تثير الرعب في قلبي !

قال : نعم ، هناك عدو يريد قتل زرارة في بلدكم فَلَو مات زرارة بينكم ستتهمكم بقتله ،

وسيطالب أقاربه والشعب بالثأر منكم ؛ ربما دارت بيننا معارك ، ثم توقفت .. فسيقوم قتلة زرارة بغزوكم بعد أن أضعفت الحرب جيشكم وجيشنا علينا أن نعرف من وراء القتل والاغتيال الجبان .

قال : أفكارك غريبة أيها الوزير الحكيم !

تمهل سيادة الوزير في الإجابة ثم قال : أنا منذ سماع نبأ الجريمة وأنا أدرس وأفكر في ذلك .. ولماذا قتل ؟ ولماذا سمم ؟ نحن نريد رأس الملك حتى يدفن مع جثته أيها الصديق ! عندما تعود للبلاد تحدث مع قائد الجيش بالحذر والاستعداد ، وإذا احتاج الأمر لجنود سنرسل لكم ألف جندي .

قال بحيرة : ما زلت لا أدري كيف تفكر أيها الصديق ؟!

قال غالب : ستعرف كيف أفكر عندما ترى الأمر على الأرض ؟

قال الآخر مؤكدا التعاون : سنكون معكم في البحث عن الجناة .. وسأوصي قائد الجيش الأمير أبي يزيد بزيادة الحذر لحين من الزمن .. وسنرحب بفريق البحث الذي سيصل من مدينتكم ؛ لأنه كما سلف يهمنا معرفة الغزاة والقتلة ، ومن دفعهم لهذه الجريمة العميقة على ما يبدو من كلامكم العظيم والتفكير العميق ؟!

قال : لن ننجر لحرب معكم .. فنحن بيننا نسب وحسب .. فالملكة سفانة نزيلة عندكم .. وهي أثنت على كرمكم وشجاعتكم كما كتبت لي ولسيف ابن أختها وأنكم بريئون من دم الملك .

قال بهلول : حتى حرس القصر الخاص بزرارة الملك كان عددا بسيطا ؛ لعلك تذكر الكاهن اللعين غياثا .. لقد جاء للحياة مع الملك ، وصمم زرارة على ذلك .. وحبسه ملكنا .. وغضب زرارة ، وكتب إليكم يريد العودة أو نفرج عنه ورفضت تلك الأيام عودته .. واحتار ملكنا .. ثم هرب اللعين من السجن كما هرب من سجنكم .. فهدأت الأمور حتى ظهر الملك سيف فرغب الملك بما تعلم .

قال : نحن نعرف ذلك الكاهن الشرير حق المعرفة ، والملك الشهيد متعلق به أو تعود عليه عندما كان ملكا هنا .. فصعب عليه فراقه .. وذاك رجل خبيث يستغل عاطفة الملك نحوه.. ألم تعرفوا أين ذهب ؟

قال :لا ، رشا بعض المساجين والحراس ، وتعاونوا على الهرب ، وعلمنا أنهم خرجوا من المدينة فور هرّبهم ، ولم نعد نسمع عنه ، ولم يحاول العودة للملك ؛ لأنه أصبح طريدا ..كان الملك الشهيد يرسل له الطعام إلى السجن ، وطلق ابنته ليفرج عنه الملك ، ولما هرب حلت المشاكل هدأ زرارة ، وعادت الأميرة لزوجها .

قال : وهربه أيضا أراحنا من عودة زرارة .

قال : وبعد هربه خففنا من حرس القصر حتى لا يضيق زرارة من ذلك .

ولما أراد الوفد الانصراف، ودعوا الملك سيفا ، ووعدهم بتحسن العلاقات عندما ينجلي أمر اغتيال جده زرارة .

شكر بهلول الملك :شكرًا يا سيدي الملك على ضيافتكم وحسن استقبالكم لنا كل هذه الأيام ! ونتمنى مثلكم القبض على عصابة المجرمين، وأن نعرف من دفعهم وحرضهم على ارتكاب هذه الجريمة النكراء ؟ إنه أمر دبر بليل ، وسيكشفه الله ؛ لينال المجرم جزاءه وعقابه .. نعم أبشركم أن دم جدكم لن يذهب هدرا ما دمتم تجلسون على هذا العرش.

الوفد

كان لزيارة الوزير بهلول صدى طيب في بلاد اللؤلؤ ، وعلى أثر هذه الزيارة وبعد انتهاء مدة الحداد الملكي الأربعين يوما ، أرسل الوزير غالب وفدا كبيرا وسرية من الفرسان رافقتها لبلاد جلال الدين ، وكان الوفد برئاسة الملك مرارة الذي تنازل عن العرش لحفيد أخيه زرارة حسب القانون والنظام في بلاد اللؤلؤ .

وكان الملك حميد ورجال الحكم في الاستقبال ، وجلسوا جميعهم على مائدة الملك ، وبعد الراحة تذاكر الكبار ذكريات الماضي والصداقة الكبيرة التي كانت تجمع بين البلدين ، ثم تحدثوا عن حياة زرارة في بلدهم ومقتله وسعيهم في كشف غموض الجريمة .

وزار الملك مرارة ابنة شقيقه زرارة في بيتها وعزاها في والدها ، وكان قد طلب منها أن تنتظره في قصرها ، ولا تأت للسلام عليه ، وسيقوم بزيارتها بنفسه ، وبكت الأميرة بين يديه ، وواساها ، وندمت على رحيلها عن بلادها ، فبين لها أن هذا قدر الله ، ولا مفر منه ، لو لم ترحل سيحدث القضاء ، ويقتل الملك ، وأن المهم الوصول للجناة الذين هم وراء هذا الظلم الغاشم .

وزار الوفد القصر والبيت الذي عاش فيه زرارة سنوات الغربة والنفي ، وكان المكان مهجورا إلا من بعض الحرس .

وأعلن الملك حميد أمام الوفد براءته من دم الشهيد زرارة ، ولا يمكن أن يفكر بالخلاص من صديقه بهذه الطريقة العنيفة ، وأن أناسا أرادوا الفتنة والحرب بين البلدين ، ولم ينجح كيدهم لوعي الطرفين للمؤامرة ، وأنه قبل مجيئه من باب الصداقة التي كانت بينهم والذكريات التاريخية والرجاء والتوسل الذي كتبه الملك ، وأطلعهم على رسائله إليه ، وأنه هو الذي طلب الحياة في ضيافته ، وأن الأزمة التي حدثت بسبب الكاهن انتهت بهرب الكاهن الذي كان يسعى للفساد بينهم ، وإقناع الملك بغزو بلاده بالتحالف مع أحد الملك المغامرين ، ويقاسمه العرش ، واهتم الوفد بهذا الكلام الجديد على مسامعهم ، وأخذ زرارة هذا الكلام من باب

الهزار ، ورفع الروح النفسية للملك .

ولما رحل الملك لم يطلب المزيد من الحرس للحماية ، كان متلهفا لرؤية حفيده أكثر من شوقه للعودة نفسها ، وكان يذكر من أسفه في حق ابنته أمامة ، وأنه قصر بعدم تزويجها كما تتزوج بنات الملوك ، وأنه قصر في رعايتها الطبية ؛ فكان مشتاقا لرؤية الحفيد ، وطلب السماح منه في حقه ، وحق أمه .. هذا من آخر ما كان يتكلم به .. وجرى له حفل وداع في قصره ، وودع إلى أطراف المدينة .

واعترف الملك أن الرجل تعرض للسم مرتين في الأكل، وقد قدم للطهاة عشبا ساما على أنه هدية من طباخين القصر الملكي ، ثم تبين لهم أن الخادم الذي أعطاهم العشب مجهولا ومتنكرا وبعد شهر أو أكثر قدمت حلوى على أنها هدية من ابنته سفانة .. وكانت الأميرة تفعل دلك بين الحين والآخر .. وكانت تذهب بها بنفسها إلا تلك المرة مما أدهش الحرس ورفضوا إدخالها للملك ، وكانت جارية قدمتها لهم على أنها من خادمات الأميرة ، وذكرت أن الأميرة كانت تريد أن تأتي بها ، وحدث أمر منعها من المجيء، وتبين أن الحلوى مسمومة ؛ لأننا قررنا عدم إدخال أي شيء على القصر إلا بموافقة الطبيب وإشرافه ، وتبين أنها دسيسة ، ولم نعرف من وراء هذه الحلوى أيها الأخ العزيز ، ثم لم يتكرر الأمر بعد ذلك حتى جاء موعد قبول عودته إليكم بعد تنصيب حفيده ملكا على البلاد .

شكر الملك مرارة الملك حميدا على ضيافة شقيقه كل هذه السنوات وقال : ونحن لم نرغب بمنعه من تحقيق رغبته بالخروج لبلادكم ؛ لأنه عندنا إذا عزل الملك لأسباب معينة كما حدث لشقيقي عليه أن يبقى محبوسا في قصره .. وأي زيارة له تكون تحت علم الوزير والدولة خشبة المفسدين والمتربصين .

قال حميد : كان الملك أثناء وجوده يحب الشعراء ..فكن نرسل بعضهم لفعل ذلك .. وكان له الحرية في الذهاب والحركة ، لم نحب أن نحبسه ؛ لأننا لم نكن نعتقد أن أحدا يفكر بقتله وموته وهذه الأحداث كلها جاءت مع مجيء صديقه غياث اللعين .

قال : لقد جاء معي رئيس الشرطة الخفية القائد عسكر ، وبعض رجاله لتسمح لهم بالحديث مع من يحبون ممن قاموا على حراسته وخدمته .. أيمكن أن يكون أحد الشعراء الذين يرتادون قصره جاسوسا لأحد ؟!

قال : الشعراء جلهم من بلدنا ؛ لكن قد يضيفنا شاعر من مدن أخرى فيرافق شعراءنا إلى مجالس الملك .

وعرف مرارة الملك على أحد الرجال من أعوان عسكر ؛ ليقوم بالتحقيق مع من كان قريبا من قصر الملك .

رحب الملك بذلك وقال : وسيكون معه الأمير شداد ويبذل كل التعاون .. فزرارة صديق عزيز على نفسي .. ومناي أن أشهد قتلته يقتلون أشد العذاب والقتل .

قال : بوركت أيها الملك الصديق !

وافق الملك حميد على التعاون الكامل في تعقب قتلة الملك ، واجتمع قادة الحماية السرية وأصحاب الخفية لتبادل الأنباء المتوفرة لدى كل فريق ، ثم رتب القائد عسكر بن ظافر عيونه في المدينة ، ورجع لبلاده واثقا من قدرة رجاله على التعسعس والتلصص ، وأطلع الوزير على ما فعل .

وقال بعدئذ : رغم تكرار محاولات الاغتيال بالسم لم يتابع رجال الخفية لديهم القضية .. كان هناك من يتربص بالملك بحياته .. تأكدت أن ذلك لم يفعل لإرغام الملك على الرحيل ..كان الملك مقدرا بقاءه حسب الاتفاق بينكم وبينه .. ولما علم الجاسوس أن الملك سيعود لبلاده رتب أمر الاعتداء على القافلة ليبدو الأمر أن لصوصا استولوا على القافلة ؛ ولكنه أخطا بطلب الرأس ، وظن أن النار والحريق ستخفيان قطع الرأس ؛ ربما طلبه من القتلة ليتأكد من تنفيذ الخطة .. وأنهم قتلوا الملك.. هو يقصد الملك ؛ لأن باقي الأشخاص خدم وحراس .. فنحن نبحث عن شخص كان يكثر التردد على مجلس شعر الملك .. عن شخص غريب كضيف على أحد الشعراء الذين أمرهم الملك حميد بزيارة الملك وإلقاء القصيد أمامه ..

وأعتقد أن لمدينة حمصان علاقة بالجريمة ، وأرسلت إليها عشرة جواسيس ؛ لأن بعض شعرائها زاروا الملك بصحبة شاعرين من بلاد حميد .. وتردد عليه بعض تجار بلدنا في الأيام الأولى لرحيله .. وبعد زواج سفانة انقطعوا عن مجلسه .. وزاره تجار من تلك المدينة .. وكان يوصيهم على ألبسة معينه لإهدائها للشعراء والأصدقاء ..ويقوي هذا الشك هرب غياث ومن ساعده على الهرب إليها .. وكذلك أعداء حميد يلجئون إليها .. ولا تنسى العداوة المتأصلة بين المدينتين .

وتابع بيانه : وعلمت أن علاقات مدينة حميد مع تلك البلاد والمدينة حمصان ضعيفة بسبب الماضي السيء بين البلدين ولهروب عدد من مساجين حميد إليها .. ورفضوا التعاون معهم في البحث عنهم وإعادتهم .. وهناك تحرشات بين رعاة البلدين على المراعي المشتركة .. والصلح بينهم هش .. ممكن أن يحدث بينهم في أي وقت حرب خاصة بعد اعتلاء عرش البلاد ملك جديد منذ سبع سنوات .. وأرسلت عيونا لي إلى قصره ، وتلقط أخباره ومغامراته .

قال الوزير بعد سماع تحليل القائد : المهم أن مدينة حميد بريئون من دم الملك .

قال : إنهم بريئون ؛ ولكنهم لم يتابعوا قصة السم الذي تعرض له الملك .. واكتفوا بمنع دخول أي مادة دون مراقبة .. وهذا إجراء احترازي جيد على الحكمة التي تقول درهم وقاية خير من قنطار علاج .

قال :وحكاية الكاهن اللعين غياث .

قال : هذا ـ كما نعلم ـ حبسه الملك حميد ؛ لأنه كان يحرض الملك على الاتفاق مع أحد الملوك على أن يقاسمه العرش ؛ ليعود إلى العرش ، ولم يعرف أي ملك سيتفق معه .. نقلت الأميرة سفانة هذا الكلام لزوجها ، وقاله للملك ، فاجتمع الملك معه ، وحذره من الدسائس لبلاده ، وألا يستمع للكاهن ، وغضب الملك من حميد .. ولما رجع الكاهن للمكث مع زرارة حبسه حميد ، وأراد تسليمه لنا ؛ ولكن زرارة جن جنونه ، وأجبر ابنته على الطلاق ، وأرسل إلينا يطلب العودة ، ورفضنا كما تذكر ، ولما هرب غياث من السجن كما هرب من عندنا عادت

الأمور إلى الهدوء والسلام ؛ ولكنهم علموا أنه التقى به عندما زار زرارة مدينة الملك حبيب .. ولما رجع ، لم يلتقيا كما أخبر الحرس بالقصر الملكي .

قال الوزير بحسم : هذا الكاهن الشيطان أريد أسره يا ابن ظفار قد نجد لديه أسرارا وأنباء .

قال : هل يشكل خطرا على الملك سيف ؟

قال : قد نجد عنده معلومات فحسب.. هو إنسان في هيئة شيطان ، كان زرارة مهووسا به ، ويسمع كلامه ..كان شقيقي أوس يرغب بسفك دمه بسبب منعه الملك من تزويج بناته ، وليبعده عن الملك ولو بالموت ؛ ولكنه يخشى من تعلق الملك به فيموت أو أن يجعله شهيدا .

قال : هل من فكرة لديك للوصول إليه ؟

تبسم الوزير ورد : أنت رجل الأفكار والحيل يا ابن ظفار .. قد يكون ميتا.

قال : ممكن ! هذا الرجل لم نسمع أنه تعرف على ملك أو وزير لنقول إنه يعمل معه .. قد تلد حيلة في ذهني وفكري ودماغي .. سأضعه في تفكيري أيها الوزير ..علينا أن نصطاده قد نعرف مع من كان يحاول إقناع الملك بقسمة الملك والتاج .

قال : أجل عليك باصطياده ..استعن باللصوص في البحث عن قتلة الملك .. فهؤلاء اللصوص تجد لديهم قصصا وحكايات أغرب من الخيال ، ولهم صداقات مع لصوص المدن الأخرى .

قال : سأفعل سأدس بينهم عددا من أعواني على أنهم لصوص من مدن أخرى

قال غالب : نحن نثق بذكائك أيها الشجاع!

قال بحماس : سأكون عند حسن ظنك ـ إن شاء الله تعالى ـ وكما صدقت الهمة مع شقيقك سأصدقها معك .

قال :لقد أثنى عليك شقيقي أوس أكبر الثناء .. وقال أنت رجل المهام العظيمة والغايات الكبيرة .

ترحم على الوزير أوس فقال : رحمه الله كان سيدا عظيما ومخلصا للبلاد والعباد ؛ لعلي أتحرك

بنفسي أيها الوزير الشجاع ، لابد من معرفة قتلة الملك ، ومعرفة الغاية من القتل .

قال : الغاية كما رجحنا لإثارة الفتنة بيننا وبين الملك حميد ، وذهبنا للحذر وعدم التسرع في الاتهام والحكم حتى تخيب غايتهم ويفضحون أنفسهم .

قال : هذا يثبت مع الأيام .. بعض المدن تعيش على الحروب والصراعات والمعارك .. لا يحبون السلام .. حياتهم المكر والدسيسة بين الأمراء والمدن .

قال : نحن بعيدون عن تلك المدينة خاصة مدينة حمصان ، هم يطمعون بضم مملكة حميد إليهم لحياة بعض عائلته عندهم لأحداث قديمة طردوا من أجلها من بلدهم.

قال عسكر: صحيح ! علينا إثبات يدهم في الجريمة .. فهم لولا تعاوننا مع مدينة حميد ومعرفتهم لشدة بأسنا لتحركوا إليهم .. هم يعلمون أننا في لحظة ما سنقف معهم ، ولن نتخلى عنهم .. وأيضا علاقتهم سيئة مع مدن أخرى قريبة منهم ؛ لذلك أرسلت عددا من رجالنا إلى تلك المدينة أكثر من مائة عين يعملون هناك .. سيعود رأس زرارة بإذن الله . . وأنا تحدثت مع قائد الجيش عن غزوهم إذا ثبت لدينا شيء .. وعلى الجيش أن يكون مستعدا للغزو ، وللمحافظة على المدينة من أي غزو .

قال مشجعا ومهيجا : هذا يومك يا ابن ظفار الهمام .. الملك الشاب يريد منا الكثير .. فهذه أول قضية في ملكه وحكمه .. كان مشتاقا لرؤية جده الذي حرم أمه من الحياة ، وحرمه من العيش في هذا الوطن .

قال : قدر الله أيها الوزير ألا يرى جده إلا ميتا!



طلاق سفانة

منذ موت الملك لم تعد سفانة لطبيعتها ، كانت حزينة كثيرة البكاء تقول : إنها هي التي سببت قتل والدها ، لا تخرج من البيت لزيارة لأمر ما ، حتى أنها لم تعد تهتم بأطفالها مراقبة ولعبا ، تركت كل ذلك للخدم ،لم تعد تمكن زوجها من نفسها ترفض أي معاشرة زوجية ، صبر على ذلك الأمير شداد ستة شهور ، ثم أخذ يطلب حقه كزوج .

بين لها وذكرها أن الموت سنة الله في خلقه ، وكل مخلوق لابد من موته ، وأن الحزن لا يجب أن يدوم ، وعلى الحياة أن تستمر ، ولكنها مصرة على الحزن ، وجعلت نفسها أنها السبب في موت والدها ، وسعت أمه لرفع الحزن عنها دون فائدة ، واستمرت في عزلتها . فقال لها الأمير : الأمر لا يُطاق أيتها الأميرة كل الناس تحزن وتبتلى وتموت .

نظرت إليه بسخط وصرخت : إنه أبي ! أبي الملك يموت هكذا !

قال : كله موت. .أهل الشر كثر كما هم أهل الخير كثر انتهى الأجل.

صاحت : أبي أبي المسالم يموت قتلا وتجز رأسه كجدي !

أجابها : أهل الغدر لا ينتهون .

قالت : ماذا تريد مني ؟! ألا تريدني أن أبكي أبي المقتول ظلما وخيانة ؟!

قال :قلت احزني . .كلنا يحزن ونبكي ؛ لكن لكل شيء أمد يقف عنده .

قللت متحدية : سأبقى حزينة حتى أموت حتى أموت .. اعتبرني ميتة !

قال : والأولاد يشكون منك .. تصرخين في وجوههم .

قالت بحنق : اسمع أيها الأمير .. أنا لم أعد أصلح زوجة ، ولا أما .. الحزن يغمرني الحزن يقتلني .. الندم يذهب بعقلي .

قال مستغربا : وما ذنبك أنت؟! اعقلي أيتها الأميرة .. الحياة أقوى من الموت والحزن ..لو كل إنسان يفقد عزيز تتوقف حياته لخربت الدنيا وإعمارها .. صبرت على حزنك ؛ ولكنه طال والنَّاس تتحدث بذلك .. الموت حدث يومي .

رددت : الملك ليس ككل الناس .. أبي العظيم يموت قتلا !.. ويقطع رأسه أين رأسه يا شداد ؟! ستة شهر انقضت والرأس لا يعلم أين هو ؟ أين الرجال ؟ أين الفرسان؟ أبي يذبح كالخراف في حظيرة الجزار !

قال بصوت منخفض : أهلنا وأهلك يبحثون عن الرأس والقتلة .

قالت : ستة شهور مضت دون خبر أي بحث يحدث ؟!

قال : لم يكشف أحد ممن حولنا عن جريمته ..الأمر يأخذ وقتا ..أتريدين أن أتزوج عليك؟ أنا أريد زوجة في بيتي .

ـ وزوجاتك !

قال : منذ تزوجتك هجرتهن .. وأنت تعلمين ذلك فكيف أرجع إليهن بعد هذه السنوات ؟!

قالت : وأنا لم تعد لي رغبة بالرجال .

قال : أتقصدين الطلاق ؟!

قالت : إذا كان هو الحل فأنا راضية به .

قال : أتسمحين لي بالزواج عليك ؟

صاحت وهي تضرب رأسها ضجرا : تزوج يا شداد .. والأفضل طلقني ؛ لأنني سأعيش بقية العمر في بكاء على أبي ..لا أحد حزن عليه مثلي ..كلهم يكرهونه .

خيم على الجو الصمت لبعض الوقت وكانا ينظران في عيني بعضهما ثم قال شداد : أطلقك وتعشين مع الأبناء معززة مكرمة !

صاحت بنبرة غاضبة : ولماذا أعيش هنا ؟! فبلادي مفتوحة لي .. والملك فيها ابن أختي .. وأنا خالة الملك يا سيادة الأمير !

ـ وأولادك !

صاحت بصوت أعلى من الأول : لا أريدهم .. فليبقوا عندك .. عند أمك برقوقة .. سأعود لبلادي ، لم يعد لي رغبة بالعيش في بلادكم بعد أن خسرت أبي .

قال بضيق : إنه كان راحل عنا يا سفانة .. ونحن لم نقتله أو نتآمر على حياته .. هو أحب العيش معنا .. سأتحدث مع أبي وجدي بأمرك .

قالت : تحدث مع من شئت ..لم أعد أصلح زوجة لك يا شداد .. ولا حتى أما .. ستبقى بيننا الذكريات الحسنة .. عندما يعود رأس أبي ويقتل قتلته .. قد أكف عن الحزن والبكاء.

قال بعطف وأمل : لقد أحببتك ! .. قالت : وأنا أحببتك !.. قال : ولقد ولدت لي .

قالت : سأتركهم لك مكرهة يا شداد ! كان أبي كل حياتي .. تعلقت به منذ خلع عن الحكم كم بكيت يومئذ من أجله ! . .لم نكن نراه كثيرا يا شداد أثناء حكمه وسلطته .

قال : تعلقك بأبيك مضرب المثل يا سفانة ! وتخليك عن العرش يدل على ذلك .. وهو معروف للناس .. وكلنا استغرب ذاك الحب منك لما علمناه من حرمانكن من النكاح !

قالت : لذلك لم أعد أصلح أما وزوجة .. أحببت أمي ؛ ولكنها خذلتنا وتزوجت لصا ، فذهب حبها من قلبي وروحي .

قال مدافعا عن أمها :لقد تاب ذلك الرجل قبل أن يلتقي أمك بعشرات السنين .. وأنجب لك أخا .. وهو قريب أمك .. لم يكن شيطانا يا سفانة ! أمك امرأة شجاعة .. ولولا شجاعتها ما جاء الملك سيف !

قالت : إنك تدافع عنها كأنها تعرفها !

قال : التقيت بها عندما ذهبنا لدفن والدك ـ رحمه الله ـ وتحدثت عنها أختك بانة مرة بتقدير عظيم عندما باتت عندنا .. وحدثتني عن شجاعتها في تزويج أمامة من ابن الوزير .

قالت : بانة تحب أمي أكثر مني وأمي شجعتها على الزواج من فتاها كساب قبل أن يطلقها أبي

قال : مصرة على الفراق !

قالت : لست مصرة ؛ لكن لم أعد أصلح زوجة ..وأهلي أولى بي .

ـ وأولادك !

قالت : لم أعد متعلقة بهم ..لن يطيب لي عيش قبل رؤية قتلته هلكى .

عودة سفانة

لما عجز الملك حميد وولده عمير وزوجته برقوقة من الإصلاح بين الأميرين ، وأمام رغبة الأميرة الصارمة للفراق للعودة لبلادها تحقق الطلاق الشرعي ، وأرسلت إلى مدينتها اللؤلؤ بحراسة مشددة ، ومن ضمنهم بعض رجال عسكر وعيونه .

استقبلت في قصر الملك سيف ، والتقى بخالته سفانة ، وتناولت العشاء على مائدته ، وكان قد عزاها بوالدها فور لقائهما ، وهي عزته بجده وأمه ، وسمعت منه عن الجهود التي تبذل للقصاص من القتلة ، وسمعت عن الهدف من مقتله لأثارة الحرب بين المدينتين ؛ ولكنهم أفشلوا هذا المكر ، وأن رجال الوزير يبحثون في كل المدن عن قاتل الملك .

وتمنت له السعادة ودوام العافية والانتصار على أعدائه ، وأن يدوم ملكه .

وفي الصباح التالي قدمت الملكة عزوف للسلام عليها وتعزيتها بأبيها ، وكان بينهما عناق وبكاء وأخبرت أمها أنها قامت بزيارة قبر والدها منذ ساعات الفجر الأولى ، وستفعل ذلك كل صباح ، وقالت بعد ذلك : قتل أبي يا أمي ! مات قتلا !

قالت عزوف : رحمه الله ما كان له أن يترك مدينته وأهله وعشيرته وجنده .. كان عليك يا سفانة أن تمنعيه من النفي ..كان يحبك كثيرا في الزمن الأخير !

قالت : لا أستطيع يا أمي ..كان يحسّ أنه محبوس سجين معتقل .. كان في عزلة .. ولا أحد يدخل عليه إلا بأذن الوزير حتى أنا !

قالت عزوف : هذه سنة الملوك إذا خلعوا عن العرش .. وقد أساء للأسرة كلها .. ومنعكن من الزواج ، وأنتن بنات الملك .. أيفعل ذلك ملك ؟ ! حتى لو كانت إحداهن عاهة ومريضة عليه أن يزوجها .. ولو لم يخف الوليد تلك الأيام ؛ لقضى عليه كما قضى على أمه .

قالت مبررة : إنه ملك يا أمي ! كيف يرضى ويستسلم لزواج ابنته خفية ؟ !وأن تلد سرا هذا أمر عير مقبول ولا معقول !

قالت : كنت صغيرة لا تعرفين معنى الزواج .. ابنة الملك الكبرى تكبر ، ولم تصبح زوجة ولا

أما.. هذا صعب على البنت وعلى أم البنت وأقارب البنت .. وكبرت بانة وخلود وأبوك صامت يعيش في منام رآه وظنه حقيقة خشية أن يولد حفيد ذكر يموت على يده .. ها هو قتل قبل أن يرى حفيدا شابا .

قالت : بعضهم يرى أن ما حدث لأبي هو تفسير المنام ..لولا شوقه ولهفته لرؤية الحفيد ما قتل

قالت عزوف : كنت تريدين أن يرفض سيف الترحيب به .. هو كان يرى أن موته بيد حفيده والملك سيف لا دخل له في موته .. وهذه مقالة جنونية وإجرامية لا يجب أن تقال أمام الملك .. سيف إنسان رحب بمقدمته ، ولم يغضب منه ويرفض مجيئه مع الإساءة له قبل أن يولد وموت أمه بتهاون الملك بعلاجها .

قالت سفانة : إنك تُحبين الملك !

قالت الأم : ويحك ! أليس هو ابن ابنتي البكر أمامة ؟ ـ رحمها الله ـ لقد حرمت من أن ترى ابنها ملكا وسيدا .. أين أولادك؟

قالت : تخليت عنهم .. لا وقت عندي بعد موت أبي للعناية بهم وبزوجي .. كرهت معاشرة زوجي .. لم أعد أصلح أما ولا زوجة .. سأقضي دَهري بالحزن والبكاء على أبي .

دهشت عزوف من أفكار ابنتها : ويحك ! كلنا نحزن ونبكي.. وبكينا زرارة .. بكيته أكثر من زوجي الثاني مع ما فعله بي وبأهلي .

قالت : لقد خذلتيه يا أمي!

فقالت أمها : هو الذي طلقني ، ثم نفاني ؛ليصيد بي ابنته بانة وزوجها ؛ليقتلهما كما فعل بأم الملك سيف .. لقد علمنا على ذكرها أنها زارتك .

قالت : إنها تسكن في مدينة قريبة من مدينة زوجي شداد .. وهي تعيش بسعادة وسكينة .. وقد خلعت لقب أميرة ، وتعيش كعامة الناس .. وزوجها لم أره .

قالت الأم : جاءت البلاد أختك خلود ، وصفح عنها الملك ، ثم عادت لبلادها نجوان .. تزوجت أحد التجار .. وأنا بعد موت زوجي وترملي ـ كما تعلمين ـ سمح لي الملك مرارة

بالعودة والعيش مع أهلي .. وها هو أخوك يكبر ويتدرب مع الجيش وفرسانه .

صاحت محتجة : أخي أخي ابن اللص !لا أعترف به أخا .

غضبت عزوف جدا ، وبصقت في وجه ابنتها ، وغادرت قصر الملك غاضبة ، وهي التي كانت تفكر بأن تحضر ولدها للسلام عليها .

ولما علم الملك بهذا الحادثة استاء من فعل خالته ؛ ولكنه لزم الصمت . ونزلت الأميرة بعد أيام قصر والدها زرارة ؛ حيث كان معزولا فيه قبل النفي . وجاءت خلود لزيارة أمها والملك ، ولما علمت بوجود شقيقتها زارتها ، ورحبت بها ، وعاتبتها على تصرفها الخشن مع أمها ، وقالت : هذا تصرف أخرق ! هو أخونا شئنا أم أبينا .. وأبي طلق أمنا ومن حقها أن تتزوج ممن تشاء.

قالت : أليس هو ابن لص ؟

رفضت خلود هذا القول وقالت : ليس ابن لص .. أبوه لما تزوج أمي كان شريفا وسيدا يملك مزرعة كبيرة .. وهو قريب لنا .. وما زالت غلة مزرعته تنفق على أمي وأخي .. وكلنا حزنّا على الملك .. ونحب أن نرى قتلته يعرفون ويقتلون .. ولكنك حمقاء تتركين زوجك وأولادك باسم الحزن ! وماذا سيفعل استمرار الحزن والعويل والنوح ؟ هل سيعود الأب من موته ؟ أنت تكرهين أمك .. كلنا يدرك هذا !

قالت مصطنعة الهدوء : كيف أحبها وقد تزوجت لصا ؟وولدت ابن لص؛ ليكون أخا لنا .

أمر الملك سيف ـ كما ذكرنا ـ أن تعيش سفانة بقصر الملك الصغير حيث عزل ، وقبلت الأميرة بذلك ، وأدركت أن الملك يأخذ عليها إغضابها لجدته ؛ ولكنه يلزم الصمت ؛ لذلك لما رأت نفسها في عزلة من الضيوف والزوار علمت أنها أخطأت بالعودة لبلادها .

وأخوها الأمير رياض بن مناع لم يقدم لزيارتها والترحيب بعودتها ، ولما كانت تذهب لقصر الملك كانت تستقبل بفتور حتى صاحت مرة : كلكم تكرهون أبي ! كلكم تبغضون أبي! كلكم متآمرون على أبي !

نظر الملك إليها بحيرة ، ونظر في الجالسين معه ، ولم يتفوه أحد على صياحها في مجلس الملك ،

فعاودت القول : هل إذا قلت إن زوج أمي لص كفر ذنب ..ألم يكن

لصا بين الناس ،وحكم عليه بالموت لولا شفاعة أمي ؟!

فقال الملك بعد صمتها : اللص ـ يا سفانة ـ زوج جدتي ، ووالد خالي !

ضحكت وقالت : آ .. فهمت .. نسيت ذلك يا مولاي الملك !



الاعتداء الغادر

بينما كانت هذه الأحداث تجري في مدينة اللؤلؤ ،كانت مدينة السدر أو جلال الدين ـ كما أحب حميد أن تدعى ـ تتعرض لغزو غادر رغم التحذيرات التي ذكرها الوزير غالب لنظيره بهلول .

دخلت البلاد عشرات القوافل التجارية دفعة واحدة ، وكلها لا تملك الكثير من الأحمال برغم أنهم قادمون للابتياع ، وبعد دخولهم بيومين تعرض الطرف الشرقي للمدينة لغزو ليلي ، لقد داهم جيش صغير تلك المنطقة من المدينة مما دفع الملك للابتعاد عن وسط المدينة إلى الطرف الغربي البعيد خشية أن يكون هناك تواطأ بين كتائب من جيشه والجيش الغازي ، وشكل الجيش حاجزا لمنع الزحف جهة ابتعاد الملك .

وباشر الغزاة بالاعتداء على البيوت والسكان بالقتل والأسر والنهب وعند منتصف النهار تراجعوا إلى خارج المدينة بأسراهم والأموال التي نهبوها من دواب وأسواق ، وكان ممن وقع في الأسر كما تبين لاحقا أبناء الأميرة سفانة حيث قام الزاحفون الذين تظاهروا بأنهم قوافل تجارية بالظهور في حي الأمراء والأعيان وحرقوا وقتلوا ، وكان الهدف تدمير هذه المنطقة .

وغضب الملك حميد أشد الغضب من قائد الجيش والجيش الذي سمح بهذا الدخول ، وهم على علم بأن أمرا سيحدث بعد مقتل زرارة .

ولما مثل قائد الشرطة أمام الملك أخبره بحدوث خيانة داخل معسكرات الجند[1] وحدثه عن القوافل التي فوجئوا بأنهم قطاع طرق ولصوص ، دخلوا على أنهم تجار يرغبون بشراء البضاعة ، وغدروا بحرس الأبواب الشرقية للمدينة ، وسمحوا للغزاة بالدخول والوصول لحي الأميرات ، وجرت مذبحة وأسر وقاوم الناس بالخناجر والمدى عن أعراضهم .

وذكروا أن بعض بيوت الأمراء نهبت وحرقت وخاصة بيت زوجة شداد سفانة وخطف أولادها ؛ ولأن الأمير تلك الليلة لم يكن في بيت أولاده نجا من الخيانة ، كان في الصيد والقنص .

ولقد ترك الغزاة عددا من القتلى والجرحى تمكنت الشرطة من اعتقالهم بعد انسحاب الغزاة ، واعترفوا أنهم من سكان مدينة حمصان ، وأن معهم عددا كثيرا من لصوص المدن .

وفشل جيش الملك من مطاردة الغزاة بعد انسحابهم ، ولما عاد الملك من طرف المدينة كان في غاية الحزن والأسف على هذه النكبة ، وقال للوزير: تهاوننا في تصديق الأمير غالب .. جيشنا ضعيف رغم الأموال التي تنفق عليه .

قال الوزير : أنا مثلك حزين يا مولاي كيف يدخلون علينا ويغزوننا في غفلة ؟ ! والذي يُبكّي القتلى الذين سقطوا .. وهناك أعداد من الأسرى حتى أن أبناء الأميرة سفانة خطفوا كما أخبرت بعض الخادمات اللواتي اختفين في البستان ؛ كأنهم المقصودون في هذه الغزوة !

قال : كل من في القصر قتل !

قال : لم ينجوا إلا خادمة أو اثنتان كانتا ساعة الغزو خارج القصر في البستان واختفيتا على أعالي الشجر .

قال حميد : هل كانوا يريدون الأميرة ؟!

قال بهلول : لا أدري ! الأميرة لها شهور مفارقة البلاد ..وهذا انتشر بين العباد .

قال : كيف سنعيد الأسرى ؟ سوف يبيعونهم عبيدا .

قال: لدينا أسرى من الجرحى ؛ لعلنا نبادل بهم .. لقد قاوم أهالي البيوت ببسالة وقوة دفعت الغزاة إلى التراجع عند منصف النهار .

قال : هم من مدينة حمصان صيرم .. الملك اللعين نعسان هو الذي أرسلهم أم عصابات كما يقول القائد عيد .

قال : لا أدري ! سأجتمع برجال الأمير ابن ظفار .. فهم أقدر من رجالنا في البحث والتفكير

تنهد الملك ضيقا وقال : افعل ما تراه مناسبا .. جيشنا ماذا سنفعل له ليكون على قدر المسؤولية ؟!

قال : الجيش استطاع الدفاع عن المدينة ؛ لكنهم لم يكونوا مستعدين للمفاجأة ، ولم ينتبهوا

لحيلة الغزاة ؛ ولكنهم استدركوا الأمر ، وقاتلوا مع الأهالي ، طول الانتظار أصابهم بالملل والفتور .. وظنوا أن التحذيرات في غير محلها ،إنها مجرد تهويل من القائد ابن غسان .. وحدث بعض التشقق في بعض الكتائب لضعف الولاء لكم يا مولاي ! وأنت تعلم السبب ثم أكثر الغزاة من اللصوص .. علينا أن نعرف من حشّدهم .

قال بحيرة وشك : لصوص يغزون البلاد ، لابد أنهم يعملون لسيد كبير ؛ليقوموا بهذا العمل الكبير والخطير !

فسر الوزير فقال : اللصوص دخلوا على أنهم تجار ، والذين دخلوا من طرف المدينة جنود مرتزقة قائدهم يقال له غسق ؛ لكن لم نعرف إلى أي جهة يتبعون .. من استأجرهم ؟هل لملك صيرم علم ؟ الله أعلم .

أمر الوزير بمساعدة المتضررين ، وإسعاف الجرحى ، ودفن الموت ، وذهب بنفسه لحي الأميرات والأحياء التي تعرضت للغزو .

ولما جاء نائب ابن ظفار المدينة أطلعه الوزير على الحيلة والغدر والأسرى والضحايا ، والتقى الأمير مفتاح بجرحى اللصوص ، وبعض الأسرى الذين قبض عليهم الأهالي في بيوتهم .

ولما اجتمع بالوزير خاطبه : أرأيت الغدر ؟

قال : نعم ، دخل المدينة ما يقارب ألف رجل نصفهم دخل كتاجر .

قال الوزير : لماذا اعتدوا علينا ؟!

قال مفتاح : لا أعلم الآن ؛لكننا منذ مقتل زرارة شعرنا بخطر على مدينتكم ..كنّا نتوقع غزو جيش منظم لبلادكم ؛ وربما الغزو قادم وهذه مقدمة .. فالملك نعسان ابن صيرم طامع ببلادكم من أيام أبيه .. وكثير من عائلات بلادكم ترحل إليه بسبب غضبهم من الملك وسادة البلاد .. ويحرضونه على احتلال البلاد .. وهو ـ كما تعلم ـ يخشى عودتنا إليكم .

قال : ولماذا حرقوا بيت الأميرة وخطفوا أولادها ؟

قال : الهدف واضح لإثارة الفتنة بيننا وبينكم حتى لا نتدخل في حماية بلدكم من بعض أقاربه

الغاضبين والناقمين عليه من سنوات بعيدة كما تعلم .

قال : الأميرة الكل يعرف أنها غادرت البلاد !

قال : أولادها لم يغادروا .

عاد الوزير يسأل : أتعتقد أن غزوا جديدا سيحدث ؟!

قال مفتاح بثقة : أعتقد ذلك أيها الوزير ! هذه أحقاد تنام وتستيقظ ..مجيء زرارة إلى هنا أحياها وجددها .

قال : تحدثت مع الأسرى والجرحى .

قال : كلهم لصوص ، وينكرون علاقتهم بالملك ابن صيرم .

قال : بالطبع لن يجتمع معهم نعسان .

قال : لا يعرفون إلا أن لصوصا كبار شجعوهم على المشاركة في الغزوة للنهب والسلب.. أنا أرسلت بعض رجالي لمدينة صيرم .. وأرسلت وراء بعضهم ؛ ليأت إلى هنا .. وأسمع منهم لعلهم يأتون بمهم .

قال بهلول : ألم تعرفوا شيئا عن قاتل الملك ؟

قال : لدينا الكثير من الأنباء ؛ ولكن لا يسمح لي بذكرها الآن أيها الوزير ! وهي تشير للملك ابن صيرم .. عليك بزيادة درجة الحذر لدى الجند والشرطة فالغزو قادم .. واطلب مئات الفرسان من الوزير غالب .



أولاد سفانة

وصل نائب ظفار لمدينة اللؤلؤ ؛ ليطلع الأمير والقائد عسكر على التفاصيل التي توفرت لديه عن غزو بلاد جلال الدين ، وهو له رجاله في المدينة منذ اغتيال زرارة

لما سمع عسكر ما توفر من معلومات ، ذهب لقصر الوزير ، واجتمع به ، وروى له مع سمعه من مساعده مفتاح .. وهذا بدوره ذهب لقصر الملك ، وأيقظ الملك من نومه ، واجتمع مع وزير البلاد وسمع التفاصيل والتوقعات وما حدث من خطف أبناء سفانة ، وحرق بيتها ، ونجاة زوجها الذي لم يكن في المدينة ليلة الحادث الذي قال : ماذا يعني هذا ؟!

قال الوزير : هم افتعلوا معركة ، وقتلوا وأسروا ، ومن بين أسراهم أولاد الأميرة ؛ لأنهم لم يجدوا جثثهم فاعتبروهم أسرى حسب رواية الجاريتين الناجيتين إلا إذا قتلوا فيما بعد .

قال : هل ثبت أن لملك صيرم يد ؟

قال عسكر : قد يكون الأسرى للتضليل واستبعاد الحرب .

قال الملك : هل نخبر سفانة ؟

رد الوزير : فلتقابل الرسول نائب ابن ظفار .. هل تراها تحتمل الصدمة؟

قال : نطلع الأميرة خلود .. وتنقل إليها الخبر ..فهي منذ سمعت بمرض الملكة الأم وتعيش بيننا ـ كما تعلم ـ إنها محبة لجدتي الملكة . قال : لا بأس

ذهب الملك والوزير إلى حجرة الأميرة خلود ، فجاءت إليهما مرعوبة ؛ ربما وقع في قلبها موت أمها التي فارقتها قبل ساعات .

فطمأنها الملك على حياة الأم ، وقصا عليها وعلى زوجها خبر اختطاف أولاد سفانة ، وترجيح أنهم أسرى لدى خاطفيهم .

فمشت لقصر سفانة بصحبة بعض حرس الملك مع طلوع الشمس ، وحدثتها بما جرى في بلاد الملك حميد واختفاء أولادها بعد انتهاء الاعتداء .

لم يبدُ الحزن ولا البكاء من شقيقتها بل سألت : وأبوهم ؟

قالت : لم يكن معهم كان في الصيد .

قالت : كان في الصيد .. هل علم الملك بذلك ؟

قالت : هو الذي أرسلني إليك لنقل الخبر خشوا عليك من الصدمة .

صاحت بحدة : أي صدمة يا أخية ! الصدمة مقتل أبي .. هو الصدمة والجرح النازف .. وهو خير منهم .. الأب لا يعوض ، الأبناء يعوضون .. لا تخافوا عليّ .. ماذا سيفعل مولانا الملك ووزيره العتيد ؟

قالت خلود : ماذا سيفعل أهل الأولاد ؟ هم أهلوهم .. نحن أخوالهم .. هل تُحبين الذهاب لهناك .

قالت بشرود : أذهب إلى هناك ! لماذا ؟! هل بذهابي سيعودون ؟! ألم تخبريني أنهم خطفوا .. قد يكونون قد قتلوا كما قتل جدهم الملك .. أنا بعد موت أبي قتلا وخيانة لا يمكن أن أحزن على أحد .. حزني فقط على أبي المسكين الذي أذلوه في أواخر عمره .. ينتقل من بلد لآخر بثلاث حراس .. تمنيت لو أن الحرس الذين رافقوني كان نصفهم مع أبي .. أنا بعد أبي يهون عليّ كل موت .

قالت خلود بامتعاض لضعف حبها لأولادها : لم نكن نعرف هذا الحب الكبير له قبل زواجنا يا سفانة ! أنت مجنونة !

قالت بغيظ : أنا مجنونة يا خلود ؛ لأنني أحب أبي أكثر منكن .. أنتن قصفتن عمره من أجل أن تنام إحداكن في حضن رجل .

قالت : ولماذا خلقت النساء والرجال والزواج سامحك الله ؟

قالت :آنا مجنونة يا خلود ؟! أنا أقول سامحك الله .. أتريدين مني أن أولول وأصرخ وأشق الثياب وألطم الخد على أولاد تركتهم منذ شهور ؟

قالت : لا أريد ذلك ..أريد أن تحزني على فقدهم كما حزنت على أبيك .

قالت : مات كل حزن إلا الحزن على أبي .

غادرتها إلى قصر الملك وحدثته أنها أخبرتها بالمصيبة ، وأنها لم تهتم كأن المصيبة في بلد وبيت آخر ، وأعلنت أن أختها لم تعد سليمة العقل بعد موت أبيهما .

قال : لعلها مريضة أيتها الأميرة .

قالت : إنها لم تشف من صدمة موت الوالد ـ رحمه الله ـ وماذا ستفعلون لإنقاذ الأمراء ؟ وهل حددتم الجهة الظالمة ؟

قال : سيرسل الوزير جيشا إلى بلاد الملك حميد إذا سمحوا بذلك .. وقد نغزوا بلاد صيرم إذا تأكد لنا أنه الفاعل في جريمة الملك زرارة.

قالت : نعم ، عليكم أن تفعلوا شيئا تهتز له الدنيا وكل المدن .

قال : سنفعل يا خالة الملك ! لكن التدبير والتفكير قبل استعمال القوة واليد .. اشتعال الحرب سهل ؛ ولكنّ إطفاءها صعب.

قالت : أرجو لكم النجاح ، وإعادة الهيبة للمملكة .

قال : المملكة قوية .. وتبين لنا أن الذين قاموا بالغزو أكثرهم من اللصوص وقطاع الطرق فنخشى أن ندمر مدينة ، ونقتل أبرياء، ونفقد الأبطال ، ونظلم الناس بدون تأكد .. الوزير رجاله يعملون بكل قوة .. فنحن نهتم بالأمر ، ولا نتعجل المعركة قبل التثبت والإعداد القوي فلست ضعيفا ، ولا جبانا .

قالت : بوركت أيها الملك ، وأيدك الله .

دخلت سفانة على الملك ، وقالت بعد التحية والسلام : خلود هنا ! إن خالتك تقول عني مجنونة !

فقالت : أنت مجنونة فعلا ! نقلت إليك خبر أسر أولادك ، ولم تذرفي دمعة واحدة .. أي أم أنت ؟! كأن العرس عند الجيران .

قالت سفانة : ماذا ستفعلون لي أيها الملك ؟

فقال بهدوء : ماذا تُحبين أن نفعل أيتها الأميرة ؟

ظلت صامتة لم تجيب ، فقال : نحن سنسعى لتحريرهم إذا بقوا على قيد الحياة من أجلك أنت يا سفانة ! نعرف أنك طلقت وتخليت عنهم لأهليهم من أجل حزنك على أبيك .. نحن نحترم حزنك .. وكلنا حزين .. لماذا جئت ؟

قالت وهي تنظر إليهما : جئت .. لا أدري ! لا أدري !

فقال : سنفطر سوية هذا الصباح .. فرصة أن نتناول الطعام مع الخالات ..لا ينقصنا إلا الخالة بانة ؛ كأنها لا تريد اللقاء بابن شقيقتها.

قالت خلود : ستعود في يوم من الأيام .. فقد زارت سفانة عددا من المرات ، وباتت في بيتها .



الاعتداء

تحرك جيش صيرم لما سمع أن بلاد حميد تتهمه بخطف وحرق حي الأميرات ، وتقدم إلى الطرف الشرقي للمدينة الذي سبق وتقدمت منه عصابة اللصوص ، وتصدى له جيش الوزير بهلول ، وأرسل يستعجل جيش بلاد الملك سيف ، وأمر الملك العائلات بالخروج للجبال العالية ، وجنوب المدينة حيث سيدخل جيش الملك سيف .

واستمرت المناوشات الحدودية مع تقدم وتفوق لقادة صيرم خاصة القائد غضب ، واحتل الغزاة نصف المدينة مع تقهقر جيش حميد رغم البسالة التي بذلت لصد الغزاة ، وهذا دفع تجار ذلك الجزء من المدينة لطلب الأمان من القائد الغازي ودفع الأموال ، فقبل القائد الغازي غضب منهم المال ، وأمر الجند بمعاملة الناس بالحسنى ؛ ولكن ذلك لم يحدث في كل المناطق ؛ بل تعرضت بعض الأحياء للنهب واغتصاب النساء ، وعمت الفوضى تلك الأحياء ، ولم تهدأ الأمور إلا بوصول الملك ابن صيرم بنفسه حتى استطاع القائد غضب مع وصول الملك بضبط الأحوال والاستعداد لمتابعة الحرب والاحتلال للقسم الثاني من المدينة واجتياز النهر الذي يقسم المدينة قسمين .

وكانت معارك كر وفر ، ثم اجتاز الجيش الغازي بعض الجسور ، وكادت تجري مفاوضات على تسليم المدينة للملك النعسان بن صيرم ، والقبول بدفع الجزية ؛ لكن الملك حميدا أصر على الرفض والقتال بمن تبقى من فلول جيشه وأعوانه المخلصين ، وبينما بعض سادة المدينة يسعون للصلح مع الملك ابن صيرم لحفظ ما تبقى من خيرات البلاد ، وصلت أولى طلائع جيش الملك سيف ، وتوقفت المفاوضات ، وبدأ جيش الوزير غالب يتقدم الصفوف ، وبدأت تصل الكتائب تباعا تباعا بقيادة الأمير ضرغام بن غالب الوزير ، وتراجعت جيوش النعسان إلى ما بعد النهر ؛ لتمنع الجيوش القادمة من اجتيازه .

ولما وصل عددا كبيرا من الجيش اللؤلؤي أخذت الحرب تشتد لاجتياز النهر بوضع المزيد من الجسور أثناء الليل .

وكانت جواسيس ابن صيرم نقلت له أن القائد ضرغاما إذا انتصر عليهم في المدينة سيزحف لاحتلال مدينتهم .. هكذا سمعت الأنباء في مدينة اللؤلؤ .

وهذه الأخبار وصلت لمدينة حمصان ، بل أشيع أن جيشا تحرك إليها ، فاضطربت المدينة ، وخافوا الهزيمة والانتقام .

وكان أهالي جلال يستقبلون جيش الملك سيف بالفرح والأمل .. فجيوش الملك سيف أو بلاد اللؤلؤ لها دعاية قوية منذ عهود بعيدة بين المدن ، ومعروف قوة ولاؤهم لبلادهم وملوكهم ، والكبار في السن له ذكريات مع هذا الجيش .

وبينما الملك سيف في ديوانه يترقب الأخبار التي ترد إليهم تباعا جاءه بريد فلما قرأه دفعه لوزيرة غالب ، وكانت الرسالة من الأميرة بانة تخبر الملك بوقوع زوجها أسيرا لدي جيوش ابن صيرم .

شعر الملك النعسان بضعف جيشه أمام جيش الملك سيف ، وأمر قائده غضبا بالصبر والتحمل ، وعليه أن يرجع لبلاده بالأسرى ؛ لعله يتكمن بالتحالف مع بعض الملوك بمواجهة جيش سيف سواء هنا أم الزاحف لمدينته كما أخبره عيونه وفي نفس الوقت كتب لسيف بالصلح للخروج من المدينة .

واقتحم القائد ضرغام المياه من عشرات المواضع ، وهاجم جيش غضب الذي أخذ يتقهقر أمام الجيوش الزاحفة ، ويتراجع بفوضى ويأس ، ولم تأت أنباء عن قبول سيف الصلح والسلام .

ودخل الملك حميد قلب المدينة من جديد ، وحوله أتباعه من الأمراء والجند والشرطة ، وبدأ القائد ضرغام يتعقب فلول جيش ابن صيرم بعد طردهم من المدينة ، وقتلوا منهم الكثير ، وأسروا منهم ؛ ولكن القائد غضبا تراجع بمن بقي حيّا ، وتركوا ما نهبوه من دواب وطعام ومتاع ، وأعلنت الأفراح بالنصر .

وعاد أهل المدينة من الجبال والكهوف والقرى المجاورة ، وأخذوا يتفقدون ما خسروا من

بشر وأنعام وأموال .

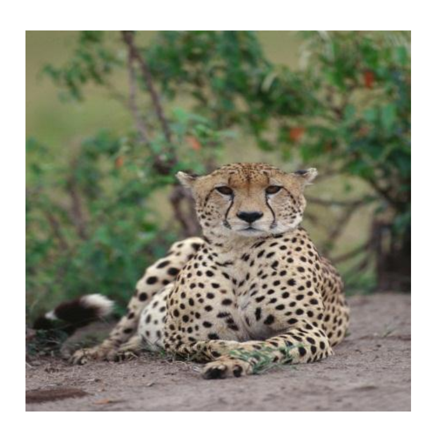
وأرسل سيف للقائد بأن يترك الأموال التي نهبت لأصحابها ، ولا تعتبر من الغنائم ، ومساعدة أسر الضحايا ، والاستعداد لمتابعة الزحف نحو بلاد ابن صيرم وأسره .

وأخذ الملك حميد يعيد ترتيب بلاده هو ووزيره بهلول ، وطفق الملك بواسطة المخلصين بتطهير البلاد من عملاء صيرم ، وخرجت الكتائب اللؤلؤية إلى خارج المدينة استعدادا للزحف إلى بلاد ابن صيرم من جهة الشرق .

وبعد شهر من الزمن ودحر الغزاة المعتدين ، وقد اطمأن القائد ضرغام بن غالب على بلاد حميد جاءه الأمر بالزحف لبلاد صيرم والقضاء عليه إذا تمكن من ذلك .

واستمر الزحف وخلال أيام كان يطرق أطراف البلاد من غربها ، وكان سيف قد رفض الصلح ، واعتبر مهاجمة بلاد الملك حميد إهانة لبلده ؛ لأنهم ما زالوا تحت حمايتهم منذ عشرات السنين من أيام والد جده الملك زرارة .

وكان ابن صيرم قد عاد للبلاد ، وهو في غاية الذل والسخرية للناس ، وسخرية من نصحوه بالكف عن الغزو والتحرش بالمدن المجاورة ، وأخذ يناشد الملوك من جيرانه لمساعدته أو الشفاعة له عند الملك سيف .



فشل الغازي

استنجد ملك صيرم ببعض المجاورين لملكه لإنقاذه من غزو الملك سيف بن لؤي الزاحف من جهتين من الشرق والجنوب ، فأرسل إليه بعضهم متطوعين ومرتزقة ، لا أحد يريد أن يتورط علنا مع ابن صيرم ؛ لأنه مزعج لكثير من الملوك بدعمه المتكرر للمتمردين واللصوص والعصابات ، ويستغلهم في مغامراته وأهوائه .

ولما اقتربت الجنود من مدينة صيرم جاءته رسالة من سيف يطالبه فيها بفك وتحرير كل أسارى مدينة الملك حميد وعلى رأسهم أولاد الأميرة سفانة دون تباطؤ وتردد ، وأنهم متيقنون من وجودهم لديه .

وقبل الملك صيرم ذلك العرض مقابل تراجعه عن غزو بلاده ، ورجوع الجيش إلى مدينة حميد وأبدى استعداده لرد كل الأموال المنهوبة من تلك المدينة .

لكنّ سيفا قبل ذلك مع تسليم المدينة وخضوعها لحكم بلاده ، ودفع ديات القتلى من مدينة حميد ، وجنود بلاد اللؤلؤ ، وترك العرش لأحد أولاده .

ولما سمع الملك صيرم بالشروط الإضافية صعب عليه الأمر ، وندم على غزو مدينة حميد فقال لوزيره : أخطانا التقدير .. فرغم ضعف العلاقات بين البلدين ـ كما تعلم ـ فهم ما زالوا حلفاء .. أخطأ جواسيسنا .. وهؤلاء المتطوعون والمرتزقة لا يثبتون إن رأوْا بوادر الهزيمة .. حياتهم أهم من الدفاع عنا .. كنت أظن أنهم سيكتفون بطردنا من بلاد حميد فحسب ، وينصرفون ، ونتفاوض مع حميد عن الأسرى والأموال .

فقال الوزير كأنه مذكرا بأمر : لم نجن من قتل زرارة شيئا ! لم تحدث حرب بين البلدين .. ولما خطفنا أبناء سفانة لم يتحرك سيف لينال منهم .

قال النعسان ؛ كأنه يقول لا داعي للوم : ليس أمامنا أيها الوزير إلا القتال .

قال : وإذا خسرنا المعركة سنخسر الملك .

قال : لن يقبل أحد بملك هذه المدينة .

قال : هم يحكمونها ومع الوقت ستذهب مملكتنا أين غضب قائد الجيش له أيام غائب عنا ؟!

قال الملك : إنه مريض أو على وشك الموت .

قال الوزير استغرابا : على وشك الموت ، ولم أعلم ! لقد كان متحمسا للمعارك وَقاد حرب حرق حي الأميرات ، وخطف أبناء سفانة خالة سيف .

قال : لقد كان مهووسا بالمعارك ؛ لكنه أصيب بجروح عندما سقط عن جواده .. وأصيب إصابة كبيرة .. واستطاع كما تعلم السيطرة على نصف مدينة حميد وشجعني إلى اللحاق به .. ولولا وصول جيش سيف لأسر حميد وحاشيته .

قال : ألا من حيلة لقتل سيف ؟

قال : سيفعل بعضهم .. وأعتقد أنهم سيفشلون ، ولحتى الآن لم نتهم بقتل زرارة .

قال الوزير :لو عرفوا ما وضعوا تلك الشروط ما زال الأمر غامضا وهذا ربما من حسن حظنا

قال : كان تفكيرنا خطأ في الاعتداء على حياة زرارة .. أخطأت بسماع رأي ذلك اللعين .. من يخون أسياده سيخون الآخرين .

قال : لقد نصحت مولاي الملك بعدم السماع له وإنه رجل حاقد ؛ لكنك شغفت بتلك المرأة.

قال الملك : لقد سمعت عنها كلاما أوقع هواها في قلبي ، ورغبني بالوصول إليها ولا يكون ذلك إلا بالدم.. أين اختفت ؟ .. قال : هي لم تخاف ..ماتت .

دهش الملك : ماتت ! لم أسمع بذلك ..كيف علمت بذلك ؟!

تبسم الوزير وأجاب : من القائد نمر .. لما دخل المدينة كانت نصب عينيه ؛ ليقدمها هدية للملك ؛ ولكنهم أخبروه بموتها سقطت في بئر ماء وهلكت . قال : متى ؟!

قال وزيره : عندما هاجم رجالنا واللصوص ذاك الحي في تلك الليلة .. وداهموا البيت ، ولم يجدوها ، وأخبر خدمها أنا سقطت في بئر ماء ، وغرقت قبل الغزو بأيام .

تحسر الملك ضيقا : يا إلهي ! الأميرة بدور ماتت ، وقد تعلقت بها.. ألها ذرية ؟

قال : لها ذرية كما قال ذاك الشاعر اللعين.. لها طفلة صغيرة عندما طلقت ..وكان بيتها بيت الشعراء والأدباء .

تحسر فقال كأنه يبكي : لقد غرر بي ذاك الشاعر ..لقد جعلها حورية من حور الجنة من كثرة ما وصفها ووصف حسنها وفتنتها ، حتى تمنيتها مع نسائي .. أتعرف لماذا طلقت ؟ لم يتحدث الشاعر عن ذلك .. ولماذا رفضت زواجي منها والهرب إلينا؟!

قال الوزير : تحدث الشاعر لي عن سبب طلاقها .. إن زوجها أراد منعها من الجلوس مع الشعراء أو بعض منهم بعد أن تعودت المسامرة معهم ..فرفضت وقالت : كنت أفعل ذلك في حياة أبي .. وحاول معها الملك ، فهددت بالهرب وطلبت الطلاق .. هكذا أخبرني .. ولم يطلبها أحد للزواج بعد ذلك الطلاق .. وظلت صديقة للشعراء والأدباء .. ونقل خبرها إليك ؛ لتكون زوجا لها طمعا بمالك .. ورفض الملك حميد مصاهرتنا ولو منها ..فكانت هدفا لتلك الغزوة .

قال الملك مقرا برغبته بنكاحها : نعم ، شغلت بها فترة كما تعلم ..ومع المعارك نسيت أمرها وكنت أنتظر أن تزف إليّ بعد احتلال مدينة حميد ..كيف قتلت ؟

قال : تركت حجرتها في الليل وعز الظلام ، وكانت تتمشى في بستان قصرها ، ولم تنتبه للبئر المفتوحة الباب من إهمال الخدم ..فتعثرت وسقطت فيها .. ولم يكن معها أحد .

قال : ماذا كانت تفعل في الظلام الدامس ؟

قال : قد تكون ذاهبة للقاء أحدهم ، فخرجت دون خدم وإلا ماذا كانت تفعل امرأة بعد نصف الليل وبدون مشعل وخدم ؟! ولما تعثرت في البئر هرب الرجل العاشق ، ولم يشك أحد أن هناك أحدا لعظم الاتهام أو يعرفون ولزموا الصمت ؛ وربما دفعت عمدا في البئر .. ويبدو أنها تخرج ليلا وحدها كما حدثني القائد نمر لما سمع كلام الجواري .

تنهد الملك : لقد شغلت عن سماع أخبارها أيها الوزير .

قال : كنت أظنها ستهرب إلينا كما هربت أخت لها من قبل .

الحصار

حوصرت مدينة حمصان صيرم من ثلاث جهات ومضت عدة أسابيع على اكتمال الحصار ، وكان الملك سيف بنفسه يشهد الحصار .

فقال لقائد الجيش : الحصار متعب للجميع أيها القائد ! ألا تخشى ضيق الجنود ؟

قال القائد الأمير حفص : الجنود خلقت للحرب والقتال أيها الملك الشجاع ! وكل جندي يحب الانتصار والفوز ؛ لكن قتال المدن صعب ؛ لأننا قد نضطر لقتل الكثير من الناس .. فلذلك يحبذ الجنود الاشتباك على أطراف المدن لتقليل عدد الضحايا .. والجنود فيهم القوي ، وفيهم الضعيف الكسول الجبان .. والحصار يدفع أهل المدينة قادتهم للقتال والخروج أو التفاوض على الاستسلام إذا كان الحصار محكما من جميع الجهات .. والحصار انتصار بأقل عدد من القتل من الطرفين وبأقل الخسائر .. وكلما طال أدى ثماره وأدى إلى نتائج جيدة فيضعف الجندي المحاصر إذا أراد الخروج للقتال، فيخرج وهو في حالة يأس وإحباط وتخبط ونحن لم نحاصر كل الجهات ـ كما تعلم ـ تركنا جهة لهرب المحاصرين .. والهرب كذلك يضعف معنويات المدافعين .. فهناك بشر لا يتحملون الحبس والحصار إذا تركت لهم منفذا للهرب .. والأقوات تدخل من الجهات المحاصرة ؛ لأن الجهة غير المحاصرة جبلية صعبة على القوافل والبغال .. نحن لدينا خطط لدخول المدينة ؛ ولكن نفضل استسلامها ؛ ليحسن السيطرة عليها بدون إراقة الدماء ، ويرضى الأهالي بسيطرتنا عليهم .

قال الملك الشاب : إذن لديكم خطط الاقتحام .

قال القائد حفص : أجل يا مولاي ! سيمل أهل المدينة من الحصار إذا صبرنا أكثر منهم وسيكونون عونا لنا على جيشهم وملكهم .

كان الملك ابن صيرم يسمع لقائد الجيش المصاب والقادة الآخرين ، وقال للوزير : هل يملوا ؟ لكم أسابيع تحت الحصار .

قال قائد الجيش : هل نندفع لقتالهم ؟

قال الملك: لو كان هناك فائدة من الخروج لقاتلناهم منذ وطؤوا أطراف المدينة .. علمت أن لهم أعوانا في المدينة يحرضون الناس على التمرد علينا .

قال الوزير: لقد قبضنا على عدد من المرجفين ؛ لذلك بدأ الناس بالخروج إلى الجبال والمدن الأخرى .. وهذا سيضعف همم الجند ، ولم يقدم الملوك المساعدة المرجوة أيها الملك ! فعلينا بالقتال حتى الموت ، وذلك أفضل من الأسر .

قال الملك : أنا لا يهمني الأسر أو الموت .. من غامر مغامرة عليه أن يتحمل عبئها وعواقبها .. الذي أخشاه أن تصبح بلادنا لغيرنا .

فقال أحد الحاضرين : هذا وقت لا يسمح فيه الندم .. لقد تحدثنا عّن مخاطر غزو بلاد حميد .. ولنا تجربة قديمة مع ملوك بلاد اللؤلؤ .. وهذا سيف يقود الجيش لاحتلال بلادنا .

قال الملك ممتعضا : كما قلت لا داعي الندم الساعة .. فلنستعد للمعركة يؤسفني أن أقول لكم إنها معركة خاسرة ؛ ولكن سنحارب بشرف حتى الموت .. الذل ذُل أيها القادة .

قال أحدهم : ألا يقبلون منا دفع الجزية ، وإطلاق صراح الأسرى ؟!

أجاب الملك :رفضوا ذلك.. يريدون حكم البلاد باسم ابني أي أن تذهب كل أموالنا لهم .. هذا غاية الذل أيها القادة تعيشون تحت حمايتهم ؛ سنعيش أذلاء .. أليس الموت أشرف لكم ؟ أنعامل كالعبيد والرقيق ؟

قال : الموت أشرف أيها الملك ! نحن نرى قائد الجيش منذ وقع وهو ضعيف

صاح غضب : لست ضعيفا يا نبال! تعثرت الفرس ووقعت عنها، وسأقاتل حتى تذهب هذه . وأشار لسالفته .

قال نبال : أخشى أن يهرب الجند عند أول قتال أيها القائد ! فرأيت كيف فررنا من أمامهم في مدينة حميد .. كنّا في حالة خزي وجبن ..وإذا حصل ذلك ستصبح كل البلاد في أيديهم عنوة أطفالنا ونساؤنا .

قال الملك : نحن نريد الصلح ؛ لكن شروطهم فيها كل الذل .

قال : هذا رأيي ..وأنا جندي حتى الموت .. الملوك الذين شجعونا على هذه المغامرة أرسلوا لنا لصوصهم وأوباشهم ..تخلصوا منهم

فقال الملك : دم زرارة!

قال : اللصوص هم الذين قتلوه .

قال الملك : وهل يصدق الملك سيف ووزيره الماكر ذلك ؟ هو الآن قادم لتأديبنا وتحرير الأسرى وأبناء سفانة .. على وزيرنا مقابلة الملك سيف ؛ لتخفيف الشروط .. ولتقاتل أيها القائد .

قال غضب : مهمتي القتال ، ولو كنت جريحا مكسورا .. نحن خلقنا للقتال .. إني خبرت جنود مدينة اللؤلؤ فهم بواسل بمعنى للكلمة .. والحرب نصر وهزيمة .. ورغم قوة جنودنا تقهقروا أمام فرسانهم .

وعاد الكلام للوزير : وإذا رفض التخفيف ، وأصر على عزلك.. هل نقاتلهم ؟

قال الملك : لابد من ذلك أيها الوزير! الموت في ساحة الوغى خير وذخيرة للأجيال القادمة لأحفادي وأحفادكم .. نحن سعينا للمحافظة على حياتهم ؛ لكن خصومنا رفضوا الصلح .

جهز الوزير نفسه والوفد المرافق ، ولما وصلوا إلى الجهة التي يعسكر فيها الملك سيف تقدم الوزير والوفد يحملون الراية البيضاء إشعارا بطلب الحوار .

سمح لهم بالتقدم إلى خيمة الملك ، ورحب بهم ، ونزلوا في خيمة الأضياف والرسل .

وأخبر الملك بوجودهم وغاية مجيئهم ، ولما مثلوا أمام الملك قال الملك : جئت للسلام والاستسلام .

قال الوزير : جئت للصلح يا مولاي الملك ! نحن كما أنتم تعبنا من الحصار .. ونحن هنا للتفاوض على شروط عادلة للصلح .. أهمها بقاء الملك ملكا على البلاد

قطع سيف الكلام وقال بحزم : نحن سنحكم بلادكم ما جردنا هذا الجيش إلا ليبق هنا ونحن نحاول إخضاع المدينة بدون حرب ؛ لنقلل الدم بيننا وبينكم علمت أن أحد أعدائي معكم .

احتلال مدينة

اقترب جيش سيف إلى أسوار المدينة أكثر من الأول ، وبدأ التراشق بالسهام والنبل ، وأخذ النقابون يقتربون من بعض الأسوار والتنقيب بها لأحداث ثغرات للتسلل منها للمدينة ، وفتح الأبواب ، وألقيت السلالم ذات الكلاليب على النقاط الضعيفة من الحاميات ، ليتم تسلقها في الوقت المناسب .

اشتد الضغط ليلا ونهارا على حاميات الأسوار حتى تمكن المغاوير من اقتحام الأسوار والدخول من الأنقاب ، وفتح الأبواب ، وطفق الجند يقتحمون المدينة رويدا رويدا ، وتجمع الفرسان بعد فتح بعض البوابات ، وتم الفتك بحاميات الأبواب والأسوار والسيطرة عليها ، ورغم المقاومة التي بدت في بعض الجهات دخلت الجيوش الغازية من ثلاث جهات ، ولزم الناس بيوتهم ، وأغلقت الدكاكين أبوابها ، وأخذ بعض الجيش يتقدم نحو القصر الملكي الكبير الذي وجد خاليا إلا من الخدم والغلمان ، وتم الاستيلاء على الخيل والإصطبلات الملكية .. وتعرضت القصور للنهب والتفريغ ، ولزم الناس مساكنهم ثلاثة أيام حتى كملت السيطرة على المدينة ، وأسر من أسر من الجند والسادة ، وهرب من هرب ، واجتمع مشايخ الحارات والأحياء ، والتقوا بالوزير غالب وطلبوا منه الأمان فأعطوه .

وبعد الأمان عاد الناس إلى أعمالهم رويدا رويدا ، وأخليت السجون من المساجين، ولم يجدوا من بينهم أولاد الأميرة ، فقد عرف الملك ابن صيرم أهميتهم للبقاء حيا ، فقد نقلوا إلى مدينة أو بلدة أخرى قبل المعركة الأخيرة ؛ وربما قبل وصول الجيش الغازي لبلادهم .

قال سيف : لقد تمكنا بفضل الله من السيطرة على المدينة .. وهرب خصومنا أيها القائد الشجاع .

قال قائد الجيش حفص : سنتابع المطاردة عندما نعرف أين استقر الملك النعسان ؟ علينا حكم هذه المدينة إلى حين من الزمن وحتى يستسلم ابن صيرم والسادة كلهم

قال : كيف سنحكمها أيها القائد وهي بعيدة عن بلادنا ؟

قال حفص : سنجعل فيها حامية من جندنا .. وستكون مملكة مستقلة عنا ؛ ليستقر الحكم فيها .. وسنأخذ خراجها بعض الوقت .. ولو بلاد حميد الملك قوية لضممتها إليهم .. فهم أقرب إليها منا المسافة بينهم يوم وليلة .

قال : وثأر جدي .

قال : رجالنا وعيوننا يقولون إن لهم يدا في الغدر بجدكم يا مولاي ! وعلمنا أن اللص فواز من رجال الملك .. فالملك هذا له صداقات مع اللصوص والعصابات ؛ ليزعج بهم أي الملوك والتجار .. وسيصل إليه رجالنا في يوم قريب ..وعندما نأسر الملك سنعرف الجناة .

قال سيف : هل سيعترف الملك بجرمه ؟!

قال : لا ، لا ، الملك لن يعترف ؛ لكننا سنجد من يشي بالملك .. ويعترف نيابة عنه لينجو برأسه .

قال : الوزير!

قال : قد يكون الوزير لا علم له بهذه المغامرات والألاعيب.

قال الملك : الوزير لا يعلم!

قال : الوزير مشغول بإدارة البلاد والعباد ..والملك مشغول بالمغامرات والغارات

قال : سمعت أن للملك زوجة فاتنة .. ألم تعتقل ؟

قال حفص : لقد أبعدهم الملك قبل الاقتحام .. وهذه الزوجة خطفها خطفا .. وهي ليست الأولى .

قال : مخطوفة ! ملك يخطف النساء !

رد القائد عسكر فقال بإشارة من حفص : نعم أيها الملك السعيد ،عندما يسمع النعسان بحسناء يخطفها ولو كانت حليلة ، وبعد قضاء شهوته ومغامراته يسرحها ويطلقها .

قال الملك استغرابا : وكيف يصمت عنه جيرانه الملوك ؟!

قال عسكر : يحذرون غدره وسوء أخلاقه.. فهذه الزوجة التي تحدث عنها بعض الشعراء

أمامكم أخت أحد الأمراء من بلاد كذا .. وهذا الشاعر قريب لها ؛ لذلك ذكرها أمامك ؛ لتعمل على تحررها إذا دخلنا مدينة صيرم .

قال سيف : أبناء خالتي لم نصل إليهم !

قال عسكر : نقلهم قبل دخولنا .. كان ذلك متوقعا .

قال : لقد طلبنا منه خلع نفسه لأحد أبنائه ؛ ولكنه جبن عن التخلي عن العرش وهو حي .

قال عسكر : قد يكون خشي من الانتقام منه وحبسه .. وهو معزول من سلطاته وحكمه .

قال الملك :هل علمتم المدينة التي هرب إليها؟

قال القائد عسكر : لحتى الحين لم تعرف ؛ لكن علمنا أن الكثير من سادة البلاد انتشروا في عدة مدن لتوريطهم في حربنا .

قال الملك موجها الكلام لحفص : أيريد تشتيت جيشنا ؟!

قال حفص : قد يكون ذلك .

قال : ما أخبار بلادنا ؟

قال : البريد متواصل يا مولاي! وأنا أفكر بتبديل الجيش هذا بجيش آخر حتى لا نضطر لجلب النساء للرجال أو يتزوجون من بناتهم في هذا الوقت .. وهذا يضعف جندنا .. سيبدأ نصف الجيش بالعودة كما يطلب الوزير عندما يصل عدد من الجيش من البلاد .

قال : وجيشنا في مدينة حميد .

قال القائد : سنبقي عددا قليلا منهم هناك حتى نرى ماذا سنفعل بهذه المدينة ؟ فإذا خضعت لنا بدون تمرد ، وراق للناس حكمنا نستغني عن حماية الملك حميد لأن مكمن الخطر كان هو هذا الملك وأجداده .

شكرهم وقال : أحسنتم بالتدبير أنت والقادة والوزير غالب .

قال القائد : أنت ملك باسل يا مولاي! وجودك مع الجند رفع من حماسهم وجهدهم وثباتهم

الملك الهارب

لم يعرف الملك سيف أي المدن هرب إليها ملك صيرم ؛ لأنه غادر المدينة قبل اقتحامها كما ذكرنا .. استسلمت المدينة كاملة للجيش الغازي ، وتوقفت بؤر القتال ، ولزم الهدوء المدينة والترقب يترقبون أمر الملك سيف بعد طلبهم الأمان.

وأخذ الوزير غالب يدير أمر المدينة بمن تعاون معه من الأهالي ، وأخذ كذلك يجري عملية استبدال الجيش بسرية تامة .

وسرت إشاعات بأن الملك سيف سيغير نظام الحكم في المدينة ، وستحل أسرة جديدة حاكمة للبلاد ، وبدأ العامة يتطلعون إلى الأسرة القادمة والتي ستحكم المدينة ، ويتسألون هل ستثبت أقدامها فيها ، ويرضى الملك الهارب ابن صيرم وقبيلته الخضوع للملك الجديد ؟!

وبدأت مظاهر التغيير تحدث دون إعلان ذلك للناس ، وبدأت تصل هذه التغييرات إلى الملك الهارب وحاشيته الذين انتشروا في المدن المجاورة والأرياف ، وأخذ الوزير بمصادرة أملاك وأموال الملك وأعوانه المعروفين .

فكان ابن صيرم يقول لقائد معه: أصحيح ما يرد من أخبار ؟!

رد المعاون : الجواسيس تتحدث عن ذلك ، وأنهم يطلبون المزيد من الجند ، ويرغبون بجلب قبيلة كبيرة للاستقرار في المدينة ، وسيتولى الجيش حكمها حتى تستقر قبيلة عزام كلها فيها .

قال : ومن قبيلة عزام هذه ؟

قال المعاون : هذه قبيلة تنتشر في مدينة اللؤلؤ ، ومدينة حميد ، ومدينة ضياء سيجمعهم الوزير غالب في بلدنا ليكونوا حكامها .

وقال الملك بجنون : ونحن سنبقى في المنفى !

قال : قد يطاردوننا كما فهمت من بعض رجالي في المدينة .. وعلينا تجميع فلول جيشنا وننشئ جيشا قويا لغزو المدينة قبل تمكن هؤلاء منها أو تقسمها بينك وبين أحد الملوك ؛ لعله يقبل بمساعدتنا.. ولا نعتمد على اللصوص والمطاريد من بلادهم .. فهؤلاء أول من يهرب عند

اللقاء ..ويضعفون باقي الجند بفرارهم .

قال بحسرة : الآن لا ينفع البكاء على الأطلال .. علينا القتال حتى الموت .. أنا أعترف بأني تسرعت في الهجوم على مدينة حميد الملك .. لقد ظننت أن حلفهم مع مدينة سيف ضعف ، وسيتركونهم لنا فريسة سهلة .. وهم يعتقدون أنهم تهاونوا في حماية زرارة .. ما كان علينا أن نسمع قول ذلك الكاهن بقتل زرارة ظلما وغدرا لتأجيج الحرب بين سيف وحميد .. فها نحن خسرنا كل شيء.

قال المعاون : أذكر أنهم قالوا لك إن هذا الكاهن موتور ونذل وخائن وهارب من سجن المدينتين .. وإن غضبهم من زواج سفانة لن يفصم تاريخ البلدين .

قال : نعم ، قال بعضهم لي ذلك .. غرتني الأماني ، فسارعت بإرسال عصابة اللصوص لاغتياله ، ثم أطعته في خطف وأسر أبناء الأميرة .. هل أستسلم لهم ؛ ليعود ابني ملكا ؟!

قال : هم شرطوا ذلك علينا قبل المعركة الأخيرة .. لا ندري رأيهم اليوم .. وقد بدأوا بلم تلك القبيلة .. وأين ذهب ذلك الكاهن الخائن الذي تآمر على حياة الملك الذي كرمه ورفع من شأنه ؟

ضحك صيرم غلا وقهرا وقال : هرب كما هربنا!

قال : إنه رجل شؤم وسوء وشرير ليتك تخلصت منه .

قال النعسان :كان صديقا مقربا من زرارة .. حرك مطامعي لحكم مدينة حميد .. طمعت بتحقيق ما لم يحققه أجدادي بتوسيع ملكنا والاستفادة من خصوم حميد الذين يعيشون في بلادنا .. فعرف الكاهن اللعين هواي .. فلعب على ذلك الوطر .. ورأيت الأمر سهلا .. لقد رأيت بنفسك كيف دخلنا نصف البلاد دون مقاومة قوية ؟ رأيتها فرصة قد حانت من تدهور علاقات المدينتين.

قال المعاون : وقام والد زرارة قديما بطردنا ، وقويت صداقته بوالد حميد ؛ ولكنه يومذاك لم يغزنا اكتفى بطردنا .. وكانت بيننا المواثيق .. شاعر تسبب بتدمير مدينتنا .. الملوك يرفضون

استقبالك خشية أن يتهموا بالتواطؤ معنا ضد سيف .. علينا بتجميع أنصارنا وفلول جيشنا .

قال الملك : يطول الأمر .

قال : ما الحل يا مولاي الملك !

فقال بحيرة :بقاؤنا في أي بلد سيعرض شعوبهم للقتل والمعارك ..ضاقت علينا الأرض بما رحبت .. أسلم نفسي لسيف .

قال المعاون :ودم جده ..سيعرف أن لنا يدا !

قال : ذاك الكاهن هو الذي قتله ، وشجع اللصوص على قتله .

قال المعاون : بصمتنا ودعمنا .

ركبت الحيرة الملك كان يعتقد أن جيشه أقوى الجيوش وأكثرهم شراسة وندا لجيش اللؤلؤ إذا تطورت الأمور ، وتمنى لو أنه أصغى لوزيره لقد نبهه على قوة جيش الملك سيف ، وأن أفراده متجانسون ، ومن عدد محدود من القبائل فقط ، وأن الاعتماد على اللصوص وقطاع الطرق اعتمادا مهزوزا وفاشلا ؛ لأنهم لا يقاتلون عن مبدأ غايتهم المال والنهب والسلب، هم ينفعون فقط في الغارات والانسحاب بما غنموا ؛ لذلك كانوا سببا في ضعف الجيش والدفاع عن المدينة ببسالة .

كتب ابن صيرم رسالة استعطاف لأحد الملوك ويحثه فيها على التوسط بينه وبين سيف ، وإنه سيكشف له قاتل الملك زرارة .

قرأ الملك عادل رسالة الاستعطاف وأعطاها لوزيره وقال : أين ذهبت غطرسته وتكبره ؟ رسالة ذُل وخضوع !

قال : لكني سمعت يا مولاي أن الملك سيف سيؤسس مملكة جديدة في المدينة وأن حكم أسرة صيرم انتهى .

قال : وهل سيكتب لها الدوام ؟ والرجل سيدلنا على قاتل زرارة المقتول ..ونحن بشفاعتنا بينهم نستطيع أن نعيش بسلام إلى حين من الزمن .

قال وزيره : الملك سيف وقادته مصرون ـ كما تصل إليّ الأنباء ـ على خلعه قبل احتلال المدينة فكيف بعد السيطرة عليها كما ينقل لنا التجار والمسافرون ؟!

قال : نذهب ونتشاور مع الملك سيف ووزيره .. فهو مستعد للتنازل عن العرش لابنه ، وأن يعيش أسيرا في بلده .

قال : القول الفصل أيها الملك ليس لنا .. القول الفصل للملك سيف ووزيره وقادته .. وسآخذ هذه الرسالة إلى الملك سيف وأسمع رأيه .

قال : لماذا لا تذهب بها للوزير أولا ؟

رد : قد يغضب الملك سيف .. فهو مع الجيش .

قال : يغضب.. أليس القول الفصل للوزير ؟

قال : صحيح ؛ ولكن الملك موجود ، لابد من رأيه ومشاورته .. وهل تظن أن الملك النعسان بريء من دمه ؟!

قال بتردد : الرسالة توحي بذلك .. إنه يعلم قاتله .. ولا يد له في قتله .



هرب السجناء

قبل دخول الملك سيف مدينة صيرم هرب حراس بعض السجون خشية الوقوع في الأسر أو يصرعهم السجناء ، كان ممن هرب الأمير كساب ـ هو لما أسر أسر على أنه تاجر ، لم يعرف في تلك المدينة بأنه أمير ـ وسار بعد تحرره ، ودخول جيوش سيف البلاد إلى زوجته ، وقص عليها خبره ، وخبر الحرب ، واستعد هو وأسرته للانتقال إلى مدينة أخرى .

قالت الأميرة : أنا كتبت للملك سيف من أجلك وناشدته أن يسعى في فك أسرك فما رأيك أن نعود لبلادنا ؟ فالملك الوالد قد مات وأختي خلود علمت ـ كما تعلم ـ من إخوتك أنها تصالحت مع أمي والملك سيف .. وهي تتردد بين المدينتين .. والملك سيف هو ابن أختي أمامة وهي أول من تزوجت دون رضا الوالد .

قال : أنا خطر لي ذلك قبل الأحداث الكبيرة وأنا في السجن ؛ لكن هل سيقبلنا الناس بعد خروجنا ؟

قالت : المهم أن نعيش بسلام كما نعيش هنا .. نبعد عن السلطان والأمراء .. ونعيش بأمان .. والأولاد من حقهم أن يعرفوا أقاربهم وملكهم .

قال موافقا : إذن علينا أن نرتب رحلة مع قافلة تجارية .. وقد عادت التجارة كما كانت بين البلدين ؛ ولعلنا ندرك آباءنا وأمهاتنا أحياء يا عزيزتي .

قالت : إذن نرحل وهناك نكشف أمرنا للناس .

طفق كساب التاجر يرتب لعودة أسرته إلى بلادهم التي هربوا منها ، ولما وجد القافلة المسافرة لبلاد اللؤلؤ جهز بضاعته وأسرته ، وتحركت القافلة بعدما جهزت إلى بلاد الملك سيف ، وأثناء الطريق حدثهم قائد القافلة عن المكان الذي تعرض فيه الملك زرارة للغدر ، فذرفت الأميرة الدموع على والدها الذي قتل غدرا حتى أن بعض رفقاء القافلة تأثروا بدموعها وشاركوها الحزن .

تابعت القافلة السير حتى دخلت بلاد الملك سيف بسلام ، ولما نزلت الحمولات في الخانات

القريبة من الأسواق استأذن كساب القائد لزيارة بعض المعارف ، وذهب منفردا لقصر والديه وعانق الرجل والديه ، وذرفت دموع اللقاء ، فهم لهم عدد سنين لم يجتمعا ، وإن كان بعض إخوته يمرون عليه في أثناء تواجدهم في مدينة حميد على أنهم أصدقاء وأبناء تجار .

وبعد حين أحضر زوجته وأولاده لقصر أسرته ، وعانقت الأم كنتها، وشكرتها على شجاعتها وتعشوا معا.

وفي الصباح ذهبت الأميرة إلى قصر جدتها لتقابل أمها عزوف ، وتتعرف على شقيقها ابن مناع ولما أخبرت الملكة بأمرها خرجت إليها مسرعة وعانقتها بحب وشوق وسعادة ، وذرفت الدموع الغزيرة ، وكان لقاء حميميا جياشا .

وتحدثا عن حياتها وأخبارها ، وقابلت أخاها الذي التزامها ورحب بها .

وأرسل الأمير غلمانا لإحضار الأمير كساب وأولاده الخمسة ، واستقبلت عزوف أحفادها وصهرها بشوق ، وعلم أهل القصر ومن حولهم بمجيء الأميرة بانة .

وأقامت عزوف وليمة كبيرة بهذه المناسبة، ودعيت إليها سفانة التي رفضت الحضور وحتى لما أخبرت بسبب الوليمة أصرت على رفض الحضور .

وقالت بانة : أنا سأذهب إليها .

وتذكروا خطف أولادها ، وأنهم ما زالوا مفقودين ، وقضى القوم ليلة في ضيافة الملكة ، وكتبت عزوف رسالة للملك سيف تخبره بعودة خالته بانة للبلاد ، ونجاة زوجها من أسر ابن صيرم .

وفي الصباح زارت الأميرة شقيقتها سفانة وعزتها بأبيها ، وشكرت سفانة لها مجيئها ، ولم تظهر أي حزن على فراق ذريتها ، وحدثتها عن مشاكلها مع أمها ، وبغض ذهابها لقصر أمها أو جدتها وكرهها لأخيها من أمها ، وحدثتها بانة عن الصلح والمصافاة مع أمها ، وبينت لها عذر أمها بالزواج من مناع أثناء نفيها وطردها من قبل والدهم ، وكان الزواج اضطراريا ، فهي تعيش وحدها مع خدم ودون حرس ،ولم يطلبها إلا ذاك الرجل ، وذكرت لها أن الرجل تاب

منذ غادر المدينة ، فهو لم يعد لصا ، وكثير من اللصوص تابوا ، وصاروا علماء وملوكا، وفي النهاية قالت : أبوك طلق أمنا ، والابن رياض لا دخل له في جرم أبيه وزواج أمنا .

قالت بشجاعة : أنا أعترف أني مخطئة في حق أمي !

قالت بانة :أمي لم تكن مقصرة مع أبي .. وقد رأت بنات الأمراء والسادات يتزوجن ويلدن .. وبنات الملك دون أطفال وأزواج .. وأمي لم تر رأي أبي حصيفا في عدم تزويجنا لمنام رآه .. ولم يغير رأيه ، وقد كبرنا .. والكاهن اللعين يضخم له أمر الموت على يد حفيد .. وها هو قتل على أيدي اللصوص وقطاع الطرق .

قالت : وسيف حفيده، وكان سبب موته.

قالت بحيرة : هو الذي قتله ! الملك نفسه طلب العودة لما علم باعتلاء الحفيد العرش ..وهل يرفض الحفيد رغبة جده؟ .. أبي تأكد أن المنام أضغاث أحلام وإلا ما غامر بلقاء الحفيد الذي ماتت أمه بسبب إهماله علاج أمه .. هل نقول إنه قتلها يا سفانة ؟!وأبي لم يطلب منك الحزن للأبد .. ولم يجبرك على الرحيل كما أراد عند طلاقك الأول .. حزنا وبكينا كسائر الخلق .

قالت : أنا عشت معه في سنواته الأخيرة ، وعرفت الضيم الذي حل به من خلعه عن الملك .

قالت بانة مبررة : هذا تقليد في جميع المدن .. ثلاث بنات للملك تزوجن دون موافقته ورغبته

قالت : إنني أحب أبي .

قالت بانة : ونحن نحبه أيضا .. أترينا نبغضه ؟!

قالت : أصبح وحيدا.



حكم المدينة

عرض الوزير غالب حكم مدينة حمصان على زعيم قبيلة عزام المنتشرة في بلاده ، وبلاد الملك حميد وغيرها من القرى ، وقبل زعماء القبيلة العرض بعد إقناع الوزير لهم ، وأنهم سيبقون تحت الحماية لمدينة اللؤلؤ حتى يستقر ويثبت لهم الحكم .. وسيبقى عدد من الجيش لحماية البلاد حتى ينشأ منهم جيش يستطيع حماية الملك .. وسمح لهم بإجراء تحالفات مع قبائل تقل عنهن قوة وعددا.

وعلى هذا الأساس بدأت قبائل عزام تزحف إلى المدينة ، وتم تمليكها المنازل الخالية للهاربين ، واختيار بقعة فارغة من العمران لإنشاء مركز قوة لهم ، لا يسكن فيه إلا القبيلة والحلفاء لهم من القبائل الأخرى .

ولما وصل الكثير من أفراد القبيلة اختير أحد أبناء الشيح علي ملكا على البلاد ، وشكل له حرسا من أقاربه ، وكل ذلك برعاية الوزير وقائد جيش بلاد اللؤلؤ الأمير حفص ، وموافقة الملك سيف .

وبعد شهور ثلاثة أعلنت البيعة له ، وطلب من أعيان المدينة بيعته والولاء له ، ومن يرفض ذلك عليه الرحيل ، ومن لم يعجبه التغيير عليه الرحيل إلى أي البلاد شاء ، وأخذ رجالات المدينة الذين طلبوا الأمان ، يتوافدون على قصر الملك لبيعته ، وكذلك فعل التجار ، ، وبدأت الملوك المجاورة ترسل الوفود للتهنئة للملك الجديد .

وكانت قبضة الملك سيف قد سيطرت على كل مفاصل البلاد والحكم ، وتأسس نظام شرطة جديد من أبناء القبيلة ومن شبان المدينة .

واستعد الملك سيف لمطاردة الملك ابن صيرم ، وقد رفض شفاعة الملك عادل ورسالة الاستعطاف ، ورد عليها أن صيرما له يد في اغتيال جده زرارة بتعاونه مع اللصوص لقتل جده ، ولغزو اللصوص بلاد حميد وأسر أبناء خالته ، وأنه الراعي لكل الفتن .

خرج الجيش الملكي من المدينة بعد تركه حامية من خمسمائة جندي ، ووعد الملك الجديد حسن

بإبقاء ألفي جندي عند العودة لبلادهم حتى يستقر الحكم ، وينشأ جيش منهم .

وسمح الملك حسن لأبناء القبيلة بالزواج من بنات ونساء المدينة ؛ لتعميق الصلات بأهل المدينة ، ونكح بعضهم قريبات الملك الراحل .

جن جنون ابن صيرم المختبئ في الجبال والكهوف بين المدن مما سمع من أخبار ، وعلم من الملك الذي شفعه أنهم يتهمونه برعاية قتل الملك زرارة ، وخطف أبناء خالة الملك سيف ، فأدرك النعسان أن أمره مكشوف ، وليس أمامه إلا الهرب والاختفاء أو الموت ، وأن مملكته سوف تتلاشى مع الزمن .

وكتب متوسلا لبعض الملوك البعيدين يطلب دعمهم ومؤازرتهم ؛ لاسترداد ملك آبائه وقبيلته ، وطلب من قائد جيشه غضب إنشاء جيش لغزو البلاد عندما يجد حليفا وطامعا .

وحاول أعوانه الذين لم يهربوا إثارة بعض القلاقل خلال تلك الشهور من الاحتلال ، فكانوا يواجهون بصرامة وقوة وردع عنيف .

وحتى المحاولات الخارجية لم تنجح مع جيوش الغزاة ، فقد كانت سمعة ابن صيرم في الحضيض لدى المدن الأخرى .

لم تستطع عيون ابن ظفار تحديد مكان اختفاء ابن صيرم ؛ لأنه لم يقبل أي ملك استقباله في بلاده خشية من غزو الملك سيف .

فوضعت جائزة مغرية لمن يدل على مكان اختفائه ، وكل قافلة تجارية تدخل المدينة تخضع للسؤال عنه ، وعن أتباعه لعل أحدهم صدفهم في طريق في جبل في واد .

وذكرنا أن أنصار وأمراء صيرم تفرقوا في المدن المجاورة ، لم يستقروا في مكان واحد ؛ بل تشتتوا في عدة مدن .

فكان سيف بعد مضي العام يقول لقائده : سأعود للبلاد كما فعل الوزير وعليك بمتابعة المهمة وقد سمعت من عسكر القائد عن رغبة وزير النعسان بطلب الأمان وسنعطيه ذلك ..كما

سمعت منه ، ومن لقائه بالأسرى لم يكن لنا عدو ، ولم يكن مؤيدا للملك في ظلمه وعدوانه .. وهو الآن يعيش بعيدا عن الملك ابن صيرم ونحن يهمنا أن نقلل من أعداءنا لثبات الحكم الجديد

قال حفص : يعطى الأمان ..ولا يسمح له بالعودة إلى حين ؛ ربما عشر سنوات ؛ فإذا قبل ذلك سنمنحه السلام له ولمن شاء من أقاربه وأهله .

كتب القائد للوزير الهارب بهذه الشروط والعفو ، فقبل الوزير الشروط وتبرأ من أفعال الملك ابن صيرم ، وأكد لابن ظفار خطف أولاد الملكة سفانة ، وأنهم أسرى لدى الملك ، وأعلمه أنه لا يعلم مكان اختفاء الملك ، ونفى أن يكون لجأ إلى أي ملك ، وأنه لا يثق إلا بقائده غضب وبعض رجاله ، وأنه كان يقوم بأعمال سرية دون اطلاعه عليها من قتل وخطف نساء وسرقة جواهر .

وبين له أن للملك علاقات سرية بلصوص وحرامية المدن ، وأن رجلا جاء المدينة والتقى غضب ، ثم الملك وحرضه على التآمر على الملك زرارة ، وزعم له أنه بقتل الملك تحدث فتنة بين البلدين تمهد لغزوه لبلاد حميد .

ولما سأل سيف القائد عن هذا المحرض والمتآمر والمشجع على قتل زرارة قال القائد : إنه صديق الملك زرارة الكاهن الشرير غياث .

صاح سيف : يا الهي ! أمعقول هذا ! لقد كان صديقه الحميم .

قال : هذا كلام الوزير لابن ظفار .. فهو قد هرب من سجن بلادنا بعد خلع جدكم .. ثم هرب من سجن الملك حميد . . قال سيف : أريد هذا الرجل الخبيث !

قال حفص : نحن نبحث عنه، فقد طلبت من العيون بالقبض عليه أثناء تجوالهم في المدن والأمصار ؛ ولكننا لم نصل إليه بعد .. ولا ندري أهو حي أم لا ؟ وهو ماكر مخادع !

قال : لعله مع الملك!

قال : لعله مع الملك ؛ ولكن الوزير أخبر أنه اختفى قبل غزونا لبلادهم .. وسنبحث عنه مهما طال الزمن .. ومهما تنكر وزور .

المغامرة

لما علم الوزير غالب بما أخبر به وزير صيرم من تآمر الكاهن على حياة زرارة استشاط غضبا ونقمة عليه ، وأنه غدر بالملك ولي سعادته ؛ ليثير الحرب بين البلدين لصالح صيرم .. فكم دافع وقاتل زرارة عن الكاهن ؟!ورفع عنه عقوبات وظلمات أصابت الرعية منه ومن أعوانه ، ورجح أن يكون هو الذي حاول قتله بالسم لنفس الهدف الجنوني .

فمنح الوزير القائد ابن ظفار شهرا واحدا ليأسر غياثا ، ويعرف مكانه على الأقل ، فغادر عسكر البلاد بمائة فارس للبحث عنه ، وسينطلق البحث من مدينة الملك الجديد حسن بن علي ولما لم يستطع جيش سيف معرفة مكان صيرم أعيدوا للمدينة ينتظرون كشف المكان .

أرسل ابن ظفار ثلاثة من رجاله الأذكياء للقاء وزير صيرم ، وسماع قصة غياث مرة أخرى ، والأماكن التي قد يكون هرب إليها .

فقال لهم الوزير لما علم أنهم من رجال ظفار في خلوة : هذا الخبيث له صداقة قديمة مع الملك كلما يأتي البلاد يخص الملك بزيارة .. يُستقبل لدى الملك كضيف وصديق .. ويمكث زمنا ، ثم يذهب، ويعود بعد سنوات .

وتابع الحديث : وهذا أمر عادي بالنسبة لنا .. فالملك له معارف من كثير المدن بسبب مغامراته النسائية والعاطفية .. ثم ظهر فجأة .. وعلمت من الملك بأن الرجل يشجعه على غزو بلاد اللؤلؤ وإعادة الملك زرارة لحكمها ، وأن يقاسمه العرش ؛ لأنه الملك الأحق بها .. وبينت للملك النعسان صعوبة ذلك الأمر .. وأن هذا العمل صعب تحققه .. والملك كان مقتنعا بصعوبة ذلك .. وسمحنا له بالحياة بيننا ، ولا أعلم بما كان يدبره مع الملك لقتل زرارة ؛ لأن علاقته كانت شخصية مع الملك .. فكان يختفي ويظهر ، ثم علمت بقتل زرارة أثناء عودته لبلاده على أيدي لصوص وقطاع طرق .. ولما ظهر الكاهن في القصر الملكي ومن كثرة لقاءاته بالملك ارتبت ببعض الأمر ؛ ولكن الأمر بدا واضحا بالنسبة لي بأن لنا يدا بقتل زرارة .. وسمعت الملك يتحدث عن حرب قد تحدث بين بلادكم وبلاد حميد .. وأن في ذلك مصلحة

لنا لغزوها وتنصيب ملكا من أقارب حميد بدلا منه يكون مواليا لنا .. فشممت راحة للملك بمؤامرة القتل .. وكان الرجل قد أصبح من جلساء الملك ، ويظهر معه في الديوان والقصر ويتحدث عن توسيع المملكة والحرب والحاجة للمزيد من الأموال وتقوية الجند ..فأستغرب من تحدثه بذلك مع الملك ؛ كأنه سيد كبير ..والملك لم يكلمني عنه أو يفصل إلا بإشارات مبهمة ..وكان الملك يحب ويهوى الحديث عن هذه الأحلام والتوسع والانتقام

ومضت الأيام ولم نسمع عن حرب بين المدينتين ، وبدأ يكثر اللصوص والمنفيون في بلادنا دون أن يوضح لي الملك ذلك .

ثم رأيت هؤلاء اللصوص وبعض رجال القائد غضب يغزون بلاد حميد ، ودخل بعضهم المدينة على أنهم تجار ، ثم غزا الملك بنفسه تلك المدينة ، ثم تدخلتم ، وتم طرد جيوشنا ، وعودتنا للبلاد والحصار وسقوط المدينة .. ونحن هربنا في مدن شتى .. فلجأت إلى هذه المدينة لصداقتي مع وزيرها وأهلها .. وهام الملك على وجهه ، لم يقبل أي ملك لجوؤه إليه لعدم رغبتهم بالحرب مع ملككم الشاب سيف .

وقد يكون غياث مع حاشية الملك أو هرب بعد توريطه الملك بهذه الحروب الخاسرة .. وهو رجل ذكي وقادر على التنكر والتخفي بشخصية شحاذ فارس .

وذكر الوزير بعض الأماكن التي يتردد إليها اللصوص والمنفيين من بلادهم ، وقد يكون الملك ابن صيرم بينهم.. فهو من عشاق لصوص المدن .. وكان يزعم بصداقته لهم أنهم لا يسرقون بلاده .. وكان بفعله ذلك يغضب جيرانه الملوك .. فبعضهم بل أكثرهم قتلة وهاربون من شرطة بلادهم .

كان المهمة واضحة لعسكر وأعوانه العيش مع اللصوص ، ووزع رجاله إلى عشر مجموعات لدخول عشرة مدن حول مدينة صيرم ، فكما دخلوا خفية خرجوا خفية .. عليهم أن يعملوا كشحاذين كباعة بضاعة متجولين كأصحاب عاهات .. وطلب منهم التعسعس في القرى الملاصقة للمدن ، ولا تبعد عنها كثيرا لحاجة اللصوص لشراء الأغذية من المدن الكبيرة .

وبينما الفارس جابر يدخل أحد الأسواق الكبيرة في مدينة نوف ، ومعه حمار وكبشان يتظاهر بأنه يسعى لبيعهم في السوق ، وأنه قادم من قرية بعيدة .. وبينما هو يتجول بهما سمع أحدهم يساوم تاجر ماعز على شراء عدد منها لأحد الملوك .. فتسمر جابر مكانه يتسمع .

فقال التاجر : يا رجل سواء اشتراها ملك أم عبد .. كل رأس بعشرة دراهم .. السوق ملآى بالخراف .. هذه خمسون رأسا بخمسمائة درهم .

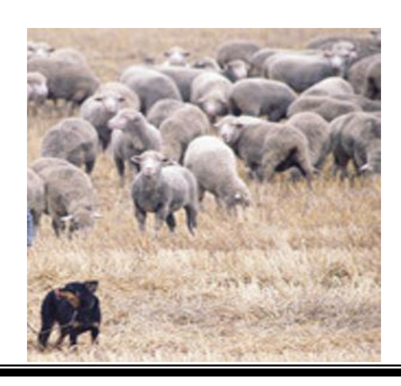
قال : خمسة دراهم في الرأس جيد .

قال مرة أخرى : ملك يمر بضائقة مالية كسائر الناس .

ردد التاجر كلام الرجل وقال : هذه أول مرة أسمع بمثل هذا يا هذا !

كان جابر يطمع بسماع اسم الملك الفقير ، ومن أرسله لشراء هذا الكم من الخراف فأسرع ببيع حماره وكبشيه بثمن بخس ، واشتغل بمراقبة الرجل .. واشترى الرجل الخراف وبعد بها عن التجمع .. وكان جابر قد عرض عليه أن يساعده .. فقبل الرجل وكان الفارس يقول: إذا أردت راعيا فأنا أعمل راعيا يا سيدي !

أعمق النظر فيه وقال : أنت راع .. ابق عندها حتى أشتري غيرها ..إياك والهرب .. قد أسمح لك بالبقاء معي لرعيها.



الراعي

أصبح الفارس جابر الراعي هجرسا ، أمره الرجل سرحان بحفظ الغنم حتى يشتري المزيد منها ، ولما اشترى ما يقارب المائة منها استأجر هجرسا كراعي معه حتى يصل بها لأصحابها الذين كلفوه بشرائها ، وهم الذين سيقررون بقاءه أو صرفه .

مضت أول ليلة وهم يسيرون في الدروب والوديان ، وفي الطريق قال هجرس لسرحان : لو ابتاعت كلبا ما دامت الطريق بعيدة .

قال سرحان : عندما نصل الديار سيكون معها الكلب .. والكلب مزعج أثناء الطريق .. أتركت الرعي؟

قال : اشتغلت به سنوات وسنوات لدى الكثير من الأغنياء والسادة . وعدد أسماء من عمل لديهم ، ثم قال : أنا كل سنة أمضي لأهلي، وأقضي عندهم عددا من الأيام ثم أمشي لسوق هذه البلدة نوف ، وقد ملكت حمارا وكبشين وبعتهما .. ثم أتنقل بين التجار والرعاة حتى أوفق لعمل .. وآخر شخص عملت عنده الشيخ سلطان بن همام ..وهو وهبني حمارا وعنزتين.. وقد رأيتني أبيعهما في السوق .. ولما رأيتك تشتري هذه الأغنام عرضت نفسي عليك .. فأنا غير مربوط مع أحدهم هذه الأيام ؛ فإذا قبلتم بي عملت معكم هذا الموسم .

قال سرحان : قد يقبل السيد الذي أعمل معه أن يستأجرك لموسم أو أكثر .

ومضت ليلة ثانية وثالثة عندما دخلا واديا فقال سرحان : هنا يا ولد .. هنا يا ولد مرعى السيد نزل من بعض المغر عدد من الرجال وقال أحدهم : اشتريت الغنم ..ومن هذا؟!

فرد سرحان : ابتعها من نوف .. سوق نوف الكبير .. واستأجرت هذا الراعي ؛ فإذا كان لنا فيه حاجة نستأجره ، وإن لم يكن بنا حاجة إليه ننقده أجره وينصرف راشدا .

قال : كم أجره ؟

قال : عمل أخر موسم مع الشيخ سلطان بن همام على حمار وعنزتين .. وأما نحن نعطيه في اليوم ربع درهم .

قال : وأهله!

فقال سرحان : كلما تيسر له ذهب إليهم.. وهو من غير زوجة ..إنما هما أمه وأخته وبعض خالاته .. وله معي ثلاث ليال .. أجره عن كل يوم درهم بسبب السفر وصرة طعام .

قال : فليبق حارسا للغنم حتى نفصل في شأنه .

ساقه سرحان إلى وادي الرعيان ، وعرفه على الراعي شاليش ، ورحب به شاليش ، واعتبره أخا له .

وسأل هجرس : أهذه عشيرة تعيش في هذه الجبال العالية؟

قال : عشيرة صغيرة يا هجرس .. من أي العربان أنت ؟

عاد هجرس وروى قصته وعمله في الرعي كما رواها لسرحان ، ولما انتهى قال : وأنت من أي العربان ؟

قال شاليش : أنا مثلك من سكان المدن ..كنت راعيا عند الملك .

تظاهر جابر بالدهشة والخوف : راعي ملوك ! كنت راعي ملوك ! وايش رماك على هذا الوادي ؟

تنهد شاليش وتحسر : الزمن يا هجرس .. جار علينا الزمن .

تظاهر بالسذاجة وقال : طردك الملك .

قال : لا ، لا ، يا هجرس غدر بنا الزمن

قال : مات سيدك الملك .

قال : لا ، لا ، ما مات .. ناس اعتدوا علينا ، واحتلوا بلادنا .. فهربنا بالمال والحلال .

قال : تعيشون في المنفى والكهوف .

قال بحزن عميق : نعم ، نعيش في هذه الكهوف بعد القصور .. أنا حزين لسيدي الملك .. حزين لسيدتي الملكة بعد العز ننام في المغر .. الزمان دوار

تظاهر جابر بالإجهاش بالبكاء والحزن وقال : حزنتني على الملك والملكة .. وما هو سبب هذه

البلية يا أخي شاليش ؟

مسح دمعات سالت على خديه وقال : السبب طمع بني الإنسان فيما عند أخيه

قال : الملك سيدك يعيش هنا .

قال بأسف : نعم ، يعيش في إحدى المغارات .. ما عاد لنا صديق .

قال : مسكين هذا الملك ! أنت عندك كلام كثير لا تحب قوله .. احفظ سرك يا أخي .. أنا قلبي معك .. أنا ما أحب الحزن كثيرا ؛ لكن هذه الدنيا لا تخلو منه .

قال : أنت طيب يا هجرس ..الدنيا ملآى بالنكبات والآلام .

قال : صدقت يا شاليش .. ألك زوجة ؟

قال : زوجة وماتت زمان ..وأنت !

قال جابر : لم أتزوج .

قال : عيال ما عندك ما دامت لم تنكح .

قال : ما عندي عيال .. كنت أرعى أولاد أختي .

قال : أنا كان معي رعيان كثر ؛ لكنهم ظلوا بالمدينة لما خرجنا منها ؛ لعلنا نعود للمدينة ، وتعود معنا يا هجرس .

قضى هجرس عددا من الأيام مع الراعي شاليش ، وكان الراعي يذهب صباح كل يوم قبل انطلاقهم للرعي في الجبال والأودية بثلاثة أو أربعة خراف إلى سرحان والطهاة كما يخبر ، ويعود بعد حين ومعه بعض اللحم ، فيقومان بشيها وأكلها ، ثم يسرحان بالغنم ، وكانت الأغنام تنقص فما مضى عشرة أيام حتى نقص منها الكثير .

فقال جابر : كل يوم يأكلون اللحم .

قال : اعتاد السيد على أكل اللحم من أيام العز .. كان بعض الأيام يذبح عشر فأكثر .. اليوم نحن فقراء .. القائد يسأل عنك .

قال : سرحان!

قال : سرحان ليس بقائد .. سرحان يعمل مع الطباخين ؛ولكنه الذي يشتري الأغنام من الأسواق البعيدة.. القائد يسأل هل ستظل للعمل معنا أم ترغب بالعودة لديارك في نوف ؟

قال : أنا قلت لسرحان أستطيع أن أعمل معكم لموسم سنة أو أكثر .

قال : إننا نحتاج خلال أيام لمزيد من الخراف.. فيمكنك الرحيل مع سرحان لجلبها والعودة أو الرحيل .

قال : أنت بماذا تنصحني ؟

تنهد الراعي : الحياة هنا شاقة وصعبة كما ترى .. والبقاء هنا يعني أنك ستذهب كل بضعة أيام للشراء .. ففكر بأمرك وأنت رجل طيب .. علمت أن السيد هذه الأيام في ضيق .

قال : لماذا ؟

قال : الملك لم يعد لعرشه ، وأصبح طريدا ورأسه مطلوبة من قبل خصومه .. الحياة في الكهوف والجبال شاقة يا هجرس حتى أنا أقاسي منها مع أنني راعي .

قال : أنا تعودت على حيّاة البر والشعاب والحر والبرد .. لم أعرف الحياة في القصور والتخوت.

بعد مضي أسبوع أخر جاء سرحان المرعى ، وأخبر هجرس بأمر الذهاب للمدن لشراء الغنم فرحب هجرس بالرحلة .

وخرج الرجلان من الجبل المقيم فيه الملك الهارب واتباعه العدد القليل ، وكانت خطة سرحان المسير لمدينة نوف أو مدينة نعمان لشراء مائة رأس من الغنم ، وتأخذ الطريق إليهما ثلاث ليال ومسموح له البقاء ثلاث ليال للشراء .. والعودة للجبل ثلاث ليال ، وليلة عاشرة احتياط .

ولما دخلوا نوفا طلب هجرس زيارة قريته بليلة واحدة يعطيهم ما تحصل عليه من مال ، لأمه وأخته ، ويطمئنهم على حياته ، والعودة لمدينة نوف إلى خان دله عليه سرحان ، وإذا لم يجده يتبعه إلى نعمان ، وذكر له خان أسد الدين .

أخذ هجرس طريقه إلى مدينة صيرم ، وقد اشترى فرسا من أحدى القرى ، والتقى بالقائد ابن

ظفار الذي فرح بعودته ، وسعد بما حمل من أخبار، فقد كانت خطته أن يلتقي برجاله كل خمس سبع ليال .

ذكر له المكان الذي ينزل فيه ابن صيرم وخمسمائة من أتباعه المخلصين .. وأنه مريض وعلى وشك الموت كما يثرثر الراعي شاليش .. وقد أثر فيه القهر والغيظ وأنه لم يسمع عن وجود غياث معه ومع حاشيته .

وأمره عسكر بالعودة إلى نوف والعمل راعيا ، وأن يضع علامات في الدرب الذي يسلكونه لتساعدهم بسرعة الوصول للجبل ؛ بل سيسبقهم بعض رجاله قبل شراء الغنم .

في مساء اليوم التالي كان هجرس يعود لنوف باحثا عن صاحبه سرحان ، فأخبره صاحب الخان بمسيره لسوق نعمان لشراء المزيد من الغنم ، وسار لهناك والتقى به ، ففرح سرحان بعودته واطمأنته على أهله ، وشروا عددا من الغنم من سوق نعمان ، ومشوا بها نحو نوف ، ولما كمل الشراء تحركوا بغنمهم نحو الجبال التي يختبئ بها ابن صيرم ، وأقرب الناس إليه .

وقال : هذه تكفي القوم شهرا يا هجرس .. وليس لدينا وقت لتربيتها وولادتها .. وشاليش أحبك وأثنى عليك وراغب ببقائك معه .

قال جابر : إنه رجل طيب ، ورجل وفي ! وهو الذي أقنعني للبقاء معه في تلك الجبال .

فقال سرحان بحزن وحنق : كنّا في سعادة يا هجرس حتى جاء ذلك الرجل الشؤم .. وشوش على السيد .. كم نصح الوزير مولاي بعدم التحرش في بلاد الملك حميد .. وذكره بما حل بأبيه من هزيمة .

قال : وهذا الرجل الشرير اللعين أما زال مع الملك ؟

قال بغيظ : هرب قبل غزو بلادنا .. آه ! لو أمسك به لقتلته بنفسي .. مرض الملك هذه المرة أرى فيه النهاية .. كان القائد غضب من المتحمسين للقتال والشهرة ؛ ولكنه سقط عن الجواد وكسر ظهره ، ثم مات قبل شهور ؛ ولكن أولاده مع الملك

تظاهر جابر بالحزن والشفقة وقال : مسكين الملك !

قال : نعم ،إنه أكبر مسكين ! الملك اليوم يعض أصابعه ندما .. لقد تخلى عنه الصديق والحبيب حتى بعض أولاده تركوه وخرجوا من الجبل .. ومنهم من سلم نفسه لعدو الملك .

قال: لا إله إلا الله ..كل ذلك من ذاك الرجل الشرير .. ما اسمه حتى لو صدف به الإنسان حذر منه ؟

قال بحقد : اسمه غياث ..ورطنا في هذه المعارك واختفى .

قال : اختفى !

قال : نعم ، اختفى ؛ لكنني سأبحث عنه وأخلص الدنيا منه .

قال : أنت !

قال : نعم ، أنا ..إذا مات الملك سنتفرق ونتشتت ، وسيكون هو غايتي إلى آخر يوم من حياتي .

قال جابر : إنك تكرهه بشدة يا سرحان!

قال بغضب : إنه الشيطان بنفسه .. لقد أساء لي شخصيا في يوم من الأيام .. ولولا حماية الملك له لطعنته بخنجري هذا .



موت الملك

ولما وصلوا الجبل ساق هجرس الأغنام إلى مرعاها عند شاليش ، وذهب سرحان للقائد ضرار ، وعلم هجرس من الراعي أن الملك يحتضر ، وقد اشتد عليه المرض منذ خرجا لشراء الطعام ، وبعد وصولهم بيومين مات ابن صيرم في الليل ، وارتفع الصراخ والعويل بين النساء وزوجات الملك الثلاث والجواري ، وبعد يوم من البكاء والعويل دفن الملك في أحد الكهوف اجتمع القائد بالموجودين من الرجال ونساء الملك ، وأعلن أمامهم عن خططه فقال : بما أن أولاد الملك ابتعدوا عنه ، وانتشروا في المدن .. فعلينا أيها الأخوة والأبناء أن نتفرق مثلهم في المدن والأرياف .. فلم يعد لبقائنا أهمية وليس لأحد منا حق أن يطالب بالعرش .. سأنزل للمدينة ، وأقابل أبناء الملك وخاصة الأمير أدهم ؛ فإذا وافق على المجيء إلينا بقينا ملتفين حوله مطالبين بالعرش ، ونتابع المسيرة ، وإن رفض هو وغيره عليكم التفرق في المدن وبين الشعوب .

غادرهم القائد ضرار وأحد أعوانه للقاء الأمير أدهم .

وكان هجرس يقول لشاليش : أين ذهب ذلك الغياث الشيطان كما أخبرني سرحان ؟

قال : لما هزم الجيش في بلاد حميد من قبل جيش سيف اختفى من قصر الملك .. احتاجه الملك ، فلم يجدوه .. كم تمنيت أن أشرب دمه وأحرقه ..دمر مملكتنا وعرضنا للغزو والشتات .. وقتل الملك زرارة صديقه كما علمنا .. وخطف أبناء ابنته ، ثم اختفى .. وعلمنا أن ملكا جديدا نصب في بلادنا مما زاد من ضعف الملك ومرضه .. هل سيعمل ابن الملك على طلب الملك ويأتي الجبل ؟!

قال : لا أظنه يقبل يا شاليش بعد تخليه عن السير مع أبيه المريض .. والحياة في الجبال صعبة وشاقة .

وقبل أن يعود ضرار اقتحم الجبل رجال عسكر ، وتم استسلام الناس للجيش الصغير ، وكانت المفاجأة أن وجدوا الملك ميتا ، وقد دفن في إحدى المغر .

وانتظر الأمير ابن ظفار عودة ضرار بابن الملك ، ومضت عشرة أيام دون عودته .. فأمر القائد بنقل الأسرى إلى بلاد صيرم ، وترك عشرة من الفرسان والراعي هجرس في الانتظار .. ووصل بأسراه إلى المدينة ، وأطلع قائد الجيش حفص على الخبر الذي كتب بدوره للملك سيف بموت النعسان وأسر نسائه وبعض اتباعه .

وبعد التحقيق مع الأسرى سمح لهم بالعيش في المدينة أو الخروج ، وحثهم الوزير بالاستمرار بالبحث عن غياث وأبناء سفانة .

وكان أحد الأسرى قد دلهم على مكان دفن رأس زرارة ونبش القبر ، وأخرجت الجمجمة وما بقي عليها من لحم ، وأرسلت إلى مدينة اللؤلؤ بكوكبة من الفرسان والجنود حيث أعيد دفنها بحفل رسمي شارك فيه الملك والوزير وسادة البلاد مع تجدد البكاء والحزن في قصر الملك وبنات الملك .

وبينما ابن ظفار يرتب الأمور مع رجاله للبحث عن غياث جاء العشرة وهم يأسرون ضرارا ومن معه ، وسمع منهم خاصة ضرار وصديقه درهم قصة مقتل زرارة ، فقد اعترفت إحدى زوجات ضرار عن دوره في مرافقة اللصوص للغارة على خيمة زرارة ، وقطع رأسه ، وبعد أن سمع أقوالهم أرسلهم للوزير غالب مع رجاله ، فأمر الملك بقتلهم فور وصولهم ، لم يقبل فيهم أي عطف ، وقتلوا أمام الناس على أنهم قتلة الملك زرارة ، وصلبوا ثلاثة أيام ، وتم رمي جيفهم في صحراء المدينة حيث الوحوش .

وقال السيف : الحمد لله اقتصصنا من قتلة جدي ! وبقي علينا الكلب اللعين الخائن غياث .

قال الوزير : سيقع يا مولاي ! لن يهدأ ابن ظفار حتى يقبض عليه ؛ ليقتل أمام أهل المدينة .

فقال سيف : أرجو أن يصلوا إليه حيّا ..وعسكر بن ظفار بطل عظيم ! ومن أهل الصبر وأهل العقل .

وأكد غالب ثناء الملك فقال :ويملك أيها الملك رجالا أشداء ، ومن أفضل فرسان المدينة على مر الزمان .. فقد استطاع الفارس جابر دخول الجبل والعيش فيه دون أن يكشف لأحد من

رجال الملك ابن صيرم.

قال : نعم ، كتب لي ابن ظفار بقصة الفارس جابر .

قال : وقد قمنا بطمس قبر ملك صيرم وإخفاء مكان جثته .. وعفونا عن نساء الملك وجواريه وخدمه ، وخيروا بالبقاء أو الرحيل .

قال سيف : وعلمت أن بعضهن غادرن المدينة لبلدانهم اللواتي ولدن فيهن .. وأعتقد أن خطتنا ستنجح في حكم بلاد صيرم ويستقر الملك لقبيلة عزام .

قال الوزير : بقي غياث الشيطان .. كان أخي أوس يود قتله أكثر من كرة ؛ لكن خشية غضب الملك كان يغض الطرف عن منكراته ومغامراته مع بعض نساء وسادة المدينة .. فهو الصديق الخائن .

قال : كان رفيق وصديق جدي.. فأراد أن يجعل من دم صديقه شعلة حرب بيننا وبين الملك حميد .. كان لا يعمل الملك شيئا إلا بمشورته .. يا له من حقير وغد !

قال غالب : كان جدك مخدوعا بالتنجيم .. مخدوعا بقدرتهم على كشف المغيبات .. لقد سيطر عليه بذلك المنام ..أرجو أن يظفر به ابن ظفار ؛ لتعم السعادة والفرح في البلاد .

دخل الحاجب معلنا بأن الأميرة سفانة ترغب بمقابلة الملك .

قال الملك : هنا في ديوان الحكم !

الحاجب : إنها على الباب .

رأس زرارة

أمر الملك بإدخال الأميرة لديوان الحكم ، وخيم الصمت على الحاشية ؛ لعلمهم أن مجيء ملكتهم القديمة للديوان لابد أن يكون لشأن مهم وعظيم .

تقدمت نحو كرسي العرش حتى أصبحت أمام الملك ووزيره ، وبعد إلقاء السلام قالت : جئت يا مولاي الملك إلى هذا الديوان ؛ ليكون الكلام أمامك وأمام الوزير وسادة البلاد .

رحب بها الملك وقال : شرفت مجلس الحكم في البلاد .

قالت: أقدر لك أيها الملك شجاعتك وحربك من أجل دم جدك الملك زرارة المقتول ظلما وعدوانا ! وأقدر لك خروجك الحرب لأكثر من سنة في مطاردة القتلة والمجرمين ! وأبارك لك إنشاء مملكة جديدة في بلاد صيرم .. وتمنيت لو أنك أسرت ذلك الخائن ؛ ليصلب في مدينته .. وأقدر لك بحثك عن أولادي وعن ذلك الكاهن الشيطان ؛ ولكني علمت أن الرأس التي دفنت في قبر أبي لم تكن رأس أبي زرارة ، إنها جمجمة أخرى .

أصابت الدهشة الجميع لهذا النبأ ، وزاد تحديق العيون بها ، وبعد صمت قاتل قال الملك : وما أدراك أيتها الأميرة بذلك ؟ بأن الرأس لم تكن رأس جدي!

قالت : سمعت ذلك من إحدى الجواري .

قال : وكيف علمت تلك الجارية ؟! نحن تبعنا كلام الرجال الذين غدروا بالملك وشاركوا في الجريمة هم الذين دلونا على مكان الرأس .. هل ترين أنهم كذبوا علينا ؟ تكلم أيها الوزير !

التفت الوزير إلى الأميرة قائلا : أيتها الأميرة هل تظنين أننا مغفلون ؟ لقد قمنا بالتحقيق والتدقيق وهذه الجارية كيف علمت ؟

ردت الأميرة : إنها جارية من تلك المدينة .. وأهديت لي من قبل أختي بانة ـ وهي من الجواري التي أحضرن من صيرم من جواري الأمراء والسادة ـ فلما سمعت قصة الرأس قالت الملك زرارة قد أحرق رأسه .

قال : أحرق ! لا أيتها الأميرة ! أخذ الرأس لأن أكثر القتلة من اللصوص ، وبعضهم من

رجال الملك كضرار ، أخذوا الرأس لسوء ظن الملك بهم ، وليتأكد أنهم قتلوا ذات الملك ، وليؤكد لهم الكاهن أنه الملك.. إنه يتعامل مع لصوص .. ولماذا يكذبون ؟ لو حرق الرأس لقال بعضهم ذلك ..وأما أبناؤك فقد غادروا المدينة قبل وصول جيشنا .

صاحت محتجة : أنا لا يهمني أبنائي .. هم أبناء شداد .. تركتهم له وهو الذي قصر في حفظهم .. عليّ برؤية الجمجمة !

أمر الملك بعض الأمراء بالذهاب إلى قبر زرارة ، وأحضر بعض الحفارين ، وفتح لها القبر ، وأخرجت الجمجمة ؛ لتراها سفانة ، ولما رأتها صاحت فيهم : أهذا رأس أبي ؟

فقال القائد : هذا ما نعتقده أيتها الأميرة ! وسواء كان هو أم غيره بعد حين سيُصبِح رميما .

فنظرت إليه بحقد وقالت :رميم ! وهل يصير بعد الموت رميما؟!

قال : أليس هو إنسانا مثلنا ..كلنا سيصير ترابا .

قالت: تلك الخادمة كاذبة!

قال :لم نسمع أن رأس الملك حرقت ..كانوا يحتفظون به ليساوموا عليه من أجل السلام .

أعيدت الجمجمة إلى القبر ، وعادت الأميرة إلى قصرها ، واستدعت تلك الجارية وغضبت عليها ، ثم أمرت ببيعها ولو بثمن بخس .

وظلت الجارية تقسم أن رأس زرارة أحرق ، وأنهم خدعوا رجال الملك سيف

فقال سفانة: اذهب بها إلى للملك سيف في ديوانه ليسمع من فمها .

أخذها القيم للديوان ، وأخذها الوزير إلى حجرة ، وسألها عن سبب قولها بحرق رأس الملك ومن أين سمعت بحرق رأسه .

قالت بثبات : يا مولاي الوزير ! أنا لما سمعت بجلب رأس الملك الميت ، فعلمت أنها خديعة لأنني كنت إحدى خادمات القصر ، وعشت فيه منذ الصغر ، وكنت أخدم الملك والكاهن غياثا عندما استقر في ضيافة الملك ، وسمعته مرة يقول لرجل معه: لقد تم حرق رأس زرارة..

فقال الرجل : لماذا فعلوا ذلك؟! فرد قائلا حتى لا يساوم عليه في يوم من الأيام ولإخفاء أي

علاقة لنا بقتل الملك ؛ وإنما قتله اللصوص .

قال الوزير : حسنا يا لمياء ! ستحبسين حتى نتوثق من هذا الكلام .

وأرسل الوزير كتابا لابن ظفار حول رأس زرارة ، ولمعرفة الحقيقة ، وزار الوزير الأميرة وسألها عن الجمجمة فقالت : لا أدري ! هي عظام دون لحم .

ترحم على الملك وغادر .



الخبر اليقين

تلقى ابن ظفار رسالة الوزير غالب والشكوك التي أثارتها خادمة سفانة حول رأس الملك زرارة ، فكتب للوزير أن الحسم سيكون بالقبض على غياث حيّا.

وأخبر ابن ظفار رجاله بأهمية القبض على هذا الرجل ، وأن المعركة لن تنتهي حتى يمسك به .

وكان ضرار شريك اللصوص في قتل الملك، ورجل الملك الخفي أعلمهم أنه بعد خطف أولاد سفانة أخذهم واختفى ،كما أقنع الملك بذلك ، وكان بعد مقتل زرارة يتردد على المدينة أو الملك خفية ومتنكرا .

أعلنت جائزة كبيرة فيمن ساعد في الدلالة عليه ، ورغم هذه الجائزة لم يتقدم أحد لتقديم معلومات عنه .

كثرت اجتماعات ابن ظفار بقادة أعوانه لتبادل الأنباء والخطط التي يستطيعون بها معرفة مكان غياث .

فقال أحدهم : رغم بحثنا في كل المدن المجاورة والمحيطة بهذه المدينة لم نسمع أن ملكا استضافه ، ورحب به كصديق للملك صيرم.

فقال آخر : إنه رجل يعيش في المدن الكبيرة .. فليس سهلا أن يقيم في قرية ، وقد تعود على حياة المدن وصداقة الملوك .. سعينا لدى الكهنة والدجالين في المدن التي قمنا بالبحث فيها ، لم يخبر أحد بأي لقاء معه .

قال ثالث :إنه مطارد ومدفوع ثمنا برأسه ، والثمن مغر.

فقال ابن ظفار بعد سماع الكثير من الأفكار والكلام : ألا نستطيع وضع طعم له ؛ ليظهر ويخرج من وكره ؟

قال : طعم ..وما هو هذا الطعم الذي يخرج الشيطان من مخبئه ويغامر برأسه؟

قال عسكر : تذكرون أن له جارية اتخذها زوجة اسمها سمات ..فعندما حبسناه في بلادنا لقد ناشدت الوزير ليصفح عنه.

قال أحدهم :نعم ، عندما هرب من البلاد غادرت البلاد مع خادم ، وتبعها رجالنا يومذاك ، وجاءت للسكن والعيش في هده البلاد ، ثم تزوجت الخادم الذي خرج معها كما تبين من مراقبتها ..راقبناها ؛ لنصل بواسطتها لغياث، ثم أهمل أمره وأمرها ، ولم نسمع من حمزة الفارس عن أي لقاء بينهم .

قال عسكر : عليكم معرفة مستقرها .

قال : تذكرون أنها عملت جاسوسة للكاهن والملك زرارة في منفى الملكة عزوف .. وكافأها الكاهن بعد اختفاء الملكة من رقابة زرارة الملك بالزواج منها.

قال القائد : عليكم الانتشار ؛ لعله يحدث معنا كما حدث مع الفارس جابر في سوق نوف .. نحن نعلم أن الكاهن من الأذكياء .. ومهما أعطي الإنسان من الذكاء والفطنة لابد من غلطة هنا أو هناك .. ونقطة ضعف وغفلة.

أمر القادة رجالهم بتنفيذ أوامر ابن ظفار بالتسمع والتجسس عن الكاهن .

وحدث بعد هذا الاجتماع والانتشار ببضعة أسابيع أن جاءت رسالة للأمير ابن ظفار من الوزير يخبره فيها بأن الكاهن أطلق سراح أبناء سفانة ، ورجعوا لبلادهم ، وأن الأميرة تسلمت رسالة من الكاهن يعلمها بأنه أفرج عن أبنائها ، وأن لا يد له في قتل والدها الملك كما يشاع في طول المدن وعرضها ، وأن الذي أشاع ذلك ونشره الملك ابن صيرم وأتباعه ؛ لإلقاء عبء الجريمة عليه ، وليعفو عنهم الملك الشاب ؛ ولأنه كان مختفيًا بعد هربه من سجن حميد في بلاده ، واستغل الملك النعسان هربه ولجوئه إليه، وأن النعسان هو الذي سعى لقتل الملك بالسم لإشعال الحرب بين سيف وحميد ، ولما نجا الملك من ذلك استغل عودته لمدينته ، وأرسل إليه اللصوص وقائده ضرار وأتباعه والهدف قيام الحرب ، ثم يستغل ضعف حميد ليحكم بلاده ، ويصمت الملك سيف ، واعترف لها أنه هو ـ أي النعسان ـ خطف أبنائها لتأجيج الصراع ورهينة عنده يستغلها في الوقت المناسب ، وكلفه بالاختفاء بهم حتى يأتيه الأمر منه .. ولما علم بموت الملك ابن صيرم وموت ضرار تشجع وأطلق أبناء الأميرة ، وهم

في الطريق لبيوتهم وأبيهم ، وأنه كان يعيش حياة رعب معهم ومع رجال ضرار ، واستغلوا ضعفه وهربه من بلاد اللؤلؤ ومن سجن حميد

وأعلم الوزير عسكرا أن الأميرة مصدقة لكل ما في الرسالة ، وأن الكاهن بريء من دم أبيها ، وأنه أعز وأهم صديق لأبيها ، ولا يمكن أن يخونه ويشارك في دمه .. وماذا يستفيد من قتله ؟ فلن يصبح وزيرا ولا ملكا .. وأما حديث الجارية عن الحرق فهي محتارة في فهمه بعد رسالة غياث .. وأعادت الجلوس مع الجارية ، وأكدت الجارية لمياء كلامها واتهام غياث بحرق الرأس ، وسمعته يتحدث مع الملك عن ذلك .

وكتب ابن ظفار أن لا حل إلا بأسر غياث ، وإذا صحت هذه الرسالة فهذا يدل على حياة غياث ، وأرسل بعض رجاله لمدينة حميد للتحقق من حياة الأطفال الثلاثة بعد هذا الزمن من الاختطاف ؛ ولعلهم سمعوا عن اسم المكان الذي كانوا مختفين فيه ، ووجدوا لديهم أنهم تنقلوا في عدة مدن ، وآخر مدينة مكثوا فيها اسمها نعمان ، ولم يكن معهم الكاهن لما سكنوها اختفى الكاهن ، وتركهم في رعاية خادم ..وقبل عودتهم لمدينتهم أتاهم الكاهن ، وأخبرهم أن الفرج أتى ، وأحضر لهم دوابا وساقهم إلى مدينة ، وكلف رجلا عجوزا بتوصيلهم إلى مدينة حميد مقابل أجرة وبصحبة قافلة .

فأرسل ظفار رجاله إلى مدينة نوف ونعمان ، وطلب منهم البقاء فيها مدة طويلة حتى يرسل لهم بالعودة .. وهناك وجدوا أحد أبناء الملك ابن صيرم يعيش فيها كعامة الناس ، وعددا من أمراء صيرم .. واستطاع رجال ابن ظفار معرفة سبب خطف أبناء سفانة منه ـ وهو المساومة في حالة أسر أحد قادة الملك صيرم ـ واستطاعوا الوصول للبيت الذي أمضى الأمراء فيه زمن خطفهم وحبسهم .. وكان خاليا من السكان ، ووضع تحت المراقبة .



سفر سفانة

كانت سفانة مقتنعة بكل ما أخبرها به الكاهن في رسالته إليها ـ الرسالة التي يبرأ بها من دم الملك ـ وأنه حشر في القضية رغم أنفه ، وأنه لا سلطة له على الملك النعسان وقادته ؛ لكن كلام الجارية عن حرق رأس الملك يدل على تآمر بينهم .

قابلت الملك ، واستأذنت بالسفر ؛ لرؤية أطفالها في بلاد الملك حميد مدينة جلال الدين ، وبعد تشاور مع الوزير قبلا ذلك ، وأرسل معها سرية من مائة محارب.

وحملت الهدايا لأولادها وزوجها والملك والوزير ، وحلت ضيفة على الملك حميد بعد ثلاث ليال ، واستقبلت بالترحاب ، وقابلت أولادها الثلاثة ، وفرحوا بلقائها وحدثوها عن رحلة عذابهم ، وتنقلهم في عدة مدن .

وزارت والدة زوجها ، وقدمت لها هدية قيمة ، وقضت عشرين يوما في المدينة ، ثم قفلت عائدة لبلادها .

وزارتها خلود وبانة عندما علموا برجوعها ، وسألوها عن حال أطفالها بعد اختطاف طويل ، فطمأنتهم عليهم ، وأنهم بصحة جيدة رغم ما عانوه من ترحال وأمراض خلال تلك الشهور وفوجئوا أنها سألت عن أمها عزوف فقالت خلود : عجيب أول مرة تسألين عن أمك! أليس هذا غريبا يا بانة؟!

قالت سفانة : أعرف ؛ لكني سمعت أنها مريضة أثناء غيابي .

فقالت بانة : جميل أن تنقل لك الجواري حال أمنا ! أمنا تحسنت صحتها ، وهي تسعى لتزويج أخينا قبل موتها .. فقد طلبت له بنت إحدى أخوالنا .

قالت : صار في سن الزواج ..كم عمره؟

قالت خلود : سبع عشرة سنة .. والأميرة نوارة جميلة ، وتحب عمتها الملكة.

فقالت : أيقبل خالي زواج ابنته من ابن لص؟

صاحت خلود محتجة: لص ! كأنه لا لص في الدنيا إلا هو.. لا تنسي أن هذا اللص قريب

لأمك .

قالت بانة : والأمير شجاع ! وهو يتدرب في الجيش ، وذهب مع الملك سيف لبلاد صيرم .. وقد يصبح أحد قادة الجيش إذا تقدم به العمر.. الملك سيدفع مهر خاله .

رددت سفانة : الملك سيدفع المهر .

وقالت بانة : وسيقام له حفل كبير في المدينة.

قالت بتحزن : ودم أبي .. ورأس أبي.. يعملون حفلا ودم أبي لم يبرد!

قالت خلود : ويلك! أبوك له سنتان ميت .. هل بقي حزن وحداد ولا فرح ولا زواج؟!

قالت : إنه أبي ..نعم ، أنتم لا تحبون الملك زرارة.

قالت : وهل هناك فتاة لا تحب أباها يا سفانة ؟ !أنت تبالغين في حزنك في مقتل أبيك .. وقد اقتص الأبطال لمقتله ومات الملك ابن صيرم مغموما مقهورا ومملكته أصبحت مملكتنا ، وتفرقت ذريته في كل المدن والأمصار.

قالت : أنتن حبكن ضعيف ..ولا أخال أمي بكت عليه دمعة واحدة .

قالت : حتى لو لم تبكي عليه .. فهو قد طلقها ، وتزوجت غيره .. وأنت مخطئة .. أمي حزنت عليه ، وبكت عليه أكثر منك .. وهي علمت بموته قبلك وليس الحزن بطول المدة .. وأفهم من كلامك أنك لن تشاركي في حفل زواج أخيك بادعاء الحزن على أبي.

هاجت وقالت : آنا أفرح بعد موت أبي قتلا وغدرا! لا أستطيع أن أفرح أن أضحك.. لن أفرح قبل رؤية الكاهن غياث وأسمع الحقيقة منه الحقيقة كلها.

قالت بانة : ويلك أي حقيقة ! فهو الخائن والشرير ومشعل الحروب .. أراد تدمير بلادنا وبلاد حميد بقتل زرارة وخطف أولادك .. حاول قتله بالسم ؛ ليتهم الملك حميد باغتياله .. وهو الذي أرسل اللصوص بعد جمعهم في بلاد صيرم ؛ ليغتالوا الملك لما علموا بعودته لوطنه ومسقط رأسه .. وهو الذي قطع رأسه .. ومن حسن حظك أنكي لم تكوني معه وإلا لأسروك وباعوك جارية لأحد الأسياد إن لم يقتلوك .

قالت خلود : زواج الأمير رياض فرصة لتتصالحي مع أمك المجروحة منك ..فهي ما زالت غاضبة ناقمة عليك ؛ وربما جزعت على خطف أولادك أكثر منك .

قالت بتبجح :أنا لم أحزن على خطفهم ؛ لأني تخليت عنهم لأبيهم .. إنهم أولادهم .. إنهم يعيشون هناك .. لم يطلب أحد منهم مني البقاء معهم في زيارتي لهم.

قالت بانة: يا أختي إنك تخليت عنهم باسم الحزن .. يا سفانة كان بإمكانك العيش معهم مع قبولك طلاقك .. الحزن ليس له مكان ثابت .. كان بإمكانك العيش معهم كزوجة مهجورة ..أنت بدأت بظلمهم والتخلي عنهم ..الناس تسخر من حزنك ، وتصفه بالمصطنع الحزن الوهمي .. ما هذا الحزن ؟!

قالت بغضب : هل أغني وأرقص وأجلس مع الشعراء كما تفعل بعض الأميرات ؟ إنه أبي.. أبي المظلوم .

قالت خلود : مظلوم ! ولماذا مظلوم؟! أليس هو الذي طلب العيش في النفي ؟

قالت : وهل هو الذي طلب خلع نفسه ؟

قالت بانة : لم يعد يصلح للحكم والملك ، أصبحت البلاد تحت حكم الكاهن غياث .



رسالة

بدأت الاحتفالات بزواج خال الملك سيف الأمير رياض بن مناع ، فكانت ساحة الاحتفال تشتعل بالنيران والمشاعل كل ليلة للهو واللعب والغناء والطعام.

كان غلام يطرق قصر الأميرة سفانة ، وقال الغلام الطارق للحارس : رسالة للأميرة سفانة بنت زرارة .

أمسك حارس البوابة الرسالة ، وأغلق الباب ، واختفى الغلام في الظلام ، ودفع الحارس الرسالة لجارية من جواري الأميرة لدفعها لها ، أخذتها لمولاتها الأميرة التي ما زالت ساهرة تلك الليلة الصافية فقالت : رسالة يا مولاتي !

قالت: الكاتبة مستيقظة !

قالت : لا أدري .. هل أوقظها لك؟

عادت الجارية تصحب الكاتبة لقراءة الرسالة ، أخذت الرسالة وفتحتها وقالت : هل أقرأ ؟

نهضت الأميرة عن سريرها وقالت: قبل أن تبدئين ممن ؟

قالت الكاتبة : إنها من شخص سمى نفسه غياثا ؛ كأنه الذي كتب لنا قبل شهور

قالت باضطراب : الكاهن ! هات الرسالة .

أعطت الكاتبة الرسالة للأميرة التي نظرت فيها ، ثم قالت : انصرفي سأقرأها بنفسي .. إنها رسالة خاصة.

غادرت الكاتبة وتبعتها الخادمة بإشارة منها ، فأدركتا أن الرسالة مهمة وخطيرة، قرأت الأميرة بعد التحية والسلام وتمني الحياة السعيدة لها

أنا أكتب لك كرة أخرى يا مولاتي الملكة! إنهم يزعمون أني تآمرت على حياة مولاي الملك صديق العمر الوحيد ..كان الأخ لي والوالد ..ويزعمون أنني خطفت أولادك .. وأنا تسببت في عزل الملك ، وألقيت في السجن ..واستطعت الهرب بها معي من مال وعون من أبيك .

ولما وصل مولاي الملك بلاد حميد تشرفت بزيارته ومكثت ضيفا عنده أسبوعا ، وتجدد الحب

بيننا بعد ابتعاد سنوات .. وهذا ضايق حميد ووزيره وحذروا الملك مني ؛ كأنني عدو له .. كانوا متخوفين أن أحث الملك للعودة للبلاد ملكا ومطالبا بعرشه الذي خلع عنه بكل قسوة وتجبر .. وهذا حقه خاصة بعد أن تزوجت بموافقته .. وكان زواجك هو الصحيح وحده ، وبموافقة الأب .. فضيقوا عليّ ورموني في السجن .. ولم يستطع مولاي إنقاذي كما تعلمين .. وكان الملك الغالي يرسل الطعام إلي في السجن ، ودعمني بالمال حتى تمكنت من الهرب برشوة الحراس .. وهربت مع بعض المساجين إلى بلاد الملك النعسان ، ولي معرفة به ومع منجميه .. واستغل قصتي لأثارة الحرب بين المدينتين ؛ لأنه كان يحلم بضم بلاد حميد إلى مملكته منذ عهد أجداده وأبيه.. فجعل من صداقتي للملك زرارة سلما لغزو بلاد حميد .. فسعى لقتل زرارة بالسم ؛ ولكنه فشل وكشف أمر التسمم .. ولما انتشر خبر عودة الملك لبلاده اتخذها فرصة لقتل الملك بواسطة اللصوص الذين يستعين بهم ؛ لإثارة النزاعات لجيرانه من الملوك طمعا ببناتهم وأموالهم ولنفي التهمة عنه إذا كشف أمر اللصوص .. وإنه لا علاقة له بهم .. وأنا لا علم لي بذلك التدبير يا أيتها الملكة العظيمة .. أنا فقط نزيل وضيف على بلاط الملك ، ولم يكن يشاورني في خططه ومكره .. وهو الذي خطف أطفالك ، وكلفني بحراستهم خشية على حياتهم من اتباعه ، وإنهم سيكونون رهائن لحاجة تحدث بينه وبين بلاد الملك سيف .

من أنا ـ يا مولاتي الملكة ـ ليأخذ رأيي أيتها الملكة ؟! أنا فار وطريد من قبل بلدكم وبلد حميد وكان هدفه من موت الملك العظيم إثارة الحرب بين بلادكم وبلاد حميد حتى إذا هجم عليها فلن تدافعوا عنها ؛ ولكن لم يحدث ما توهمه .. وحكم الوزير غالب عقله وعرف الغاية من هذه الجريمة مما دفع الملك لإرسال اللصوص وبعض جنده للتمهيد للحرب .. ولما رأى صمت الملك سيف تجرأ وغزا البلاد .. وكانت الطامة الكبرى عليه وعلى مملكته .. واختفى في الجبال البعيدة خشية الأسر ولرفض أي ملك التعاون معه وحمايته ..وأنا استسلمت له خشية على حياتي ولأني رجل مطارد ومطلوب في بلدي وبلد حميد .. فقبلت بمهمة حراسة أولادك وهدفي الأول حمايتهم وحفظهم حتى يحين وقت نجاتهم .. ولما علمت بموته وقتل ضرار

زعيم المهمات الخاصة والخطرة للنعسان أوصلتهم لأهليهم سالمين .. وكتبت لك بذلك لتعلمي إخلاصي لأبيك ولَك .. ولا أريد منك جزاء ولا شكورا.

وأنا بكيت كما لم أبك من قبل لما جيء برأس الملك حتى أن النعسان قال : رأس صاحبك .. هذا رأس قد نملك بسببه بلاد حميد يا غياث.

زاد البكاء لدي فقد كان الأمر صعبا عليّ ؛ لكني طريد وأسير لديهم ..وأنا لم أمر بحرقه كما وصلني الخبر ؛ بل تجرأت واقترحت أن يعاد الرأس لبلاده خفية ؛ ولكن لا رأي لمن لا يطاع وهم أحضروا ذلك الرأس ؛ ليطمئن الملك على تنفيذ المهمة .. فهو رغم ثقته بضرار فهو لا يثق باللصوص وتآمرهم مع ضرار ، ووضع جائزة للصوص الذي اشتركوا في الجريمة وطمسها .. فالملك النعسان لم يتقابل بالملك زرارة ولو كرة واحدة .. أنا لا يد لي ولا حول ولا قوة عندهم .. وأنا بريء من دم الملك .. والآن رجال الملك سيف والأمير ابن ظفار يزعمون أنني وراء هذه الجريمة والاغتيال ، ويعتبروني القاتل الأول ويضعون الجوائز للقبض عليّ .. أنا مظلوم أيتها الملكة ، ولا كان بإمكاني منعهم من تنفيذ تدبيرهم ومكرهم ..ولم أحرق رأس مولاي ، ولم أدس له السموم .. وأنا لا يمكن أن أخون ولي نعمتي وسعادتي .. وأنسى العز الذي كنت أعيشه في حياة وعز مولاي زرارة.

هل تصدقين أنني أستطيع أن أحكم على الملك النعسان ورجاله الخلص ؟ وأن يقتل وأن يغزو بأمر مني ؟وماذا أستفيد من غزو حميد ؟!

وأنا سأكون في انتظارك ليلة زفاف الأمير رياض في الغابات الغربية ؛ لتسمعي مني شفهيا .. عندما أراك في الغابة سأظهر لك ؛ لأني ـ كما تعلمين ـ مطلوب القبض عليّ ليحكم عليّ بالموت بقتل صديقي الملك زرارة .. وإنما أطلب حمايتك إذا أنت قادرة على حماية صديق أبيك .. وأنا مستعد لتسليم نفسي للملك الشاب وتقديم رأسي للجلاد إذا هم مؤمنون بأني قاتل صديقي الملك .. أنت الوحيدة التي تستطيع إنقاذ حياتي للصداقة الصادقة التي كانت تربطني بأبيك الملك ؛ فإذا قبلت اللقاء بي يا مولاتي الملكة ستعرفين كيف ستحمينني من سيف الجلاد ؟ وأنا

ما زلت وفيا لأبيك حتى آخر نفس ، ولم أتآمر على حياته ..إنهم يقولون مالا يعرفون ؛ فإذا كنت محبة لأبيك عليك المحافظة على حياتي .. فاحميني من ابن ظفار وأعوانه ؛ ليعفو عني ، وأعيش ما قدر لي بسلام؛ ليتحقق السلام لمولاي الملك في قبره .

كررت الأميرة القراءة بضع مرات ، وتذكرت أنها تعرف الغابة الغربية في المدينة وذهبت إليها مرارا أيام الشباب وقالت لنفسها : إن اللقاء في الليل سيكون مغامرة ومخاطرة .. الجارية التي تحدثت عن حرق الرأس أين اختفت ؟ لماذا تكذب ؟! نسيت قصة غياث مع أمها وتسببه في طلاقها ، ونسيت تزوج أمامة سرا ، وكذلك خلود وبانة نسيت أشياء كثيرة ؛لأنها لا تريد أن تصدق وتهضم أن الكاهن يخون والدها ، ويسعى في قتله .. فكانت تقول : لعله فعلا مظلوم من هو ؛ ليكون له التأثير على أبيها الملك وعلى ابن صيرم ؟! من هو ليتآمر على قتل أبي الذي ساعده في الهرب من سجن هذه المدينة وسجن بلاد حميد كما اعترف لي أبي ؟ هو يطلب حمايتي ليموت بسلام ، كيف سأحميه ورأسه مطلوب ودفع فيها عشرة آلاف قطعة ذهبية .. ألديك الشجاعة لتلتقي بذلك الكاهن ؟ أذكر كم فرح وسعد أبي عندما التقاه في بلاد حميد ؟ ليلة الزفاف ستكون ليلة الجمعة القادمة ستكون المدينة في حفل كبير حتى الفجر .. هل أستطيع حماية الكاهن من أجل خاطر وروح أبي ؟ هل سيقبل الوزير أو الملك سيف شفاعتي ؟

اتخذت سفانة القرار الحاسم وهو لقاء الكاهن في الغابة ، ستتظاهر بأنها ستشارك في ليلة العرس ستذهب وحدها وعلى متن جوادها .

أشاعت في الصباح أنها ستذهب لحفل العرس في قصر أمها ، وتتصالح معها بهذه المناسبة الكبيرة .

ولما دخل الليل أمرت غلمانها بإعداد الجواد الذي ستذهب به إلى قصر الأم والأخ وكان الحرس قد سمعوا برغبتها بالمشاركة في آخر ليالي الحفل ، ففتح لها الباب الحارس وقد رفضت مرافقة أي خادم وحارس لها ، وقد اعتبروا صلحها مع أمها شجاعة وبادرة طيبة .

والأميرة معروف لديهم بحسن ركبها للخيل منذ طفولتها ، خرجت وهم يرقبونها باتجاه قصر

أمها وأخيها رياض ، ولما اختفت عن أنظارهم لبست عباءة سوداء فوق ثيابها واتجهت إلى جهة الغابة الغربية التي تعرفها حق المعرفة .. وكم من المرات طرقتها قبل رحليها مع الملك زرارة ، ابتعدت عن بوابات الطريق إلى الغابة .. لما وصلت إليها كان القمر يملأ الفضاء نورا لم تَر غياثا لأول الأمر فقالت : إنه يرقب المكان ؛ ليتأكد أنها وحدها فحسب ، وليس معها كوكبة من الفرسان والحرس .

تخلت عن الجواد وربطته في جذع شجرة ، وأخذت تحدق فيما حولها ، ثم رأت شبحا يخرج من بين الأشجار متقدما نحوها ، فهمست : نعم، هيئة غياث .

تقدم إليها مسلما وحانيا لرقبته وقال بعد التحية : كنت الوحيدة التي يحبها الملك ـ رحمه الله ـ من بين كرائمه ..وأنت كنت أكثرهم برا وعطفا به.. أنت شجاعة أيتها الملكة !.. كان والدك يجلك ويعترف بفضلك عليه وطاعته ..كان دائم الثناء عليك في محنته مع قومنا أو في تلك البلاد.. ولولا الضغط والحياء الذي تعرض له ما سمح بزواجك .. وكان لا يرغب في البقاء في بلاد عزلته عن الحكم ..كان غاضبا ناقما على الوزير أوس وغيره أيتها الشجاعة ! حياتي مهددة بالخطر والموت زورا وظلما .. هل أنا الذي يقتل صديقه ؟! لماذا ؟! ما الذي أجنيه أيتها الملكة من خيانة صديقي ؟! أأنا اقتل صديق العمر حبيب العمر وأخون ولي نعمتي من أجل ماذا ؟! أأضع له السم وهو الذي بسط عليّ حمايته من أيام الشباب ؟ ولولاه لنال مني أوس وغيره أنا فسرت المنام بما عندي من العلم أنا يا مولاتي بريء بريء بريء بريء من دم الملك كما كتبت لك . أنا لا سلطة لي لأقتل وآمر كنت ضعيفا في بلادكم لا حكم لي ولا قوة وكنت هاربا مطلوبا عند النعسان وجعلوني سجانا لأبنائك أليس هذا من ضعفي ؟ وكان يتكلم ويبكي .

قالت لما صمت : أنا أصدق أنك بريء يا غياث ! أصدق أنك ضعيف وأصدق هذا الدموع على أبي ! ولكن تلك الجارية ..

قال وهو يمسح دموعه بكم ثوبه : تلك الجارية مدسوسة لم يحرق رأس الملك .. ولماذا يحرق ؟ دفن ثم نقل لقبر حبيبي زرارة ليتني أدفن جنبه حين موتي .. فهده جارية ماكرة ..تريد أن

تنتقم وتثير الفتن حول رأس الملك العظيم.. أنا سمح لي برؤية الرأس ذاك اليوم المؤلم ؛ ليتأكد الملك أن المقتول الملك زرارة ؛لأنه كان لا يثق كثيرا برجاله ، ويخشى خديعتهم له طمعا بأمواله . وأنا أشرفت معهم على دفن الرأس .. وكان القائد ضرار هو الفاعل لكل شيء .. كانوا يسعون للاطمئنان على أني معهم .. ولست عينا عليهم .. أنا كنت أعيش معهم في رعب وخوف وموت .. وكان عليّ أن أظل تحت أعينهم ؛ لأني أعرف أنهم قتلوه .

وبكى وابتكى ، وترحم على مولاه الملك ، ثم ركن للصمت ، ولما طال الصمت بينهما . قال : أخشى أن يكون للوزير يد في مقتل مولاي زرارة . هتفت : الوزير كيف ؟!

فقال : هو الذي له عيون وجواسيس في بلاد حميد وبلاد صيرم ..وهو الذي وافق على عودة الملك لبلاده ، ولم يرسل جندا لحمايته ، ولم يطلب له حماية من الملك حميد .. فلما سمع النعسان بمقتل الملك أثناء الطريق أراد الاستفادة من مقتله ، فغزا بلاد حميد وأسر أطفالك؛ ليزيد من اشتعال النار ويثار لأبيه وجده .

قالت :كان هناك تقصير من الملك سيف ومن الملك حميد ؛ لكن من الصعب أن يكون الوزير متآمرا على حياة أبي مع لصوص ابن صيرم .. لا يكفي التفكير في هذا الاتهام ..هل كانت عودته حيّا تشكل خطرا على البلاد والحكم ؟ لا أعتقد.. أبي منذ خلع لم يعد يرغب بالعودة للجلوس على كرسي بدون حكم حقيقي.. أنت تعرف أن الحاكم الحقيقي في بلادنا الوزير أنا جئت لمساعدتك في النجاة من القتل .. وأعرف لماذا أصرت الجارية لاتهامك بحرق رأس أبي؟ هي أهديت لي بعد فتح بلاد صيرم .. قيل إنها من جواري الملك الهارب .. جلبت تلك الجواري وبعن في بلادنا .. وذكرت أنها تعرفك وخدمتك في قصر الملك عندما تحل عليه ضيفا

قال : كنت وحيدا يا مولاتي! لا خدم ولا حشم ..كان لديّ غلام وهبه لي الملك قبل أن أهرب من السجن بمعاونة من مولاي .. وفهمت أنه هدية منك لمولاي زرارة ، ثم هرب من عندي .

قالت : ماذا تريد مني لحمايتك يا غياث ؟

قال بانكسار : يريدون رأسي ، ويدفعون الأموال فيه ، وهم يطاردونني للنيل مني .. والله

يحميني منهم لحتى الآن .

قالت : أعرف ذلك .. فالوزير وغيره يتهمونك بالمشاركة في قتل أبي والدسائس والمؤامرات .

قال : هم يفعلون ذلك حتى لا يتهموا بالتقصير في الحفاظ على حياة الملك .

قالت : حسنا أيها الكاهن الطيب الصديق الوحيد لأبي المظلوم ! أنا أصدق براءتك من دم أبي لما أعرفه من حبك له ؛ وربما أنت الوحيد الذي أحبه في بلادنا كلها .. سأحميك كما تحب؛ ولكن كيف ؟

قال بلا تردد :الحل بسيط يا مولاتي الملكة ! اسمحي لي قول ذلك .. وهو أن تقبلي بي زوجة وقرينة ولو صوريا .

رأت الأميرة أن هذا هو الحل الوحيد لحماية حياة غياث من بطش الخصوم ؛ ولكنها تركت زوجها وأولادها حزنا على أبيها ، فكيف تتزوج من جديد ؟ ولكنها تتذكر أيضا حب أبيها لغياث وسعادته لما جاءه في بلاد حميد .. وكيف طلب منها أن تطلق زوجها من أجل حياته وإخراجه من السجن ؟

وأخرجها من خطرات قلبها قوله : اليوم يا مولاتي حياتي في عنقك أنت لن أمسك يا مولاتي ! فلست أهلًا للنكاح والجماع منذ عهد ملك أبيك؛ لكني سأكون زوجك أمام الناس ..علمت ببغضك للمعاشرة الزوجية بعد موت والدك .. وكانت سبب طلاقك من الأمير شداد ورحيلك.. أنا لا أرب لديّ لذلك ؛ لكني اسمي زوج لك .. سيتركونني أعيش بسلام حتى أموت بسلام .. وقد يسمحون لي بالعيش في بلادنا ولو بعد حين .. ويرفعون جائزة الفتك بي لو كان الملك حيّا لوافق على ذلك من الحب الذي كان بينا يا مولاتي الملكة!

قالت : كيف سنتزوج ؟وأين سنسكن ؟!

قال : إذا لم نتمكن من الزواج في هذه البلاد نتزوج في إحدى المدن ونشهره وبعد حين نعود إلى مدينتنا هذه كزوجين .

كانت فكرة غياث فكرة ذكية وعجيبة ؛ لذلك قالت لنفسها : وهل يقبل القوم بزواجي وبهذه

الحيلة ؟ إنهم يعتقدون أن الرجل من القتلة ودفعوا في رأسه ثمنا عاليا ؛ لكنه كان محبا لأبي ومحبوب أبي دون بناته الأخريات دون أمي .

قالت : أنا مقتنعة بهذه الحيلة الشجاعة يا غياث ؟ كيف سألقاك لأنقل لك موافقتي وتدبير أمر زواجنا دون علم أحد من بلادنا .

قال : سأنتظرك في مدينة نعمان التي تعرفينها حيث قد أمر النعسان بحبسي مع أولادك بحجة حمايتهم .. سأسكن في حي قربان أكبر الأحياء .. وفيه أغنياء المدينة وتجارها .. سأعمل في تجارة العطارة إما أجيرا عند أحدهم وإما أعمل وحدي وعندما تأتين المدينة تبحثي عني في سوق قربان حيث العطارين وسأجعل عمامتي خضراء . قالت : سأفكر بعمق في هذه المغامرة فقال : وإذا تزوجنا نصبر حينا من الزمن ، ثم نعود للبلاد بعد أن ينتشر ويشيع خبر زواجنا بين أهل المدينة ..ففي هذه الحالة تحميني من القتل ، وترضى عنك روح أبيك الذي لا يمكن أن يصدق أني شاركت في قتله وخيانته ..وتكونين قد أنقذت حياة أعز صديق له .. وسيعترف الناس بشجاعتك ، وإنقاذ حياة أخ أبيك غياث الكاهن المسكين.

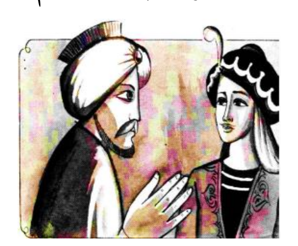
ردت :حسنا ! إذا قبلت بك زوجة يا غياث سآتيك خلال ثلاثة شهور إلى تلك المدينة.. إني أعرف تلك المدينة لقد زرتها أيام زواجي من شداد .. فله أخت تعيش فيها .. سأزعم أني سأزور الأولاد ، ثم أرحل إليك لإنقاذ حياتك.. أنا لا أنسى حب وسعادة أبي لك ..كان كثير الذكر لك بعد هروبك من سجن حميد .. أنا أحب من يحب أبي ، ولو كان أبي ميتا .. وإذا لم أحضر خلال هذه الشهور فاعلم يا غياث أني عاجز عن الزواج بك أو بغيرك .. واحفظ حياتك ؛ لعلي أستطيع إقناع ابن أختي سيف بالعفو عنك من أجل خاطر جده والدي ، وأنك صديقه ، ولا يمكن أن تخونه وتقتله .. فكما أنا مقتنع فلعله يقتنع ..ليس لي من أصدقاء أبي إلا أنت ..كلهم نسوه ، وانتهى حزنهم عليه بعد دفنه بأيام .

تمتم : رحمه الله ، رحمه الله

أعطته صرة من المال ، وعادت أدراجها إلى المدينة تفكر بإنقاذ غياث ، ولو بقبوله كزوج.

السفر

رجعت سفانة إلى القصر مع تباشير الفجر ـ وكانت الجواري في قلق عليها ـ فعمت السعادة لما أصبحت في جوف القصر ، وكان الكل يسأل نفسه أين كانت كل هذه الساعات ؟! لقد تبين لهم أنها لم تذهب لقصر أمها ، وانتشر خبر غيابها في بعض القصور حتى علمت به خلود وبانة والملك سيف ، فبعد انتهاء العرس نهار الجمعة زارتها الأختان تسألان عن هذا الغياب .. ولماذا لم تذهب لقصر أمها وأخيها كما انتشر الخبر بين خدم القصر الصغير ؟



فقالت: خرجت لأزور أمي وأبارك لها زواج ابنها ، وأنسى زواجها من ذلك اللص مناع .. حاولت نسيان ذلك الوصف حتى لا تغضبوا مني ، ثم لم تطاوعني نفسي لدخول القصر والمشاركة في الفرح والعرس .. فتجولت في أحياء المدينة قلت إنها فرصة لم تتاح لي من قبل ، ثم قفلت راجعة مع نور الصباح ..آه كم سررت من ذلك !

قالت بانة بغضب :ألا تخشين على حياتك ؟ رغم الأمان الذي يغمر البلاد ؛ لكنها لا تخلو من لص أو فاتك .

قالت : وما أدراه أني أميرة ؟

قالت : من الجواد والسرج الثمين من الثياب .

قالت : كانت الدنيا ظلماء .

قالت خلود : مهما يكن قد يطمع طامع بالجواد .

قالت : وأين الشرطة والعسس ؟

قالت خلود بتبرم : الدنيا لا تخلو من الأشرار واللصوص .

قالت : هذا ما حصل يا أخوات! ليس لي عشيق أسهر معه وأتسلل إليه .. وأنا لم أعرف ذلك

أيام الصبا.

قالت بانة : علمت أن الحدث وصل للملك ، واستاء من هذا الفعل، لقد نقل إليه كما نقل إلينا .. وقال: أميرة تترك البيت ليلا ، وبدون حرس وحماية استهتار وحمق

قالت بضيق : حمق ! الحمد لله لم يحصل لي شيء.. وما أخبار أخيكم الذكر .

قالت خلود : غضبان منك لعدم حضورك بعد أن شاع أنك ترغبين بزيارة أمك .. كان يرى أنها فرصة لتصفية القلوب من الشحناء ، وعودة الصفاء بينك وبين أمك أنت ترينا كأننا لا نحب أبانا .

قالت سفانة : بعد زمن سوف أرحل للعيش مع أولادي .. وهل يسمح لي الملك سيف ووزيره بذلك ؟

قالت خلود : العيش مع أولادك .. ألم تعودي من عندهم من وقت قريب ؟ أتريدين العودة لشداد ؟

قال بشدة : لا ، أرحل لرعايتهم حتى يتزوجوا .. فقد طاب لهم أن أعود إليهم .. أرجو أن لا يعارض الملك.

فقالت بانة : هو سوف يعارض ؛ ولكن من أجل الأبناء قد يستسلم لرغبتهم .. أما نصيحتي فأن تنسي أولادك ، وقد تعودوا على غيابك ، وتزوجي أميرا من أمراء المدينة .

قالت : يا إلهي ! أعود للحبل والحمل.. المهم تحدثن عن ذلك أمام الملك وبعد ردة فعله أفاتحه بنفسي بهذا الأمر .

استغرب الملك هذه الرغبة بعد هذه السنوات من الفراق ، ولم تتحدث عن تلك الرغبة لما عادت مباشرة ، ولم يعلق الملك على هذه الأنباء ؛ فكان الملك يرى أن تصرفات خالته من بعد موت والدها مضطربة غير منطقية .. الحزن الحاد الطلاق عدم الاهتمام لخطف الأولاد .

وهز الوزير رأسه وقال : إنها أم!

ولما مضى الشهر على لقائها بغياث استأذنت الملك والوزير بالرحيل لزيارة أولادها ؛ وربما

البقاء عندهم .. والغريب أنها طلبت مرافقة خمسة فرسان فقط ، وسترافق قافلة تجارية .

وبعد تردد وتشاور وافق الملك على ذهابها ، وأتبعها الوزير برجلين خفيين .

ولما وصلت للمدينة استقرت عند أولادها ، والقوم في دهشة لعودتها السريعة ؛ ولكنها بينت أنها زيارة عاجلة ، ستمكث عشرة أيام بينهم ، وطلبت من حرسها العودة للبلاد ؛ لأن إقامتها عند أبنائها ستطول .. وصدق كل طرف كلامها .. وجاءت بدون أن تصحب خادمة أو خادما ، ولتقنعهم بأنها إذا عادت سيصحبها حرس من حرس الملك حميد .

وخلال أيام كانت تبحث عن قافلة ستسافر إلى مدينة نعمان ، واتفقت مع قائد قافلة على ذلك وأنها متزوجة في هذه البلاد ، وعلى أنها راغبة بزيارة أهلها ، وأنها من عامة الناس ، حيث أنها كانت تخرج للسوق للشراء ، ولم يشك أهل بيتها بفعلها ذلك ، وكانت تصرفاتها طبيعية .

ولما خرجت القافلة من المدينة ببضع ساعات لحقت بها على جواد اشترته لهذه الرحلة ، ورحب بها القائد ، وكانت زعمت لأولادها وخدمهم أنها ستعتكف في مسجد الأولياء ثلاثة ليال ، وهو من المساجد الكبيرة في المدينة .

ونعمان تبعد أربعة أيام عن بلاد حميد ، ولما لم ترجع الأميرة بعد ثلاث ليال ، أخبر الأولاد والدهم عن اعتكاف أمهم . وقالوا : ذهب الغلمان للسؤال عنها في المسجد فلم يرها أحد . وذهب شداد بنفسه وتحدث مع القائمين على المسجد والاعتكاف .. فذكر بعضهم أنهم شاهدوا امرأة بما وصفوا جاءت المسجد ، وجلست فيه بعض الوقت ، ثم خرجت ، لم تنم مع العابدين والمعتكفين والناذرين .

فأرسل الملك حميد بريدا للملك سيف عن اختفاء الأميرة لسبب مجهول .

فقال الوزير معللا : إنها تلعب لعبة ماكرة أيها الملك !كانت عودتها لزيارة أولادها غريبة .. وسفرها بدون حرس وحماية كبيرة غريب أيضا !.. وطلبها بعودة الحرس كذلك .. ماذا تدبر الله أعلم ؟ اعلم أن لها تصرفات غير منطقية .. سأبعث رجال ابن ظفار لتتبع حركاتها.

والأميرة وصلت نعمان مع القافلة على أنها سلمى ، وقدمت الشكر للقائد ، ودفعت له بعض

المال ، ووهبته الحصان الذي اشترته للرحلة ، وغادرت الخان الذي نزلت به القافلة في الصباح ومشت لسوق العطارين تبحث عن غياث حسب الاتفاق .

ولما رآها دهش فرحا وبكى ، وأيقن قوة حبها لوالدها ، ورغبتها في إنقاذه وحمايته .. وذهبا بعد وقت قليل إلى القاضي ، وعقد لها القاضي زواجها على غياث وأحضر غياث الشهود ، وساقها إلى بيته كزوجة له ، ثم عاد للسوق ، واشترى خادمين ذكر وأنثى لخدمتها .

وقضى أياما لم يحاول أن يقربها كزوجة ؛ بل كان ينام في حجرة ، وهي في أخرى ، لا يجتمعان إلا عند الطعام .

ونفذ الاثنان ما اتفقا عليه ليلة لقائهما عند الغابة ، وأخذا يفكران بعد هذا الإشهار للزواج كيف سيعودان لبلدهم اللؤلؤ ؟

فقال : علينا أن نقضي بضعة شهور هنا حتى يصل خبر زواجنا للملك ووزيره .. وأنا خادمك الأمين ، وأنت أهل الوفاء ..إنهم الآن يبحثون عنك ، وسيصلون إلينا .. أنت الوحيدة التي تخلصين الحب لروح الملك زرارة .

قالت : كان واجبي أن أحميك من القتل إذا كان ذلك ما أستطيع فعله .. لقد كنت الصديق الوحيد والوفي لأبي ..كان سعيدا بك لما جئته في منفاه.. كان يذكرك ويعتبرك من أخلص الأصدقاء .. فعليّ أن أكافئك وأحفظ حياتك يا غياث ..كان أبي المظلوم يفضلك على إخوته وأقاربه .

فقال : لم تذهب تربية أبيك لك خسارة .. أنت الوحيدة التي ترغب لي الحياة .. كان عليّ أن أسعى إليك وأطلب حمايتك.. آه ! لو تلدين مني حتى يكون لي ولد من سلالة زرارة .. وبه أطمئن على حياتي .. سيعفون عني من أجل الولد يا سفانة العظيمة .

الاختفاء

أرسل ابن ظفار رجاله لمدينة حميد ، ثم علموا أنها رحلت مع قافلة لمدينة نعمان ، وحدثهم قائد القافلة أنه صحب امرأه لمدينة نعمان زاعمة أنها راغبة بزيارة أمها المريضة في تلك المدينة ، وليس لديها من يرافقها ، ودفعت له مالا ، وكانت تركب على فرس أعطته له لما وصلت نعمان ، وغادرت الخان .

فلما نقلت هذه الأنباء لسيف وغالب قال: ولماذا ذهبت لتلك المدينة ؟وجدت هذه المرأة منذ موت جدي ولها أفعال حمقاء غير متوازنة .

قال الوزير : أنا لما طلبت منا زيارة أولادها بعد يسير من مجيئها دهشت ؛ ولكني قلت: إنها أم ، وأحسنت الظن بفعلها ، وإن لم ارتاح لذلك.

قال : وأنا مثلك أيها الوزير وقع في قلبي شيء.. وماذا ذهبت تفعل في نعمان ؟ هذه المدينة التي حبس فيها أولادها

قال : أتراها ذهبت تبحث عن غياث اللعين ؟! لأنه هو الذي أفرج عنهم بعد موت ابن صيرم وضرار .. سأكتب لابن ظفار ليكثف جهده حول هذا الكاهن .. ويرسل رجاله لنعمان.. ويتتبع حركات تلك المرأة .. نحن غلبنا أن يكون ساكنا في كهف في مرعى متخفيا على شكل حطاب أو راعي .

استطاع رجال ابن ظفار الوصول إلى بيت غياث وسفانة ، وكانت أمامهم المفاجأة المؤلمة ، وهي زواجهما ، ودون علم الملك والوزير ، وأنها فعلت ذلك لتحميه من القتل والموت ، وأنها تفكر بالعودة للبلاد ، هكذا أعلمتهم ، وأنها كانت في انتظارهم .

نقل ابن ظفار هذه الأخبار للوزير والملك اللذين صدما مما نقل لهما من هول النبأ ، وعجبا من حمقها وجهلها بالزواج من قاتل أبيها أو المشارك في قتله .

فقال الملك : هذه المرأة تحتاج لحبس وحجر أتتزوج من قاتل أبيها ؟

قال : لقد فكرت في الأمر ، لابد أن الكاهن استغل عواطفها نحو والدها وصداقته لأبيها ،

وأقنعها أنه بريء من دم الملك .. إنه الشيطان في المكر والكيد .. ولم يجد نجاة من عقابنا إلا بالزواج منها .. وهي التي تركت زوجها بزعم الحزن على أبيها وهربت إليه .. وأعتقد أيها الملك أنها تلك الليلة التي زعمت أنها تتجول في المدينة ـ ليلة زفاف رياض ـ أعتقد أنها قابلته ورتب لها الأمر ، ونفذت خطته .

فقال الملك مفكرا : وهل صدقت أنه بريء من دم الملك؟! فقد علمنا من وزير ابن صيرم أنه متفق مع الملك على قتل زرارة لإشعال الحرب بيننا وبين حميد الملك .. وإنه اشترك في قتل زرارة مع اللصوص .

قال : نعم ، الوزير قال ذلك .. طبعا هو لم ينفذ القتل ؛لأنه جبان ؛ ولكنه رافق اللصوص وضرار في الحملة .. وهو الذي اهتم بأولاد سفانة ورحل بهم إلى نعمان .. ما العمل قبل أن يشيع الخبر في الأمصار ؟

قال سيف : هما سيعملان على إشاعته حتى لا نقتله .

قال : هذا ما يحدث ويسعى إليه أيها الملك ! لا يمكن أن يكون بريئا ومجبرا على فعل شيء .

قال : وهل يحميه الزواج منها ؟

قال الوزير : سيصعب مهمة القضاء عليه أمام الناس ..سيقولون لو لم تكن الأميرة واثقة من برائته ما تزوجته ، وفعلت كل ذلك من أجله .

قال : كانت قد تلقت منه رسالات .

قال : نعم ، علمنا بذلك من خدمها ؛ ولكن لم نطلع على ما كتب لها ، لقد أخبرت إحدى الخادمات أنها تلقت رسالة قبل تلك الليلة ـ ليلة العرس ـ ولم تقرأها الكاتبة ، بعد فتحها صرفتها وصرفت خادمة غرفة النوم ، وقرأت الرسالة بنفسها ..كما فهمت لابد أن هذه الرسالة تحدد زمن ومكان اللقاء بذلك الكاهن .

حاصر رجال ابن ظفار قصر سفانة ، وقاموا بالبحث بأشيائها الخاصة ومكاتبتها حتى وجدوا تلك الرسالة بينهن ، وكان فيها زمن ومكان اللقاء .

واستغرب أهالي المدينة لما انتشر خبر زواج الأميرة والحيلة التي اتبعتها والسفر لنعمان للزواج من الكاهن غياث ، وعم السخط بينهم من أفعال الأميرة التي كانت تعيب زواج أخواتها دون علم أبيها ، وتعيب زواج أمها من اللص مناع .. وهي تتزوج من متهم بقتل أبيها ، وشك الناس في قواها العقلية ، وزاد كره الناس لشخصها وأعمالها ، وشاع في نفس الوقت أنها فعلت ذلك لشكها وعدم تصديقها بتآمر غياث على والدها صديقه ، وأنه بريء من دمه ، وأرادت أن تكافئه لحب والدها له .

فقال الملك سيف بعد قراءة رسالة الكاهن :يا له من مخادع ماكر ! شيطان خبيث لعب على وتر حبها لأبيها ، لو لم تكن واثقة من براءته لما تزوجته ..هل هي مغفلة لهذه الدرجة ؟!

قال الوزير : الوضع دقيق يا مولاي ! هي ستعود للبلد كما فهمت من رجال ابن ظفار وتابع بحزم وحسم : ويجب أن يموت غياث .. فهو هارب من السجن .. ومتآمر على حياة الملك .. وأنا أتوقع أن تبقى هناك حتى تلد منه حتى يصعب علينا النيل منه .. إنها ذهبت لتحميه .. هذا الوضع يجب ألا يتم .. وسنستدعي وزير ابن صيرم ، وبعض أعوان الملك ابن صيرم ، ونعقد محكمة علنية .. هذه إهانة كبرى أيها الملك ! نحن دفعنا عشرة آلاف قطعة في رأسه ؛ لأنه مشارك في قتل الملك .. سيذهب القائد ابن ظفار إلى لقاء الوزير ؛ لاستضافته في المدينة وسماع كلامه مرة أخرى؛ ولعلنا نجد شهودا رأوا غياثا مع الملك ابن صيرم وهم يتفقون على اغتيال الملك . قال : وكلام الجارية!

قال : كلامها عجيب حقا أيها الملك! هي زعمت أنها سمعت غياث يتحدث مع الملك عن حرق الرأس .. ونحن علمنا أن رأس الملك لم يحرق . قال سيف :أين الجارية؟

قال : حبسناها ردحا من الزمن ورفضت أن تعود لقصر سفانة ، ثم اختفت .

قال الملك : لابد من اعتراف الكاهن ..كيف سيعترف اللعين ؟ وقد تحصن بالزواج من الأميرة الحمقاء .. كانت تحتج على طريقة زواج أخواتها .. اليوم ألبست الكل العار .. تتزوج من كاهن عجوز متهم بدم والدها.

الأسر

أرسل الوزير غالب رسالة لملك نعمان يطلب فيها المساعدة في القبض على الكاهن غياث المتهم بقتل الملك زرارة .

ونقل ابن ظفار بنفسه الرسالة ، يصحبه عدد من الفرسان ، وعربات لنقل غياث وسفانة .

وقبل الملك طلب الوزير ، وأرسل قائد الشرطة ليساعده في المهمة ، وحوصرت المنطقة ، واستسلم الكاهن لأمر الاعتقال بدون أي مقاومة ، وحملت الأميرة بعربة ، وكذلك الكاهن ، وشكر ابن ظفار الملك ورجاله وقائد الشرطة .

ولما وصل الأسيران البلاد كانا في غاية التعب والذل ، ولم يكن أحد في استقبالهم ، وأودع الكاهن في سجن خاص ، وحراسة مشددة من رجال الأمير عسكر ، ووضعت الأميرة في قصرها ، وجعلت لها خادمتان فحسب ، وحراسة من رجال الأمير ابن ظفار ، ولا يسمح لأحد بمقابلتها ، ولا يسمح بخروجها ولو للقاء الملك أو أمها .. وأحيط القصر بالجند من الخارج ؛ كأنهم في معركة حتى تقدم للقاضي الأكبر .

واستقبلت البلاد الوزير الأخير في بلاط ابن صيرم ؛ ليشهد على علاقة غياث بالملك ابن صيرم ودوره في الحرب والقتل ، وكان في رفقته بعض خدم الملك ابن صيرم وجواريه ، وإحدى نسائه التي ذكرت بعض أخباره .

وأمام القاضي أحضر الكاهن غياث والأميرة سفانة ، واتُهم بالمؤامرة على حياة الملك زرارة .

وتكلم وزير بلاد حمصان وقال : نعم ، هذا الرجل سكن البلاد ، وتقرب من الملك النعسان على أنه صديق الملك زرارة حاكم مدينة اللؤلؤ ، وكان يشجعه على الحرب ضد بلاد الملك حميد .. وأشهد الله على صدق أقوالي .

قال القاضي : هذا لا يهمنا أيها الوزير الشجاع ! نريد أن نعرف دوره في قتل الملك زرارة عندما قرر العودة لبلاده ومن المنفى الاختياري.

قال : كان الملك النعسان بن صيرم له هوى منذ استلم الحكم بامتلاك بلاد الملك حميد

بمساعدة وتواطؤ بعض عشيرته الطامعين بالملك .. حدث قديما أن قام جد الملك بغزو المدينة وتعرض للطرد من قبل والد الملك زرارة كما تعلمون .. فظل هذا الحلم يراود الملك للانتقام وتوسيع مملكته .. ولما سكن الملك زرارة المدينة غاضبا على بلاده سار لديه أمل أن تنشب حرب بين البلدين .. وأخذ الكاهن هذا يشجع الملك على الغزو والانتقام .. وأنا وبعض الأمراء نحذره من فعل ذلك ، ونقول : لا داعي لعودة الحروب بين المدن .. وكنت أكره رؤية الكاهن يجلس مع الملك .. وكان ملكنا يهوى التنجيم ويتفاءل به.. فوجد هذا الكاهن مكانا له عند الملك .. وذهب الكاهن لزيارة الملك زرارة بعد زواج ابنته من الأمير شداد .. وأخذ يشجعه على المطالبة بعرشه ؛ ليثير الحرب بين بلدكم وبلد حميد .. ولم يوفق في هذا المسعى كما كان يحدثني الملك بين الحين والآخر .. وأنصح له الحذر لا نريد أن يعيد التاريخ الحرب بيننا واضطر الملك حميد كما علمت من الملك لحبس غياث الكاهن ؛ ولكنه هرب إلينا ، فعاد غاضبا حاقدا أكثر على الملك حميد وبلده .. واقترح على النعسان قتل زرارة لإشعال الحرب بين بلديكم .. وكان الملك مترددا في تلك المغامرة .. أنا رفضت تلك الجريمة ؛ لأنه إذا كشف دورنا ستتعرض بلادنا للغزو من جديد .. فأخذ اللعين يفكر بحيلة تبعدنا عن الاتهام .. فكانت فكرة السم ؛ لأنه لن يشك أحد بأننا سممنا الملك لبعدنا عن خدمه .. وستشكون في حميد وأعوانه ، ورغبتهم بالتخلص من الملك ، وتناسينا المصاهرة بينهم بسبب طلاق الأميرة ، ثم عودتها لزوجها .. وطلب مني الملك عدم التدخل في هذه الدسائس، وترك الأمر له ، فابتعدت وكلي خشية من مغامراته ، وعرضت ترك الوزارة أكثر من مرة تلك الفترة .. فكان يرفض ويقول : أنت اهتم بأمر الداخل ، ودعك من الخارج .. وذهب الكاهن بنفسه متخفيا مع إحدى القوافل لدس السم للملك زرارة ، وعلمنا فشله بذلك ، وأن القوم كشفوا الدسيسة ، ويبحثون عن الفاعل ، وعاد الكاهن هذا إلينا خائبا ، وكان رجالي ينقلون لي أفعال الملك دون علمه بعد طلبه مني عدم التدخل والنصح .

وأخذوا يفكرون بحيلة جديدة ، وسمعوا من جواسيسهم برغبة الملك العودة لبلاده بعد

اعتلاء حفيد الملك العرش ، وذكر الكاهن للملك النبوءة القديمة وهي موت الملك على يد حفيده ، وكانت علاقة ملكنا قوية مع لصوص المدن ، ويستقبل كبارهم وزعماءهم في قصر خاص ، فاقترح عليه غياث أن يقوم هو والقائد ضرار ـ رجل الأعمال السرية والخاصة للملك خاصة مغامراته النسائية مع نساء وبنات الملوك ـ بأن يقتلوا زرارة أثناء رحلة العودة ، ولن يتهمنا أحد ؛ إنما هم لصوص وقطاع السبل ؛ وليطمئن الملك على تنفيذ المهمة طلب منهم رأس زرارة ، وفعلا نفذت الخطة الرهيبة ، وانتظروا في منتصف الطريق وعند منتصف الليل نفذوا الجريمة ، وعادوا برأس الملك ، وأكد غياث للملك أن الرأس للملك ، وتظاهروا بأنهم لم يعرفوا بقتل زرارة حيث نالوا أعطياتهم ، وعادوا لمدنهم على أمل نشوب حرب بين المدينتين وأشار الكاهن على الملك حرق الرأس ، ولكن الملك رفض ، وأمر ضرار بدفنه أملا بالاحتياج إليه في يوم ما .

ولم تنشب الحرب بين البلدين لحكمة ملككم ووزيره الحكيم ، ولأنه لم يتهم أحد بالقتل مما أغاظ الملك النعسان مما دفعه بعد شهور لغزو المدينة بقيادة القائد الكبير غضب مع عدد كبير من اللصوص ، وخطفوا أبناء الأميرة ـ هم كانوا يطمعون بأسرها معهم ؛ ولكنها على أثر موت أبيها ركبها الحزن وعادت إليكم ـ ونشبت الحرب فهذا هو دور الكاهن كما علمته وكما سمعت أكثره.

قال القاضي موجها كلامه لغياث: أيها الكاهن لقد سمعت ما قاله الوزير خضر بن بلال هل تنكر منه شيئا ؟

ظل صامتا فانتقل القاضي إلى سماع أقوال الخدم ورجال القصر ، ثم زوجة الملك نعمة التي أكدت صدق كلام الوزير ، وأن الملك كان يحدثها عن أحلامه وأفعاله لما بينهما من علاقة قوية ويثق برأيها ومشورتها ، وأكدت أن الوزير خضر نصحه كثيرا بترك بلاد حميد ونساء تلك المدينة ، فقد هوي امرأة وصفها أحد الشعراء ، ولما دخل رجاله المدينة وجدوها ميتة .

قال القاضي : هل الوزير كاذب يا غياث ؟ هل هؤلاء الشهود كذبة ؟ دافع عن نفسك

قال الكاهن : اعلموا أن الأميرة حامل مني ، ستلد خلال أشهر .. فهل تصدقون أن الأميرة حامل من قاتل أبيها ؟ إن الملك زرارة ـ رحمه ربي ـ قال لي يوما يا غياث أفضل البنات وخيرهن لي سفانة فإن ضاقت بك الدنيا ، ولم تجدني حيّا ،فاعلم أن سفانة ستساعدك وتخدمك وتحقق لك ما تريد .

فقال القاضي : وهكذا سخرت منها بمثل هذه الجمل ، وأعلمتها أنك بريء من دم أبيها ، وأننا نكرهك ونحقد عليك.. اقرأ أيها الكاتب الرسالة التي كتبها للأميرة رسالة الخائن قبل زواج أخيها رياض اقرأها أمام الملا .

قرئت الرسالة التي عرفها القارئ والتي استدرج بها المرأة للغابة ، فلما انتهى قال القاضي : أنت كتبت هذه الرسالة تدفع عن نفسك قتل زرارة ولِمَ لم تأت إلينا تحدثنا عن تآمر ابن صيرم علينا ، وتكسب ودنا ، ألم يكن الواجب عليك حماية صديقك كما تزعم ؟

صرخ : أنا لم أقتل !

قال القاضي : لكنك شجعت الملك على ذلك ، وعاونت عصابته .. والوزير خضر بن بلال مطلع على الكثير من هذه الدسائس.. هل هو كاذب ؟ هل هو متآمر؟

فقال غياث : هو جبان حقير جاسوس .

فقال الوزير خضر: أنت الغادر الخائن مولاه .. الخائن صديقه .. أنا لست جبانا ؛ ولكني أعرف من نحن .. ما هي قوتنا .. وأن الاعتماد على اللصوص جبن وخور ، ولا يحقق نصر ، وأن الاعتماد عليهم اعتماد على الهواء .. أنت وجدت هوى وطمعا لدى الملك فشجعته ، وهونت الأمر عليه.. أنت رأيت أن قتل زرارة سيحقق لك مصالحك ، وترتفع مكانتك عند الملك .

تركت سفانة مقعدها ، واقتربت من غياث وقالت : لماذا فعلت بي ذلك يا غياث؟! لماذا سخرت مني وجعلتني أهرب معك كما فعلت بانة وخلود للزواج منك ؟

قال بذل : أنت الحياة التي بقيت لي ، لم أجد أحدا يحميني من ابن ظفار وأتباعه إلا أنت ..

سامحيني لم يكن أمامي ملجأ إلا أنت .. أنت المرأة الوحيدة التي ستنقذني من سيف الجلاد .

اقتربت منه وقالت بغضب : خدعتني مكرت بي ..صدقت أنك بريء ..صدقت أيمانك.

قال : لم أجد إلا هذه الوسيلة لأعيش للنجاة من مطاردة ابن ظفار .. الحياة عزيزة.

طعنته بسكين هيأتها لذلك، طعنته بسرعة عدة طعنات وهي تصيح : فلتمت أيها الخائن ! فلتمت على يد من خدعتها وطلبت حمايتها أيها الكلب ! لن أسامحك يا خائن .. تقتل أبي وتتزوجني أيها اللعين . وانهالت عليه طعنا من جديد ، والجند صامتون بإشارة من الوزير ، وظلت تطعن به حتى فقدت الوعي .

ونقلت الجثة إلى المدفن ، ونقلت جثة الأميرة إلى قصرها .

وقدم الملك سيف الشكر للوزير خضر ومنحهم الهدايا ، وسمح لهم بعد أيام بالرحيل من البلاد في حراسة قوية من الجند ، ورجال ظفار ، وسمح له بالعودة لمدينة صيرم معززا مكرما ، وانتهى أمر النفي ، وأن يكون من جلساء الملك حسن بن علي ، هو ومن أحب من أتباعه وحاشيته.



الحفل

رجع كل أعوان ابن ظفار بعد انتشار خبر موت الكاهن على يد زوجته الأميرة سفانة بنت زرارة في قاعة القضاء والعدالة ، ولم تذرف دمعة على هلاكه الذي كان يصول ويجول أيام حكم زرارة في بلاد اللؤلؤ .

أمر الملك برفع الحراسة المشددة عن قصر الأميرة ، وعودة جميع الخدم لها .

وأقام الوزير حفلا لأعوان عسكر بن ظفار ، ووزعت عليهم الجوائز والهدايا ، وأقيمت الولائم للفقراء من عامة الشعب .

ولما مضى عدة أسابيع ، وعم الهدوء البلاد قال الوزير للملك الشاب: أيها الملك السعيد حان الوقت ؛ لأن نحتفل بعرسكم .. ويفرح أهل البلاد بزواجكم ، فإن الملكة عزوف راغبة برؤية ذريتكم ؛ لتفرح بهم قبل الرحيل إلى الدار الباقية ..فهي لم تفرح بزواج أمكم ـ رحمها الله ـ فتريد أن تفرح بحفيدها كما فرحت بزواج ابنها رياض .

ابتسم الملك وقال : أترى أن الوقت مناسب لزواجي ؟

قال وزيره : لابد من ذلك أيها الملك! لتنجب لنا خليفة بعد عمر طويل ..كل رجالات الدولة يرغبون بذلك وليس جدتكم فحسب .

فقال : وجدتي لديها عروس .

قال : سنجد العروس عندما تطلب أيها الملك!

قال : أنا اليوم وبعد الثأر لجدي لا مانع لديّ من الزواج .

قال : أتحب أن تكون العروس من بنات الأمراء؟

قال سيف : ننظر ، لا بأس .

قال : سنعرض عليك مائة من بناتنا ، وأنت تختار منهن من تشاء واحدة أو أكثر .. وإن لم يعجبنك نعرض عليك غيرهن ، وإذا لم يرق بنات بلادنا لك ، فنطلب لك من بنات الملوك والأمراء من غير بلادنا .

أخبر الوزير الأمراء برغبة الملك بالزواج ، ومن كان عنده فتاة ترغب بأن تكون زوجة للملك فليجهزها للمشاهدة ؛ لعلها تكون صاحبة الحظ .

قام الكتبة بتسجيل المائة الأولى ، وفي القصر الملكي أحضرت الأميرات الشابات بأجمل الثياب والحلي ، ولما جهزن تقدم الملك وبجواره الوزير ينظر بنات الأمراء ؛ ليختار منهن قرينته .. وكان الملك يقف ويتكلم مع بعض البنات .. يسأل عن اسمها وابنة من من الأمراء ، ولم ينجذب الملك لأي امرأة منهن .

فقال : أهؤلاء جميلات المدينة ؟

قال غالب : إنهن بنات السادة ..يبدو أن لا امرأة راقت لك حسنا أيها الملك ! سنعرض عليك بعد أسبوع مائة ، ونكرر هذا العرض حتى تروق وتطيب في عينك إحداهن .

فطلب الملك أن يعرض عليه من بنات الشعب الأسبوع القادم .

أعلن الوزير للشعب رغبة الملك بمشاهدة من ترغب من بناتهم بالزواج من الملك سيف فليتقدم بذلك لديوان الوزير .

تجمع عدد يزيد عن خمسمائة فتاة ؛ ليشاهدها الملك في ميدان القصر ، وأشرف الديوان على كسوتهن وإلباسهن أجمل الثياب .. وركب الملك بعد تجهيزهن جواده يتبعه الوزير وعدد من الفرسان ، وأخذ الملك يحدق النظر في حسناوات بلاده .. وأحيانا يتحدث مع فتاة ويسألها عن اسمها ، وبعدما دار على الفتيات كلهن طلب العودة لجولة ثانية ، ولما وصل عند فتاة أشار للوزير إليها ، فأخرجت من الصف فتقدمت خادمة تمسك بيدها ، ثم بعد حين أشار لفتاة ثانية ، فأخرجت من الصف وتقدمت إليها خادمة وأمسكت بها ، وأمر الوزير بصحبة الفتاتين إلى قاعة القصر هن وأهليهن من الآباء والأخوة ، لأن إحداهن يتيمة الأب .

وقدم الطعام للفتيات وأهلهن في ميدان القصر ، وصرفوا مع الهدايا ، وأكل الملك والوزير وأهل الفتاتين طعام الغداء ، وأعلن أن الزواج سيكون منهن في يوم واحد .. وعمت الأفراح المدينة ، وأخذ الوزير وأعوانه بالاستعداد لزواج الملك من فتاتيه .

وأقبلت الجدة عزوف تنظر زوجات الملك المختارات ، وقد تم عزلهن عن أهليهن .. وباركت للملك اختياره .. وجاءت خالاته بانة وخلود لمثل ذلك ، وأخذت نساء الأكابر وزوجة أبيه وأخواته يفعلن ذلك ، وبارك والده لؤي ذلك .

وأعلنت الأفراح في البلاد أربعين يوما ، ورفعت الرايات في البلاد ، وأخذ الضيوف يتوافدون من المدن المجاورة والمشاركة في العرس الملكي الكبير ، وكان حفلا تحدثت عنه الأجيال في مدينة اللؤلؤ .

الولادة

ومضت الأربعون يوما من الاحتفالات بمناسبة زواج الملك ، وذبحت الأنعام ، وقدمت الأطعمة للشعب والضيوف ، وقدمت الهدايا للملك وزوجاته ، وجهز القصر ليستقبل زوجتي الملك في جناحهن الخاص ، وفرح الناس بزواج ملكهم وخاصة أنه تزوج من بنات العوام .

وكانت الهدايا من الخيول والثياب والدواب والذهب وغير ذلك من الزينة والغلمان والجواري وانتهت الأيام السعيدة بسلام ودخل الملك على عروستيه .

وبعد انتهاء الزواج والحفل علم الناس أن الأميرة سفانة ولدت طفلها من غياث الكاهن ، ورفضت إرضاعه وأحضرت له المراضع .. فهو طفل لا دخل له في إجرام أبيه.. وهو ابن أميرة وحفيد زرارة .

ولما علم الوزير برفضها العناية برضيعها أمر بنقله إلى دار الرضاعة الخاصة بالأيتام والأمهات المريضات .

قامت عزوف وابنتاها بانة وخلود بزيارة للأميرة في محاولة للصلح معها بعد هذه الأحداث ؛ ولكن الأميرة رفضت مصالحة أمها وأصرت على العداوة ، وعدم الاعتذار لها ، ولم ترحب بزيارتها.

وهذا ضايق الأخوات من جديد وقالت الأم وهي تغادر غاضبة : سأموت وأنا عليك غاضبة ولولا أني أعرف أنك مني لقلت إنك لست مني !

قالت بصوت هائج : لا يهمني رضاك أو غضبك ، ولولا حرمة الانتحار لفعلته .. وتركت لكم هذه الدنيا لأرتاح منكم .

قالت بانة بحدة وغضب : مسكينة أنت ! زعمت للناس أنك تُحبين أبانا ، وتركت أولادك وزوجك بحجة ذلك، ثم نكحت قاتل أبيك ، ولم تشاوري أحدا.

صرخت وصرخت في وجوههن ، ودخلت حجرتها باكية ناقمة حتى أحضر لها طبيب ،

وأعطاها شرابا منوما.

وبعد أيام تعافت من الصداع والألم ، وفاجأت الجواري بالسؤال عن ابنها

قالت واحدة منهن : نقل يا مولاتي إلى دار رعاية الأيتام.

قالت : وماذا يفعل في دار الرعاية ؟

قالت : يرضع .

صاحت : أنا لا أريده أن يرضع، أريده أن يموت .

لما تحسنت صحتها زارت دار الرضاعة بحراسة قوية ، وقبلت الطفل ، وحاولت إرضاعه ؛ لكن لم تجد اللبن ، وصدرها جاف من اللبن .

ورجعت بعد يومين محاولة إرضاع الطفل ، ولم يجد الرضيع اللبن في صدرها ، وعادت إلى القصر حزينة متألمة من فشلها ، واستمر الحال مدة شهر ولم توفق بذلك .

وكانت عيون الوزير تتابع الأمر خشية قتلها للطفل في لحظة غضب.

كان حادث رفضها المصالحة مع أمها انتشر بين الأمراء والقصور، وسعت بعض نساء زوجات الوزير والأمراء الصلح وإصلاح ذات البين بينهن ، ورفضت سفانة أي صلح مع أمها ؛ لأنها نكحت لصا ، وهي زوجة ملك .

وجاء القدر وماتت الملكة عزوف بعد حياة صعبة مع المرض ، وقام الحداد عليها أسبوعا ، لأنها كانت ملكة في عهد زرارة ، ولم تشارك الأميرة في دفنها وعزائها حتى وصفت من النسوة بالمرأة الحمقاء العاقة واستاء الناس من فعلها .

ظلت الأميرة تتردد على دار الرعاية ومحاولة أن يقبلها الرضيع ، واقترحت على المسئولة عن الدار السماح لها بأخذه لقصرها ، فرفضت لها هذا الطلب ، وأخذت تذهب في الليل ساعية لذلك ، ولم يحدث لها قبول لدى الطفل .

خرجت في نصف الليل تتجول على الجواد في شوارع المدينة ، ثم تمشي بعد الجولة إلى دار الرضاعة ، وكان التابع يراقبها كما هو مطلوب منه أحيانا جهرا ، وتارة خفية ، وفي إحدى

الجولات الليلة مشت لدار الرضاعة ، فلما علموا من هي فتحوا لها رغم الوقت المتأخر من الليل ، فقامت المسئولة بإدخالها ، ثم أحضرت الخادمة الخاصة بالطفل الطفل نوح ـ كما سماه الملك سيف ـ تناولته أمه ووضعته على صدرها ، ولما تركتها الخادمة لفته بعباءة تلف بها نفسها وخرجت متسللة ، فأعطاها الحارس الجواد ، وعلم أنها تحمل طفلها الذي بكى قليلا ، ثم سكت وتبعها وهي تسير إلى الغابات ورمت الطفل آملة أن تأكله السباع والضباع ، ورمته حيث التقت بأبيه غياث تلك الليلة ، ومع انبلاج الفجر عادت للمدينة .

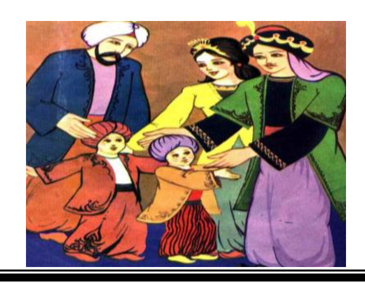
علم الوزير بفعلها ذلك ، وأخفوه عنها وتظاهروا بأنه قتل في الغابة حيث ألقته ، ونقل الوليد لبيت خاص في قصر الوزير غالب .

قال الملك لما سمع القصة : خالتي حمقاء! ولا أرى أنها تعترف به ابنا .

قال الوزير : هي الآن ستعقد أنه مات ، وأكلته الوحوش .. وسوف نراها بعد أيام تذهب الغابة للتأكد من موته .. وعلينا إقناعها بذلك .. ستجد ملابسه ممزقة .. ونحن سننقله لمدينة أخرى ؛ ليعيش باسم جديد وأب جديد حتى يكبر .

كان رجل ابن ظفار على علم بتصرفات سفانة ، وهم مهدوا لفعلتها، ونقلوه لمدينة الملك حسن بن علي مع مرضعته .

وبعد أيام خرجت الأميرة إلى الغابة ، ومكثت ساعات تبحث عن الطفل ، ولما وجدت ملابسه الممزقة أيقنت أن الوحوش ، قد أكلته ، وعادت للتفتيش لبعض الوقت ، واعتقدت أن أحدا لم يهتم باختطافه ، فعادت للمدينة ، ولما دخلت حجرتها أخذت بالبكاء الحين .



الحيرة

أصابت سفانة الحيرة ، هل مات طفلها ؟! هل أكلته الوحوش ؟هل نجا ؟ كانت تقول : هل لا يعرفون أني أخذته من الدار الحاضنة ؟ وأني ذهبت به إلى الغابة ، ولم أذهب به للقصر .. لم أجد إلا بقايا ملابسه الممزقة ، لماذا فعلت ذلك يا سفانة؟! هل جننت لتقتلي ولدك ؟ ما ذنبه ؟ قتلت أباه الذي غدر بك ؛ لينقذ رأسه من القتل والقصاص ، ألا يكفي ذلك ؟

ذهبت إلى قصر الملك ، وطلبت مقابلته ، فجلس لها وقال : مرحبا بخالة الملك .

قالت : ابني نوح .. هل علمت أنني أخذته من بيت الرعاية ؟ وذهبت به الغابة .

تظاهر بالدهشة والانزعاج : أأنت أخذته دون علمهم ورميته في الغابة ؟!كيف تفعلين ذلك أيتها الأميرة ؟!

قالت : أنا أردت أخذ ابني للقصر حتى يقبل صدري ؛ ولكني لم أدخل القصر تذكرت أباه فأخذته الغابة حيث التقيت بأبيه .

قال : حسنا ! سآمر رئيس الشرطة بالبحث عنه .. أمتاكدة أنك أنت أخذته من القيمة ؟

قالت : لا أدري لي أيام لم أذهب للدار ؛ لأني سرت به للغابة ..كرهته لكرهي أباه .

قال : سيهتم رئيس الشرطة بالأمر وباختفاء الطفل .. وسأرسله للبحث في قصرك ودار الرضاع .. هل من أمر آخر ؟

سألت : هل صحيح أن أمي ماتت ؟

قال بحدة : أمك طبعا ماتت .. نعم ماتت ..وهي غاضبة عليك وتلعنك .

ردت : تلعنني ؛ لأنها تزوجت لصا.

قالت : وأنت ماذا تزوجت؟

قالت : لم أكن أعلم أنه قاتل أبي .

قال : كنت تعلمين ، وصدقت رسالته ، وهو قد خدعك ومكر بك.

أقرت فهمست :نعم ، خدعني ومكر بي ؛ لذلك قتلته ..لماذا لم تقتلوه أنتم ؟

فقال : وعسى فعلك القاسي أن يخفف من ألمك وحزنك على جدي الملك ..كنّا سنعذبه عذابا شديدا قبل موته .. هل من أمر آخر ؟

قالت : المهم أن تبحثوا عن طفلي .. أريد أن أرضعه .

قال : علمت أنه رفض لبنك أو لم يجد لديك لبنا يرضعه ؛ ربما لأنك قتلت أباه!

صاحت كأنها محتجة : إن أباه كان يستحق القتل لقتله أبي زرارة الملك العظيم .. جعلني سخرية للناس والنساء .. يقتل أبي ويتزوجني متظاهرا بأنه بريء من دمه لعنه الله .

قال : هل من أمر آخر ؟

قالت : أرغب بالسفر لرؤية أولادي .. لقد طالت غيبتي عنهم .

قال : سيأتون إلينا.

بدت مستغربة : سيأتون إلى هنا!

قال : كتب الملك حميد بأنه سيرسلهم للعيش معنا بضع سنين .. سيتعلمون الفروسية في بلادنا ويتعلمون القيادة .

قالت : الفروسية .. أليس عندهم فروسية؟!

قال : عندهم .. زيادة خبرة وتجارب .. وبلادنا أفضل في التدريب .. ألا تُحبين حياتهم هنا ؟

قالت : أخاف أن يصيبهم مكروه.

قال : لا يصيب المرء إلا المقدور .. وفاجأها بقوله : ما رأيك بالزواج ؟

قالت : الزواج ! أنا أتزوج!

قال : الزواج دواء ونسيان للموت .. أم تعودين لزوجك شداد ، فهو محب لك .

تنهدت ومسحت دموعها وقالت : لو بقيت زوجة ما طمع بي الكاهن وغرر بي .. زعم لي في البداية أنه لن يقربني كزوجة مجرد زوجين .. وبعد أسبوع تذلل لي أنه لن يحميه من سيف الجلاد إلا أن يصبح أبا ، فصدقت ، وملكته جسدي .. كان شداد صالحا وطيبا وصبورا على أفعالي ؛ ولكن مقتل الملك أفقدني الصواب .. ضحيت من أجله بالعرش الذي تجلس عليه ..

رفضت الزواج من أمراء بلدي من حزني عليه وشفقتي على حاله بعد خلعه .. إنه رجل طيب.

قال الملك : ما دام هو رجلا طيبا فلنصلح بينكم .. وتكونين من ضمن حريمه وسأدعوه للحياة مع الأولاد ومعك حتى ينتهي التدريب ، وتعودون كلكم لبلاد الملك الشيح حميد .. هل أطلب ذلك منه ؟

عادت تقول : وابني المفقود .

أجاب : سنبحث عنه ، ونجده إن لم تأكله السباع ..أتعودين لشداد ؟

قالت : لكنه متزوج .

قال : كلنا متزوجون .. ها أنا زفت لي امرأتان في ليلة واحدة .. واليوم كلتاهما تحمل جنينا في رحمها .. وزوجك متزوج قبل الزواج منك .

قالت : تزوج بعد طلاقي ..ورأيت امرأته لما زرت الأولاد .

قال : فكري بعرض ابن أختك أمامة ـ رحمها الله ـ حتى يأتي مع الأولاد للزواج منك .. ونجعل زواجكم في البلاد وأمام أعيان المدينة .

همست : لم أعد أصلح للزواج .

فقال ضاغطا : ولكنك تزوجت ، وحملت قبل سنة .. وأنت صغيرة يا خالتي .. دعيني أخاطب الملك حميدا .. سيفرح أولادك بعودتك لأبيهم.

قالت : الأمر عليّ صعب ..كان أن قبلت بغياث ؛لأنني سعيت لإنقاذه فعلا أيها الملك ! صدقت كلامه وأيمانه .. وصعب عليّ أن أصدق خيانته لأبي .

قال : فكري بما عرضت جيدا .. وأنا رهن إشارتك.

قال بحزن : رحم الله أمامة .. لو عاشت لتراك ملكا تجلس على عرش والدها .قال : رحمها الله

قالت : ماتت مسكينة .. لم تفرح بك، أخفيت عنها منذ ولادتك .

قال : نعم ، مسكينة اضطرت للتخلي عني ؛ لأعيش وأصير الملك.

الأبناء

حضر أبناء الأمير شداد للتدرب العسكري في بلاد اللؤلؤ ، وبرفقة خمسين شاب صغير ، ولما استقروا بالمدينة بسلام وفي مدرسة التدريب ، غادرهم الحرس الذي رافقهم ، وبقي المسؤول عن متابعتهم ورعايتهم الأمير نعمان .

وكان الهدف من تدريبهم للعمل كقادة في بلادهم عندما يشبون ويصبحون من الفرسان الكبار .

فنزلوا في مساكن المدرسة كغيرهم من التلاميذ المختارين ، وسمح لهم بزيارة أمهم دون المبيت عندها ، ورفضت رغبتها أن يسكنوا معها ، فهم جاءوا ليكون قادة في بلادهم ، فعليهم البقاء مع الأصدقاء والتلاميذ ، ونظام المدرسة العسكرية ، وبعد ثلاثة أشهر من التدريب كان يسمح لهم بالخروج من المدرسة للنزهة والزيارات ، فتمكنوا من زيارة أمهم وخالتهم ؛ بل كانت خالتهم بانة تدعوهم إلى الغداء مع الأسرة في فترة الاستراحات مما سمح لهم التعرف على أولاد خالتهم وبناتها .. وكذلك الأميرة خلود عندما تكون في مدينة اللؤلؤ .

وعلم الفتيان قصة ضياع أخيهم نوح من خالتهم بانة أم محمد.

وقضى الأمراء وغيرهم خمس سنوات في التدريب والتمرين ، وبدأ الاستعداد للعودة لمدينتهم وقد أصبحوا فرسانا وشبابا، وجاء قادة من بلادهم يشاركونهم حفل انتهاء التدريب ، وجاء والدهم ضمن الوفد الكبير .

وهمس الأمير زيد بن شداد لأبيه رغبته بالزواج من ابنة خالته بانة الأميرة أمامة ، فتشاور الأمير مع والدها كساب في ذلك ، والتقى بالوزير غالب من أجل ذلك فدعا الوزير الأمير كساب وبانة ، وعرض الأمر عليهم ، ثم ذهبوا للملك سيف لأخذ رأيه الفصل ، ولما علم الملك بقبول البنت بارك الزواج .

واحتفل بالزواج قبل عودة المتدربين لبلادهم ، وكان الوزير غالب تلك الأيام يعاني من المرض الشديد وأمر الوزير بالاستمرار بحفل الزواج رغم شدة مرضه ، وعين الأمير لؤي

والد الملك وزيرا للبلاد بدلا من عمه كما طلب غالب ؛لأن الوزارة متوارثة في أسرته ، فعادت الوزارة لابن أوس الوزير القديم .

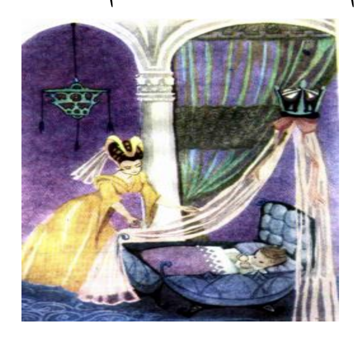
وأعلنت الاحتفالات بتنصيب الوزير الجديد في البلاد . سعت بانة بعد زواج ابنتها من ابن شقيقتها سفانة التصالح معها ، فزارتها في قصرها ، وباركت لها زواج ابنها من ابنتها ، وأنها تمنت أن تحضر الحفل معهم ، فقد حزن زيد بغيابها ، وظلت بانة تتحدث حول ذلك، وتلك صامتة محدقة النظر في أختها فقط.

ورجعت لقصرها متضايقة من تجاهل أختها لزواج ابنها فقالت لزوجها : حالها لا يسر .. تكلمت معها ساعة ؛كأنني أتكلم مع الجدار .. سافر ابنها زيد حزينا من موقفها وتجاهلها لعرسه وزواجه .. ولم يذهب لوداعها ، وعصى أمر أبيه وفعل مثله إخوانه .. هذه المرأة غريبة التصرفات يا كساب !

فقال : أين أخفت ابنها الرضيع ؟! لا أحد يدري لماذا أخذته من دار الرعاية ؟ هل تظنين أنه قتل كما يتحدثون ؟

قالت : قيمة الدار تقول : إنها جاءت ليلا ، وأخذته بحجة رضاعه ، ثم اختفى الوليد .. وهي تبحث عنه .. أختي تنكر قتله .. ذهبت به الغابة حيث التقت بذلك الشيطان، ورمته هناك .. والملك سيف يقول : إنه ابنها .. ماذا سنفعل لها ليعود لها صوابها ؟

فقال : فربما من أجل ذلك تلزم الصمت ، والملك يلزم الصمت بشأن الطفل.



النهاية

مضت السنون والأميرة سفانة تعيش على طبيعتها في عزلة ، ولا تحب الحياة الاجتماعية والاحتفالات والأعياد ؛ ولكن ظل لها الاحترام من الأسرة المالكة ؛ لأنها ملكت البلاد في يوم ما ، وأنها ابنة الملك زرارة ، وأنها خالة الملك سيف.

تزوج أولادها وأبناء أخواتها وبناتهم ، وهي على هذا الحال الانعزالي ، وأصبح أبناء الملك سيف شبانا مؤهلين للحكم والزواج .

اجتازت الخمسين سنة من العمر ، وذات ليلة طلبها الملك للقصر الملكي ، فمشت إليه بصعوبة ، فقد صار مشيها ثقيلا ومتعبا لها ، وبعد أن جلست رأت الوزير والد الملك ، وكان بصرها أيضا أصابه الوهن والضعف ، فقدم لها الملك تفاحة بيده ، فقبلتها ولما انتهت منها قالت : أرسلت لي هل من خبر؟

قال : نعم ، يا خالتي الطيبة ..دخل البلاد شاب من بلاد الملك حسن بن علي.

قالت : شاب ! وماذا يريد مني هذا الشاب؟!

قال : جاء هو وزوجته ضيوفا على البلاد ، ولهما رغبة بالجلوس معك ، والحديث معك .. هل أدعوهما للسلام عليك ؟

قالت بحيرة : وما شأني بهما ؟!

قال : استأذنا مني ، ومن أبي ..فهو يحمل لك رسالة شفوية.

قالت وما زالت الحيرة ترتكبها : رسالة شفوية ممن؟!

تبسم الملك وقال : عندما تقابليه تسألينه .

قالت : أهو في القصر ؟

قال : نعم، هو هنا ، وهو قريب لنا .

قالت : قريب لنا ومن مدينة ابن صيرم الخائن فليأت !

أمر الملك بإدخال الأميرين ، فأقبلا وحييا الملك والوزير ، فهما لهما بضعة أيام في المدينة .

أحدّ الأمير الضيف نظره بالأميرة سفانة التي أشار إليها الملك ، وحدقت به بدورها وقالت : هذا هو الذي يريد أن يراني، ويحمل لي رسالة شفوية.

أشار له الملك بالكلام فقال : نعم ، يا أمي ! أنت أمي ، وأنا ولدك الذي رميته في الغابة قبل عشرين سنة .

صرخت وقالت : أنت ولدي نوح ! وأنا أمك ! أنت ابن غياث!

فقال : نعم ، أنا ابن غياث الكاهن ! أنا ابن الذي قتل أباك الملك زرارة بن نعيم .. وابن الذي قتلت أباه.

لطمت وجهها وشدت شعرها وقالت بغل : ولدي أنت!

قال : سامحتك يا أمي ! وقد اهتم بي صاحب السلطان الملك سيف بن الوزير لؤي بن أوس ، ورعاني حق الرعاية ، وزوجني أميرة من أميرات مدينة حمصان ..أنا سامحتك ، وجئت لأعرف أمي أو حان الوقت لأرى أمي .. وأنا قائد في بلاد الملك حسن حيث دبر لقتل جدي الملك زرارة .. فقد أصبحت البلاد بلادنا ، وهذه زوجتي الأميرة نعمى حفيدة الملك حسن .

بعدما استوعبت الصدمة ضمته الملكة لصدرها ، وبكت قائلة : ولدي ! لقد كنت بائسة مصدومة ..فقدت صوابي من شدة الأحداث .. لقد قتلني أبوك قبل أن أقتله .

فقال والدموع تترقرق في مآقيه : أعرف القصة بالتفصيل .

قال الملك : كان الوزير غالب ـ رحمه الله ـ مدركا للخطر المحدق بك يا ولدي من قبل أمك فرتب الأمور لإبعادك عن البلاد على أنك ميت كما تريد أمك عندما رمتك في الغابة فأخذك رجاله .

قالت : نعم ، كان الوزير حكيما يا ولدي ! لقد جننت تلك الأيام .. تعال يا ولدي . وضمته إلى صدرها من جديد وقالت : فأنت فلذة مني ..طول كل هذه السنين لم أصدق أنت مت !

قال : غفر الله لك يا أمي .

قالت : غفر الله لنا كلنا يا ولدي .

تقدمت الفتاة ، وعانقت الملكة بكل صدق وحب .

قالت وهي تخاطب الملك :إنك ملك عاقل ذكي يا ابن أختي ! كم تمنيت أن تكون أختي حية ؛ لترى ولدها ملكا متوجا على عرش زرارة العظيم ! كان مقتله صدمة كبيرة لي.. ذهب عقلي مع موته ..وقد كنت أحس بالخطر المحدق به ، وسمحت له بالسفر دون جيش يحميه .. كان أبي يرى الوزير أوسا وأسرته خصوما له وأعداء .. لكنهم حكماء وفضلاء .. لقد بذل الوزير غالب الجهد الكبير للاقتصاص من قتلة أبي كنت ساذجة بالنظر للحكم والإدارة .. سامحوني اليوم يا آل لؤي .. لقد أسأت للكثير من الناس.

وعادت تحتضن ابنها وقالت : سامحت أمك التي أرادت لك الموت ولا ذنب لك .

قال : سامحتك يا أمي ! قابلت خالتي بانة ، وسعدت بحياتي وعودتي للقاء أمي

قالت : أسأت لأمي وأختاي ولأولادي ..أخوتك من الأمير شداد.

قال نوح : إنهم يحبونك.. وسيأتون البلاد ؛ لنتعرف عليهم كما قال الملك .

قال الملك: أرسلت وراءهم .. يجب أن يعود الوئام للجميع.. وسنبدأ بالصلح بين الأمير رياض القائد الكبير وأخته الملكة سفانة .

وحضر القائد رياض وزوجته ، وبعض أولاده ، وأختها بانة ، والأميرة خلود وزوجها ، وكان لقاء كبيرا دبر له الملك ووزيره لؤي ، واعترفت سفانة بخطئها وقسوتها ، وطلبت الغفران والمسامحة من كل من أسأت إليه ، وفي ختام العشاء قالت مخاطبة الوزير لؤي : أنت أب عظيم أيها الأمير ! لقد أنجبت لنا ملكا عظيما .. تعيش البلد في عهده بسلام وعزة وأمان.. كأنه زرارة العظيم !

فقال الوزير : بارك الله فيك .. كانت أم الملك شجاعة ، وقبلت بالزواج في تلك الظروف القاسية ؛ لتنجب لنا هذا الملك الشجاع ، ووفقنا في الحفاظ على حياته كما وفق هو بالحفظ على حياة الأمير نوح .. الحياة تحتاج أحيانا لأفعال غريبة .. وتصرفات نادرة شجاعة ، وعلى غير المألوف .

قالت : سامحني أيها الوزير ! كنت مستاءة فعلا من زواجك من أختي سرا .. ومن زواج أختي بانة هربا ، وكذلك خلود .. كنت صغيرة وأرى ذلك عيبا وإجراما .. اليوم انزاحت الغمة .. وكما كان زواجي من غياث على غير المألوف ، كان زواج أخواتي بنات الملك خارج عن المألوف ..كنت مقتنعة أن الزواج يجب عن طريق الأب وبموافقته ، لم أفهم ذلك المنام الذي شاع في القصر ، ويحرمنا من الزواج .. وعلى البنت أن تبقى دون زواج حتى يوافق الأب ، ثم رأيت ضعف موقف أبي عند زواجي في بلاد الملك حميد ، وقبوله ذلك لي ، ورفضه زواجنا في بلادنا .. كنت في غاية الحيرة من ذلك .. ووافقت على الزواج ؛ ليبقى بعيدا في منفاه .

قال الملك : رحم الله جدي ! كم كنت في شوق لرؤياه واللقاء به ، لم أبغضه رغم علمي بتهاونه في رعاية وعلاج أمي ، ورغم الخطر عند ولادتي ، وسيبقى عظيما في نظري .. وكان أبي شجاعا بأن قبل وهو ابن الوزير أوس بالزواج خفية ومن ابنة الملك .. فقد يفقد رأسه في مثل هذا الأمر الغريب .. وقد يشعل الحرب داخل البلاد .

فقال الأمير رياض : رحم الله الجميع ! ولا تنسوا شجاعة أمي الملكة عزوف .. وخوضها غمار تلك المغامرة الخطرة بتزويج ابنتها سرا حتى كلفها ذلك الطلاق والنفي وحيدة .

وظل القوم في لحظات ابتهاج وذكريات حتى صلاة الفجر .



قصص وحكايات الفوارس

مغامرات وخيال وأحلام وأخلاق وأخيار وأشرار وفرسان وشجعان

كل هذا وغيره تجده وتقرأه في هذه السلسة من القصص

الممتعة والمثيرة والمسلية

١ حسان والطير الذهبي

٢ الأمير جفر

٣ عبدالله البحري

٤ رمان

٥ الأميرة نهر الأحلام

٦ زهلول في ارض الجان

٧ مملكة مالونيا الملك بربار

٨ قطبة بن سنان

٩ حصرم بن سلام

١٠ القصر المهجور

١١ نمير وزعيط في جزائر البحر

١٢ انتقام الفارس شهدون

١٣ الأميرة تاج اللوز وولديها

١٤ الفارس جبل بن مجدو

١٥ سيف الزمان وجميلة

١٦ حكاية ريح البحر

١٧ الملك ابن الراعي

١٨ مدينة نجوان

١٩ الملك زرارة والملكة سفانة

٢٠ أبناء الملك سماك